

الشيخ الإسلام دة الله الإمام  
عجل الله فرجه إلى الشجرة الزاوية

# الجهاد في الإسلام

دراسة وإعداد وتحقيق  
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

مكتبة التراث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة للناسر.

الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ  
١٩٩٨ م



مَكْتَبَةُ الْإِثْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

ت : ٣٩١١٣٩٧

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائل في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمَوْهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ لَهَا أَجْنَةً يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وصلوات الله وسلامه على رسوله محمد الصادق الوعد الأمين ، سيد المجاهدين ، وإمام الأنبياء وخاتم المرسلين ، وقائد الغر المحجلين ، الذي جاهد في الله حق جهاده ، بقلبه ولسانه ، بدعوته وبيانه ، ثم بسيفه وسنانه .

ورضى الله تبارك وتعالى على آله وصحبه ، الذين ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، فرفع سبحانه في العالمين ذكركم ، وأعلى منزلتهم وقدرهم ، وأعظم لهم أجرهم . ثم أما بعد .. فإن مبادئ الإسلام الرشيدة ، وشريعته السمحة السديدة ، وتعاليمه السامية ، أسست علاقة المسلمين بغيرهم على المساواة والأمان ، لا على الحرب والقتال . قال رب العزة سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . وما شرع الجهاد في الإسلام إلا لدفع العدوان ، وكف الطغيان ، والتخليفة بين الدعوة والناس ، وما كان يوماً لحمل الناس على اعتناق الإسلام ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

وقال ابن الجوزي ، قال أبو الوفاء ابن عقيل : يقول مجتهد المُلحِدَة : إنَّ محمداً بُعِثَ بالسيف . وهذا مُحال ، وإنما بعث بالبراهين والحجج ، فلما لم يقبلوا قتلوا بالسيف مكان عذاب الله للأُمم السالفة <sup>(١)</sup> .

وفي هذا الكتاب نعيش لحظات الجهاد الأولى ، ونعيش نزول الوحي على قلب رسول الله ﷺ بآيات الجهاد في الإسلام ، وتوجيهات النبي القائد لأُمته ؛ تلك

(١) الوفا بأحوال المصطفى ﷺ [٤٣٥/٢] .

الأمة التي أمنها الله تعالى على الدفاع عن عقيدتها ، واصطفها سبحانه من دون الأمم كلها لتُصرة الحق وإعلاء كلمة الله تعالى فى الأرض .

كما نعيش ثبات هذه الأمة على الحق وبذلها للغالى والنفيس ومفارقتها للأهل والمال والوطن ، وانخلاعها مما كانت فيه ، والتحامها بمنهج الله سبحانه وتعالى ..

نعايش : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . فكانت أهلاً لتزكية العلى

القدير : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

### عملنا فى هذا الكتاب :

- ١ - لما كان شيخنا الإمام لم يخص الجهاد بخديث مستقل فقد تتبعنا كلماته فى ثنايا أحاديثه وخواتمه وجمعناها فى هذا الكتاب وجعلناها أعلا الصفحات .
- ٢ - عمل دراسة لآيات الجهاد فى كتب التفسير والحديث والسيرة وألحقناها بالكتاب كحاشية شارحة ومفصلة ومكملة لما قاله الشيخ حتى يكون الكتاب أشبه بدراسة موثقة لأحكام الجهاد عند الشيخ الشعراوى ومن سبقوه .
- ٣ - تحقيق الكتاب وتخريج أحاديثه وشرح الغريب ما أمكن ، وجعلناه قسمين :  
القسم الأول : جهاد الرسول ﷺ .  
القسم الثانى : غزوات الرسول ﷺ .  
نسأل الله أن ينفع به قارئه وكتابه وأن يجزل العطاء لشيخنا الإمام ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

غرة شهر المحرم ١٤١٩هـ

الموافق ٢٧ إبريل ١٩٩٨م

خادم العلم الشريف

عبد الله حجاج



جَمَالُ السُّبُكِيِّ

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا ۖ الْكُفَّارَ وَالْمُتَفَقِّينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَيُشَسُّ الْمَصِيدُ ﴾ [ التوبة : ٧٣ ] .

وقال تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفُفَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ [ النساء : ٨٤ ] .



## الإسلام والسيف؟

قال فضيلة الشيخ الامام محمد متولى الشعراوى: كثيراً ما يتردد هذا السؤال على السنة الناس، بل يزعم الكثير ممن فى قلوبهم مرض أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف، وهذا زعم باطل يرده الواقع والتاريخ. والمسألة فى غاية الوضوح لمن أراد الفهم عن الله ورسوله ﷺ، أما المعاند والجاهل فلا نستطيع أن نهديه ولو كنا حريصين على ذلك؛ لأنه اختار غير طريق الهداية وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

نقول: المسألة فى غاية الوضوح؛ لأن النصرة لا تكون بالسيف فقط، وإلا فكيف آمن المسلمون الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة، وكذلك الذين جاءوا لبيعة العقبة الأولى والثانية، والذين هاجروا إلى المدينة، وكذلك الذين استقبلوا رسول الله ﷺ فى المدينة حين هاجر ﷺ إليهم.

ومنشأ هذا الزعم الخاطئ أن الله تعالى لم يطلب من أى رسول سابق على رسوله محمد ﷺ أن يجاهد فى سبيل وصول الدعوة إلى الناس؛ لأن الله سبحانه هو الذى تولى تأديب الخارجين على دينه، العاصين لرسوله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

كما لم يحدث قتال منذ أن أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض إلى أن بعث سبحانه رسوله محمداً ﷺ إلا مرة واحدة، وهى: عندما طلب بنو إسرائيل الإذن بقتال الذين أخرجوهم من ديارهم، ورغم ذلك تولوا عن القتال إلا قليلاً منهم.

ولكن فى الرسالة الخاتمة اذن الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأمه أن تحمل السيف؛ لتؤدب به الذين يحولون دون وصول العقيدة الصحيحة للناس. إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة على الناس، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإنسانية، فبدلاً من أن يترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة، اصطفى الله محمداً ﷺ وكلف أمته برفع السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله ليخلّوا بين الناس وبين اختيارهم، ومن ثم على العباد أن يختاروا عقيدتهم بكامل حريتهم بعد أن يتبينوا سبل الهدى والرشاد.

وعندما يردد أعداء القرآن القول الفاسد: إن الإسلام انتشر بالسيف. نرد عليهم - كما سبق وصدّرنا به كلامنا: إن الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا برسوله ﷺ فى بدء الأمر كانوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع حتى عن أنفسهم، ولذا هاجر بعضهم إلى الحبشة بحثاً عن الحماية ومنهم من دخل فى حماية الأقوياء من أهل مكة.

إن رسول الله ﷺ بُعث فى أمة أمّية، ومن قبيلة لها شوكتها. وشاء الحق سبحانه ألا ينصر دينه بإسلام أقوياء قريش أولاً، بل آمن أول من آمن بالرسول ﷺ الضعفاء، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار فى منعة وقوة. وقام مجتمع المسلمين الأول حين اذن الله تعالى للنبي ﷺ ومن معه أن يحملوا السيف لا لفرض العقيدة، ولكن لحماية حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة.

ولو أن الإسلام انتشر بالسيف كم يزعم الأفاكون والكارهون لدين الله، فكيف نفسر وجود أبناء ديانات أخرى فى البلاد المسلمة ١٩  
إذن.. فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة، وعليه أن يكون قدوة لغيره.

وواجب كل مسلم أن يعرف أنه كمؤمن بالله تعالى، وبدينه، وببیتحتم عليه أن يلتزم السلوك الإيماني في حياته، إذ بالسلوك الإيماني مكن الله للإسلام في الأرض . إذن . فكل مسلم عليه واجب ألا وهو أن لا يترك في سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام؛ ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى شرع الله تعالى . ولذلك فالمفكرون والمنصفون من أهل الأديان الأخرى حينما يعتنقون الإسلام، إنما يعتنقونه لأنه منهج حق . يحصونه بالعقل ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن في الإسلام فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام . ولكن المفكرين المنصفين يفرقون دائماً بين العقيدة وبين متبعى العقيدة .

أما الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه، فإن صادفوا متبعاً للإسلام ملتزماً، دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام . ولذلك فالبلاد الإسلامية الكبيرة الآن والتي تضم غالبية سكانها من المسلمين هي بلاد دخلها الإسلام بالأسوة الإسلامية في أفراد متبعين ملتزمين ، فراق للناس ما هم عليه من تقى وورع، ومن تصرفات مستقيمة، ومن أسلوب تعامل سمح، أمين، نزيه، نظيف . كل ذلك لفت الناس إلى الإسلام وجعلهم يتساءلون: ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب؟ قالوا: لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : ما معنى الإسلام؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن . . فالذى لفت الناس إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] .

والدعوة إلى الله تكون باللسان، والعمل الصالح. فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان، ولا يكتفى المؤمن بذلك، إنما يعلن ويقول لمن يرونه على هذا السلوك السمع، الرضى، الطيب، إنها لفئة من ذاته إلى دينه. وهذه تفسر لنا كيف انتشر الإسلام بواسطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام وبوقار الإسلام وبورع الإسلام، فصار سلوكهم الملتزم مُلفتاً، وعندما يسألهم القوم عن السر في سلوكهم الملتزم، يقول الواحد منهم : أنا لم أجد بذلك من عندي ولكن من اتباعى لدين الإسلام الذى جاء من عند الله تعالى وبلغه النبى محمد ﷺ رسول الله للعالمين.

## النبي محمد ﷺ رسول للناس جميعاً

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق للناس كافة قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فى هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أن رسالة رسوله ﷺ لا تقتصر على قوم دون قوم، بل هى لكافة الخلق <sup>(١)</sup>، إنها الرسالة الخاتمة، المصدقة لما قبلها من الرسالات، والناسخة لما قبلها من الشرائع.

إنها رسالة التوحيد والإيمان بالإله الواحد الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ومليكه، له سبحانه وحده الأمر والنهى، والكل عبيده، عليهم السمع والطاعة لله تعالى واتباع رسوله ﷺ؛ من أطاع دخل الجنة ومن عصى فقد أبى، لا إله إلا هو له الحكم والأمر وإليه يرجع كل شىء.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم [١٥٣/ ٢٤٠] واللفظ له، وأحمد فى المسند [٣١٧/ ٢]. وعن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وإما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل، وأُحِلَّت لى الغنائم، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة». أخرجه البخارى [٤٣٨] واللفظ له، ومسلم [٣/ ٥٢١]، والنسائى فى المجتبى [٤٣٢].

تلك هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الخاتمة للرسالات والمهيمنة عليها، والذي يجب على كل من يزعم الإيمان بالإله الواحد ويدعى التبعية لموسى، أو عيسى عليهما السلام أن يؤمن بها ويتبع رسولها ﷺ، وإلا فلا دين له، هكذا شاء الله تعالى وحكم ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

لذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى يهود المدينة، ونصارى نجران، وغيرهم من أهل الكتاب أن يلتزموا بما جاء في كتبهم السماوية المنزلة على رسلهم من الإيمان بالإله الواحد الأحد، وما فيها من البشارة برسالة النبي الخاتم محمد رسول الله ﷺ، وهذا جزء أصيل من إيمانهم.

إذ لو كان هؤلاء القوم صادقين مع أنفسهم، ملتزمين بما جاء في منهجهم من توحيد الله تعالى والتصديق بكتبه، لآمنوا برسالة رسول الله ﷺ؛ وذلك لوجود البشارة بالرسول الخاتم، وأوصافه، وصفاته في كتبهم التي بأيديهم ويدنون الله تعالى بها حتى ينجوا من عذاب الله في اليوم الآخر: ولكن... كان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى موقف آخر.

يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: أعرضتم؛ لأن «تولى» فى هذا السياق تأخذ معنى «أعرض» أى: ابتعد، ونحن نعرف أن الإعراض كان ابتعاداً عن منهج الله. (١) لقد تطلب منهج الله داعياً، فكان رسول الله ﷺ هو (١) قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم:

تَوَلَّى: أَعْرَضَ وَانصَرَفَ، وَتَوَلَّى الْأَمْرَ: قَامَ بِهِ وَاهْتَمَّ بِهِ، وَتَوَلَّى فَلَانًا: أَحْبَبَهُ وَنَاصَرَهُ، وَتَوَلَّاهُ: قَامَ بِشَأْنِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٠] أى انصرف عن القوم وانفرد بنفسه، أو: إذا تولى أمر الناس وصار أميراً والياً عليهم، =



الداعى، ومهمته ﷺ هى الدعوة إلى المنهج؛ والقوم الذين دعاهم ﷺ هم أهل الكتاب، فمنهم من أقبل على الدعوة، ومنهم من أعرض ونأى وأعطى ظهره للدعوة وابتعد عنها.

الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يدعو الذين يزعمون أنهم على دين موسى، أو على دين عيسى، عليهما السلام، كما جاء فى قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤].

ذلك هو القصص الحق الذى لامرية فيه، فليس فى الوجود إله آخر غير الله تعالى الذى خلق كل شىء، وأنه سبحانه هو المتفرد بالعزة فى ملكه والحكمة فى خلقه.

= وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] أى: ومن ينصر الله ورسوله والمؤمنين فإنه يكون من حزب الله؛ وحزب الله هم الغالبون.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] أى الذى قام بإشاعة حديث الإفك وكبره ونشر أكبر قدر منه، وقوله: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠] أى: ذهب من مجلسه ليجمع السحرة، وقوله فى موسى- عليه السلام -: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصاص: ٦٤] أى: ترك البشر وذهب إلى الظل، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَكِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢١] أى: نحكم بعضهم فى بعض فيظلم بعضهم بعضاً، أو: نحجب بعضهم إلى بعض ليزدادوا ظلماً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢] أى: فمن أعرض ورجع إلى الكفر والضلال، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٨٣] أى: أعرضتم.

والحق تبارك وتعالى يأمر نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة التوحيد، والتي هي: إخلاص العبادة لله تعالى وحده دون شريك، وألا يخضع الناس إلا لأمر الله وحده؛ فالخضوع لا ينبغي أن يكون إلا للخالق عز وجل وحده، وألا يُحرّم أحد على أحد شيئاً مما أحله الله، وألا يحلّل أحد شيئاً حرّمه الله.

وإذا أعرض أهل الكتاب عن تلك الدعوة، فليقل الرسول محمد ﷺ والذين معه: اشهدوا بأننا مسلمون لله تعالى، طائعون لأمره ونهيهِ.

ونحن نعرف أن من يدعو أحداً أو يتأديه يقول له: تعال، فالإنسان يقبل على تلك الدعوة بوجهه، أما الذى يرفضها، فإنه يتولى ويعرض، أى يعطى للدعوة ظهره.

ولا يترك الحق ذلك الإعراض دون أن ينبه إلى الحقيقة الجلية، الواضحة، وهى أن مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام كنبى خاتم هو تجلٍ للرحمة والفضل. فالرسول محمد ﷺ هو رحمة الحق للخلق<sup>(١)</sup>، وفى رسالة رسول الله ﷺ ما يعصم الناس جميعاً- سواء كانوا أهل كتاب أم غير ذلك- من الزلل، ذلك الزلل الذى سببه تحريف الكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم، والإعراض عن منهج الله تعالى.

إن من فضل الله تعالى على الناس بعثة النبی ﷺ؛ يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن الإنسان الذى يرفض أو يُعرض عن رسالة رسول الله ﷺ إنما يرفض رحمة الله تعالى بالخلق<sup>(٢)</sup>.

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

صحيح الجامع الصغير: [٢٣٤٥].

(٢) قال ابن القيم: أصح القولين فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ =

كما أن الذى يصد عن تلك الرسالة، ويقف عثرة أمام تلك الدعوة إنما هو مانع لوصول الخير للناس، ومانع لرحمة الله أن تصل للناس. هذا الإنسان يجب التصدى له وإزاحته من طريق الدعوة حتى يُخلى بين الناس وبين دعوة الخير، ورحمة الله للخلق، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ف: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] .

= أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسائته: أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم فى تغليظ العذاب عليهم فى الدار الآخرة، وهم قد كُتِبَ عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم فى الكفر، وأما المعاهدون له فعاثوا فى الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقنُ دمايتهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم فى التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسائته العذاب العام عن أهل الأرض. فأصاب كل العالمين النفع برسائته.

الوجه الثانى: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانفعوا بها فى الدنيا والآخرة، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المريض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

## جهاد الحجة والبيان

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التحریم: ٩] معلوم أن الله تعالى لا يرسل رسولا إلا إذا عم الفساد ودرس الإيمان. ومعلوم أن النفس الإنسانية فطرها الله تعالى على الخير، وإذا لم يتسلط عليها هواها فهي تفعل الخير وتحبه، فإن تمكن منها الهوى ستر عنها الخير، وفتح لها أبواب الشر<sup>(١)</sup>. وقد يطيع الإنسان هواه في أمر من الأمور، أو يوقعه الشيطان في معصية الرحمن الرحيم ثم يتذكر فتلومه نفسه على ما فعل، وهذه هي النفس اللوامة، التي تلوم صاحبها على عمل الشر وتحرضه على فعل الخير؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وهناك نفس تتعطل فيها ملكات الخير، فتعمل الشر ولا تندم عليه، ثم

---

(١) عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ » ثم يقول أبو هريرة: واقراءوا إن شئتم: ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّبِيَّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٢٠].

أخرجه البخارى [٤٧٧٥]، ومسلم: [٢٢/٢٦٥٨] واللفظ له. وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: « إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم عما علمنى فى يومى هذا: كل ما نحلته عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم اتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم. »

جزء من حديث أخرجه مسلم [٦٣/٢٨٦٥]، وأحمد فى المسند [٤ / ١٦٢] واللفظ له. وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال: « اللهم آت نفسى تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها. » رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٩٣٣٩].

تستمرئ تلك النفس الشر، فتصبح أماره بالسوء، أى: لا تكتفى باقتراف الشر بل تأمر صاحبها به وتزينه له.

كما أن هناك النفس التى تطمئن لمنهج الله تعالى وتطيعه، وهذه هى النفس المطمئنة التى يقول فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ [الفجر]

وإذا وجد فى المجتمع أصحاب النفوس المطمئنة واللوامة فاعلم أن هذا المجتمع بخير، فالنفس المطمئنة تطيع وتأمر بالطاعة، والنفس اللوامة تلوم صاحبها وتنهاه عن فعل الشر.

ومعلوم أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة والعمل الصالح، وينقص بالمعصية (١)، ولكن فى المجتمع المؤمن تجد المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (٢)، وإذا ضعف مؤمن وارتكب معصية أو مخالفة يسرع الآخر ليلومه على ضعفه ويصحح له مساره، ولأن نقاط الضعف مختلفة فهذا يأمر هذا وهذا يأمر هذا، وبهذا يستقيم المجتمع، ولذلك امتدحهم رب العزة سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر].

ولكن عندما تصدأ النفوس، ولا يبقى فى المجتمع من يأمر بمعروف وينهى عن منكر، ويتحول المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر، حينئذ يتدارك الله

---

(١) مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [الذثر: ٦١].

(٢) أخرج مسلم [٦٦/٢٥٨٦] عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

سبحانه وتعالى الناس برحمته، ويتشلهم من الضلال إلى الحق ومن الظلمات إلى النور.

إذن.. لا تأتي رسالة جديدة طالما هناك نفوس مطمئنة تسير على منهج الله، وتأمّر بطاعته، أو مازال في المجتمع نفوس لوأمة، سواء في الأشخاص أو في المجتمع.. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولكن إذا عم الفساد، ولم يوجد من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، يرسل الله تعالى الرسل؛ لتعيد الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

وبالطبع فإن الرسول يعلم أن أهل الفساد أغلبية، وهم أصحاب النفوذ والسلطان، المتفعون بالفساد والانحراف في المجتمع، وهؤلاء إذا سمعوا دعوة الحق فإنهم لن يقفوا مكتوفى الأيدي، بل سيحاربون الرسول الذي يحمل منهج الحق إليهم، ولا بد للرسول أن يصمد أمامهم وأن يجاهدهم.

وقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ﴾ فاعل، مثل شارك، فأنت تشارك فلاناً، ومثل: قاتل، فأنت تقاتل فلاناً. إذن.. فلا بد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ﷺ والذين اتبعوه، وبين أئمة الكفر والفساد في المجتمع.

والرسول ﷺ والمؤمنون معه لا بد أن يعدوا أنفسهم على تحمل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج؛ لأن الكفار كما قلنا متفعون بالفساد، وحتى يستمر هذا الانتفاع، لا بد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق، ويقاوموهم؛ ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التي يعطيها لهم الباطل. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينبه رسوله ﷺ بأن هؤلاء الكفار المتفعين بالفساد سيحاربونه.

الله جل جلاله لم يقل لرسوله ﷺ: اتحد مع الكفار، ولكنه سبحانه قال ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾، أى: اصمد معهم في المعركة.. دليل ذلك الآيات التي أمر فيها الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالصبر على الجهاد. فقال سبحانه:

﴿اصْبِرُوا﴾ ولكن لنفرض أن عدوى صبر أيضاً في الحرب، فإن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفتان.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أى: إن واجهكم عدوكم بالصبر فليكن صبركم أقوى منه؛ أى: اغلبوه بالصبر وقوة التحمل.

الحق جل جلاله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ الكافر: هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه<sup>(١)</sup>، وأظهر عداوته للإسلام وأهله بالقول والعمل ولذلك فتحن نعرف أنه عدو ونحذر منه ونواجهه.

أما المنافق: فهو كافر فى باطنه، مؤمن فى ظاهره<sup>(٢)</sup>، وهذا هو الذى نخاف

---

(١) وكفر بالله، وكفر الله: أنكر وجوده، وكفر بالرسول: لم يصدقه، وكفر بكتاب الله: لم يصدق أنه من عند الله، وكفر بالإيمان: لم يعمل بما يستلزمه، وكفر الرجل حقه: حرمة إياه وأنكر عليه، وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أى: تبرات من إشراككم إياي مع الله. وكفر الشيء: ستره وغطاه، وهو أصل المادة فكان الكافر يستر النعمة، ويستر الحق ويخفيه.

كفر الله السيئات: سترها ومحأها ولم يعاقب عليها.

والكافر: غير مؤمن، وهى كافرة. وجمع الكافر: كافرون، وكفار، وكفرة.

القاموس القويم للقرآن الكريم [١٦٤/٢، ١٦٥] بتصرف.

(٢) نافق: أظهر للناس غير ما يضمّر، وأطلق المنافق فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمّر الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ والنفاق: مصدر نافق: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] كتعلبة مانع الزكاة.

والنفق: طريق مستور كالجر فى الأرض ينفذ إلى موضع آخر، والجمع: أنفاق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ القاموس القويم للقرآن الكريم [٢٨٠/٢] بتصرف. [الأنعام: ٢٠]

منه؛ لأننا لا نعرفه فتتقى شره، بل قد يطعننا من الخلف ونحن مطمئنون إليه، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة.

وإذا كان المنافق عدواً صعباً؛ فإن النفاق في ذاته بالنسبة لمنهج الله دليل قوة هذا المنهج؛ لأنه لا يُنافق إلا القوى، أما الضعيف فلا يُنافقه أحد. ولذلك لم يكن هناك منافقون والنبي ﷺ في مكة؛ لأن المسلمين كانوا قلة وكانوا ضعفاء، وكانوا معذيين مضطهدين. ولذلك لم يكن هناك ما يغري أحداً على نفاقهم؛ لأنه ماذا يستفيد من هذا النفاق؟، إنه سيتعرض للتعذيب والاضطهاد.

والمنافق في إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية. وبالطبع لا مصلحة له في نفاق أناس ضعفاء، ولكن عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ظهر المنافقون؛ لأنه أصبح للإسلام دولة وقوة، فالمنافق هنا: يتظاهر بالإيمان ليستفيد من هذه القوة لصالحه.

والحق سبحانه وتعالى قدم في هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين، وقدم في آيات أخرى ذكر المنافقين على الكفار؛ لأن الصدام سيحدث هنا أولاً مع الكفار، فكما قلنا كان في أول الدعوة لا يوجد منافقون، وإنما يوجد مؤمنون. لذلك كانت أولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة؛ وذلك بأن يعرض الرسول ﷺ عليهم الإيمان عرضاً منطقياً عقلياً؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بالإله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، فيسألهم مثلاً: من الذى خلق السماوات والأرض؟ وحين يديرها الكافر في عقله لا يجد أن أحداً ادعى، أو يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى<sup>(١)</sup>. لماذا؟ لأن الإنسان في تكوينه قد يدعى أشياء ليست له، ولكنه لا ينفى شيئاً هو صاحبه. فمخترع أى شيء مثلاً أو صانعه لا يمكن أن ينفى أنه صنع أو اخترع، بل هو يحب أن تعرف الدنيا

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٠].



كلها، من الذى فعل ومن الذى صنع. لذلك لا تجد شيئاً يُتفَع به فى الكون مهما كان قدره إلا عرفنا تاريخه، ومن أين جاء، ومن الذى اخترعه أو اكتشفه أو صنعه. لذلك فى المدارس يعلمون الطلبة من الذى اكتشف الكهرباء، ومن الذى صنع المصباح الكهربائى، ومن الذى طوره. كما أن مخترع الطائرة، أو الهاتف. . إلخ. معروف ومشهور، ومعروف أيضاً كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس الذى حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة، وهكذا كانت البداية.

إذن. . فكل شىء فى الكون مكتشف أو مصنوع أو مُخترع معروف من الذى اكتشفه أو صنعه أو اخترعه. فإذا كان هذا بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة. . فما بالك بالنسبة للكون العظيم الهائل؟ وإذا كنا نعرف من الذى أوجد مصباح الكهرباء، أليس من الأولى أن نعرف من الذى خلق الشمس؟! إذا كان مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت محدود، قد ملثوا الدنيا ضجيجاً عن مخترعه، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع، أ يكون الذى خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة لم يخبرنا عن نفسه؟! هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ولم تنطفئ مرة واحدة، ولا احتاجت حتى قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل.

إذن. . لا بد أن يكون لها خالق وموجد، هذا الخالق لا بد وأن تكون له القوة والقدرة التى بها خلق هذا الكون الهائل بما فيه تلك الشمس العظيمة الفائدة، التى تشرق على الأرض من ملايين السنين ولم تتمرد يوماً على خالقها العظيم سبحانه، فإذا جاء الرسول ﷺ وقال: إن الله هو الذى خلق الشمس، فإما أن نصدقه، فُسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد، وإما أن نقول: لا. . إن فلاناً هو الذى خلقها!! ولما لم يكن هناك من ادعى خلق الشمس فلا مناص من التسليم لله تعالى، وهكذا فى بقية مخلوقات الكون.

إن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية، أو قوى بشرية

مجتمعة متعاونة .. وكذلك عدم وجود مدعٍ، جعل القضية محسومة لله سبحانه وتعالى.

الرسول ﷺ يلفت العقول إلى أن خالق الأرض والسموات والكون والشمس هو الله جل جلاله، حيثذ تنبه العقول إلى أن من أوجد هذا الكون من عدم وعلى غير مثال سابق له قوة بلا حدود، وقدرة بلا قيود، وهو سبحانه الأحق بالعبادة وحده، وليست هذه الأصنام والآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى .

ونمضى الدعوة بالمنطق فيسألون من الذى خلقهم؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٢٠] فإذا كان الجواب لا هذه ولا تلك.

إذن .. فلا بد أن يكون هناك خالق وموجد لنا، فإذا جاءنا الرسول ﷺ وقال لنا: إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله سبحانه وتعالى. علينا أن نصدق؛ لانه لم يدع أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه خلق هذا الكون.

فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد. يثور سؤال: من الذى له حق وضع المنهج الذى يهتدى به الإنسان على الأرض؟

إن الذى له حق وضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده عز وجل، تماماً كما يكون أقدر من يضع الطريقة التى تعمل بها الآلة هو صانعها، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها، وهذا الصانع يجعل لصنعتة «كتالوج» فيه ما يحفظ هذه الصنعة من العطب وكذلك طريقة التشغيل .. إلخ.

ولذلك فأنت تعطى الساعة لمتخصص فى إصلاح الساعات، والثلاجة لمتخصص فى إصلاح الثلاجات. وكل هؤلاء قد درسوا عن الصانع الأصلي، أو من خلال هذا «الكتالوج» الذى وضعه لصيانة سلعته.

ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو أنك جئت بنجار ليصلح الثلاجة مثلاً! أيستطيع أن يصلحها؟!

إذن. . فما دام الله سبحانه وتعالى منهج فلا بد أن نتبعه؛ لأنه جل جلاله هو الذى أوجد هذا الكون العظيم بما فيه، وهو سبحانه خالقنا، ويعلم ماذا يصلحنا وماذا يفسدنا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤]

ولكن إذا لم يستمع الكفار إلى لغة المنطق وحوار العقل، ما العمل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾ بماذا يغلظ رسول الله ﷺ عليهم؟ بالمصير الذى ينتظرهم، فكل كافر هو عابد للدنيا؛ غافل عن الآخرة وما ينتظره فيها، فيكون لزماً على الداعى أن يذكره بمصيره المحتوم ورجوعه إلى الله خالقه وموجده، وينذره بالنار، ويخوفه من العذاب الذى ينتظره إذا لقي الله وهو كافر به عاص لرسوله مكذب بدينه، ويُقال له مثلاً: أنت لست خالداً فى الدنيا، ومنتظرك فى الآخرة عذاب أليم نتيجة لإعراضك عن منهج الله تعالى، وتكذيبك برسوله ﷺ، ولا تغرنك الدنيا؛ فنعيمها إلى زوال لا محال وإن طال. ذلك أن الكافر يخاف أن تضيع منه الدنيا. ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا مزرعة للآخرة وأنه مهما عمّر فى هذه الدنيا فهو - ولا بد - سائر إلى الآخرة، ويطمع فى رضا الله سبحانه والفوز بالجنة. ولذلك فإن كتب الحديث والسيرة تحفظ لنا عن الرعيل الأول من المجاهدين أن الواحد منهم كان يقول للرسول ﷺ أثناء المعركة: ادعُ لى يا رسول الله لأستشهد. ويقول آخر: أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى؟ فيقول له رسول الله ﷺ: «نعم»، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد (١).

هذا هو معنى الإيمان الذى فهمه الأوائل، ذلك لأنه لو لم يكن المؤمن واثقاً

---

(١) عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عِيناً يَنْظُرُ مَا صَنَعْتَ عِمْرَ أَبِي سَفْيَانَ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ. وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْدَمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ». فَلَدْنَا الْمُشْرِكُونَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَوْمُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ =

تمام الثقة، أنه بمجرد أن يقتله الكافر سيذهب إلى جوار ربه في نعيم ليس بعده نعيم، لما انطلق إلى المعركة مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وطالباً الشهادة في سبيل ذلك.

إذن.. فرؤية الكفار للمؤمنين وهم يقدمون على الشهادة بهذه الشجاعة، تهزهم من داخلهم؛ وتلقى في قلوبهم الرعب لأنهم يحسون بأن المؤمن على ثقة أكيدة من حياة الآخرة ومن نعيم الجنة الخالد الذي لا يفنى أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ أى أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم لعلهم يرجعون<sup>(١)</sup>. والحجة والمنطق هما الطريق الذى انتشرت به الدعوة الإسلامية. ذلك أن بعض الناس يدعى أن الإسلام انتشر بالسيف، وهذا غير حقيقى، فإجبار الناس على دخول الإسلام مخالف لمنهج الله فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ولكن لابد لكل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين، ومقتنعاً أيضاً أنه الحق؛ ولذلك فإن الذين

---

= جنة عرضها السماوات والأرض! قال: «نعم». قال: بنح بنح فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بنح بنح؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] فيه مسألة واحدة: وهو التشديد فى دين الله. فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواظ على الحسنة والدعاء إلى الله، والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة، وأن يعرفهم أحوالهم فى الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين. وقال الحسن: أى جاهدكم بإقامة الحدود عليهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وكانت الحدود تقام عليهم. ﴿وَمَا أُوَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يرجع إلى الصنفين. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى المرجع.

تفسير القرطبى: [١٨ / ٢٠١].

يقولون: إن الدعوة الإسلامية انتشرت بالسيف، نقول لهم لم يكن السيف لإجبار أحد على اعتناق الإسلام. ولكن لضمان حرية الرأي والتخلى بين الناس والدعوة إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك كل إنسان له مطلق الحرية في أن يؤمن أولاً يؤمن.

والذي لا يؤمن بعد ذلك يعيش في كنف الأمة الإسلامية تحمى له حريته في العقيدة، وتؤمن له ولأولاده وأحفاده حياتهم وفق ما شرعه الله تعالى. وما دام الإيمان بالله تعالى هو الذي يحكم حركة الحياة، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ لأن حرية العقيدة في الإسلام أصل من أصوله قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ولأن الله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين، ولكي يكون الحساب عدلاً، لا بد من البلاغ أولاً، أى: أن تصل الدعوة إلى آذان الناس، ومتى وصلت رسالة محمد ﷺ، دون عائق أو صاد، فالإيمان بها متروك لحرية كل شخص.

الله جل جلاله طلب من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين، أولاً بالدعوة بالبرهان والإقناع، فإن لم يقتنعوا فبالإغلاظ عليهم.

وفي شأن المنافقين أمره سبحانه ألا تأخذه في عقابهم رافة؛ لأن الرافة قد تغرى بالذنب، فعندما يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب، فإن ذلك يغريه ويغري غيره على السرقة، ولكن العقوبة لو أقيمت ولو مرة واحدة لكانت رادعاً وحماية للمجتمع كله، ولذلك نقول: إن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ومانع له.. لماذا؟ لأنك إذا أتيت بالقاتل وقتلته، وشهد عدد من الناس تنفيذ العقوبة، فإنه لو كان يدور في خلد أحدهم أن يقتل، فإنه سيمتنع عن القتل ليُبقى حياته، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وكذلك في السرقة، ليس الهدف أن أقطع يداً، ولكن الهدف هو ألا يسرق

أحد. ولذلك حين تثبت الجريمة سواء بالاعتراف أو شهادة الشهود، إياك أن تأخذك العاطفة في تنفيذ ما شرع من عقاب؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٠].

والذين يشككون في العقوبات في الإسلام، نقول لهم: هل هناك مجتمع ليس فيه عقوبات ؟ حتى إذا كان هذا المجتمع مجتمعاً لا يؤمن بالاديان، لابد أن يكون في كل مجتمع عقوبات، ولكن لا عقوبة إلا بتجريم، ولا تجريم إلا بنص.

إذن.. فكل دولة أيّا كان نظامها وكل مجتمع أيّا كانت هويته، لابد أن تكون فيه عقوبات، وإلا أصبحت الحياة فوضى، يستحيل معها العيش في أمان. فإذا كان حكام الدول على اختلاف دينهم ومذاهبهم يضعون ضمن قوانينهم العقوبات لمن يخرج على نظامهم، فلا يعارضهم أحد مع أنهم لم يخلقوا هذا الخلق الذي يحكمونه ولا يعرفون ما يصلحه على الحقيقة، حتى إذا علموا شيئاً غابت عنهم أشياء؛ لذلك تجد المادة الواحدة في القانون الوضعي تتغير وتتعدل أكثر من مرة ويُعطى لها أكثر من تفسير. وفي النهاية يُسنّ تشريع جديد وقانون جديد؛ لأن القديم أصبح لا يفي بمتطلبات العصر الذي يعيش فيه الناس، وهذا دليل على العجز بما سيكون، وعدم المعرفة بالغيب الذي سيأتي. ولا خروج من هذا إلا باتباع شرع الله الذي خلق وقدر، ويعلم ما كان وما سيكون، سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة.

الحق تبارك وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كنا علمنا أن جهاد الكفار: بالدعوة والإقناع، ثم بالقتال عندما يقف أئمة الكفر عقبة في سبيل وصول الدعوة إلى الناس، فكيف يكون الجهاد مع المنافقين وهم يتظاهرون بالإيمان؟

نقول: إن أول مراحل الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم. وقد كان المنافقون يقتربون الإثم، وإذا سألهم رسول الله ﷺ ينكرون فيصنع عنهم. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن: ﴿أَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا اقترفوا معصية أو إثمًا. ولذلك نجد في آيات القرآن الكريم ما يدل على أن المنافقين يحلفون كذباً في كثير من الأمور؛ منها في سورة التوبة:

قول سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وفي سورة المجادلة يقول الله جل جلاله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٢] فكانهم كلما حلفوا صدقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكشفهم الله تعالى لرسوله ﷺ وأخبره بأنهم كاذبون، وأمره سبحانه أن يغلظ عليهم في العقوبة.

ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة؟ نقول: لا؛ الغلظة عليهم في الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة.

إن هؤلاء المنافقين أشر على المسلمين من الكافرين، لماذا؟ لأنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، لذلك إلى جانب إقامة الحدود عليهم في الدنيا، لهم في الآخرة الخزي والعذاب الشديد، وهل هناك خزي وعذاب أشد من أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار. خالدين فيها أبداً. نسأل الله تعالى العفو والسلامة<sup>(١)</sup>.

(١) في كتابه طريق الهجرتين تحت عنوان: طبقات المكلفين في الدار الآخرة، الطبقة =

= الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، قال ابن القيم: وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسوله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين. ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر، أى: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها. فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة والزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر. وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يَدُلُّون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي: «ليس المسكين الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس، ولا يفتن له فيتصدق عليه» (١) فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذى لا يسمونه مسكيناً أحق بهذا الاسم من الطواف الذى يسمونه مسكيناً.

ونظيره قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب» (٢) =

(١) أخرجه البخارى: [١٤٧٦، ١٤٧٩]، ومسلم [١٠٣٩/١-١٠١] وأبو داود [١٦٣١، ١٦٣٢]، والنسائى فى المجتبى [٢٥٧١، ٢٥٧٢]، وأحمد فى المسند [٢/٢٦٠ و ٣١٦ و ٣٩٣ و ٤٤٩ و ٤٥٧ و ٤٦٩]، و«الموطأ» [٧٠٤/٢]، والدارمى [١٦١٨]، من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه البخارى: [٦١١٤]، ومسلم [١٠٧/٢٦٠٩]، و«الموطأ» [٦٩١/٢]، والنسائى فى «عمل» =



= ليس هذا نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم.

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيته حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه فالقى في النار»<sup>(١)</sup>.

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون الرقوب فيكم؟» قالوا: من لا يولد له. قال: «الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً»<sup>(٢)</sup>.

ومنه عندى قوله ﷺ: «الربا في النسبة»<sup>(٣)</sup> وفي لفظ «إنما الربا في النسبة»<sup>(٤)</sup> هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه اسم الربا عن ربا الفضل فتأمله.

والمقصود: أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتُعطى نوراً يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿يَسُورُ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ=

= اليوم والليلة» [٣٩٦-٣٩٨]، وأحمد في المسند [٢/٢٣٦ و ٢٦٨ و ٥١٧] من حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، وأبو داود [٤٧٧٩] من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه.

(١) أخرجه مسلم [٥٩/٢٥٨١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيته حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه، ثم طرح في النار».

(٢) أخرجه مسلم [١٠٦/٢٦٠٨]، من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه مسلم [١٠١/١٥٩٦].

(٤) أخرجه البخارى [٢١٧٨]، ومسلم [١٠٢/١٥٩٦]، والنسائى فى المجتبى [٤٥٨٠، ٤٥٨١]، من حديث أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما.

.....  
= وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ [الحديد].

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يُفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وياشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يياشره البُعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المتأبذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من البُعداء عنهم، وإن كان البُعداء متصددين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الطافون: ٢].

وقال تعالى فيهم: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى في الكفار: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمى، وعرف ثم تجهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشد كفراً وأخبث قلباً وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنى آخر أيضاً، وهو: أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضاً.

ومن هاهنا دخل عليهم البلاء، فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، بل كان ميلهم وصفوهم وجهتهم إلى الكفار، فقولوا على ذلك بأعظم الذل، وهو أن جعل الله تعالى مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله تعالى ورسوله ﷺ والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله تعالى ورسوله ﷺ أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الأسفل =

= من النار.

ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة [٢-٢٠] قسمهم إلى مؤمن ظاهراً وباطناً، وكافر ظاهراً وباطناً، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون. ذكر في حق المؤمنين ثلاث آيات [٣-٥]، وفي حق الكفار آيتين [٦-٧]. فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية [٨-٢٠] ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر بأنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون<sup>(١)</sup> في اشتراثهم الضلالة بالهدى. وأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى القلوب وأن الله يزيدهم مرضاً إلى مرضهم، فلم يدع ذمّاً ولا عيباً إلا ذمهم به. وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته.

ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل، فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك. ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى، والحيرة، والكسل عند عبادته، والزنا، وقلة ذكره، والتردد - وهو التذبذب - بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً، والكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين، وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة على المؤمنين لا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة. وكراحتهم لظهور أمر الله، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويكرهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسيله، ويعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدقين، ويعيون مزهدهم، ويرمون أكثرهم بالرياء وإرادة الثناء في الناس، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا =

(١) غِبٌّ: بمعنى بَعْدَ. [لسان العرب: ١/٦٣٥].

= منها رضوا وإن منعوا سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ، وينسبونه إلى ما برأه الله منه أو يعيبونه بما هومن كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله : قد اتخذوا إيمانهم جنةً تقيهم من إنكار المسلمين عليهم، وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذباً، قد اتخذ يمينه جنةً ووقاية يتقى بها إنكار المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجس- والرجس من كل جنس أخبثه وأقذر- فهم أخبث بنى آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الإضرار بهم وتفريق كلمتهم، وهذا شأن المنافقين أبداً، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء، وهذا عادتهم في كل زمان، وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأمانى الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجساماً، تعجب الرائي أجسامهم، والسامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خشباً مسندة، لا إيمان ولا فقه، ولا علم ولا صدق، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئاً، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة- كحال كثير من الزنادقة- وإما احتقاراً وادراء بمن يدعوهم إلى ذلك، ووصفهم تعالى بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله ﷺ، وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلاً، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله، وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ : الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، =

.....

---

= والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعاً، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء. ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير، والجن عند الخوف، فإذا زال الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بالسنة حداد، فهم أحد الناس السنة عليهم كما قيل:

جهلاً علينا وجُبناً عن عدوكم لبست الخُلُتان الجهل والجن

وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبأتها، وأما عند الأمن فيجب ستره، فإذا لحق المسلمين خوف دب عقارب قلوبهم، وظهرت المخبآت ويدت الأسرار.

ومن صفاتهم: أنهم أعذب الناس السنة وأمرهم قلوباً، وأعظم الناس مخالفة بين أعمالهم وأقوالهم.

ومن صفاتهم: أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبداً.

ومن صفاتهم: أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم، وسرائرهم تناقض علانيتهم.

ومن صفاتهم: أن المؤمن لا يثق بهم في شيء؛ فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجاً منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمي منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع - وهو بيت يحفره ويجعل له أسراباً مختلفة - فكلما طُلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد، قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه ومن بيته ذو الشيعة يتفصع

فأنت منه كقبض على الماء، ليس معك منه شيء.

ومن صفاتهم: كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات على حال واحد، بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق، إذا انقلب إلى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره، فهو أشد الناس تلوناً وتقلباً وتنقلأً، جيفة بالليل قُطْرُبٌ <sup>(١)</sup> بالنهار.

---

(١) القُطْرُب: دوية كانت في الجاهلية، يزعمون أنها ليس لها قرار البتة، وقيل: لا تستريح نهارها سعيًا.

- ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (٦١) فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً (٦٢) أولئك الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلُّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) ﴿النساء﴾

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به. فهم معارضون عنه، معرضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه وتعرضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا إلى ذلك معارضة رعبهم أنه لا يستفاد منه هدى.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم هم. فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى الله تعالى ورسوله ﷺ بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض. وقد علم الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعا ورثة الرسول ﷺ (١) إلى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مثوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ رموهم بالزوركة والتلبيس والمحال، وإذا رأوا معهم حقاً البسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قلبه شنيعاً (٢) لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل البسوه لباس الحق وأخرجوا في قلبه=

(١) ورثة الرسول ﷺ هم العلماء، لما رواه أبو داود [٣٦٤١] عن أبي الدرداء رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً، ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٠٩٦].

(٢) في الأصل: شنيع.

= ليقبل منهم.

وجملة أمرهم أنهم فى المسلمين كالزغل فى النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالتقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم. وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلا الله أمرهم فى القرآن، وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الأمة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرر من مشابهمهم أو الإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، و وعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور. فكم من قتيل، ولكن فى سبيل الشيطان. وسلب ولكن للباس التقوى والإيمان. وأسير لا يرجى له الخلاص، وفار من الله لا إليه وهيئات لات حين مناص. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار. من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشى على عقيه القهقرى إدياراً منه، وهو يحسب ذلك إقبالاً، فهم والله قطاع الطريق.

فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا. ففرار منهم أيها الغنم فراراً، ومن البلية: أنهم الأعداء حقاً وليس لنا بد من مصاحبهم؛ وخلطتهم أعظم الداء، وليس بد من مخالطتهم. قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعداً للمستجييين، ونصبوا شباكهم حوالها على ما حفت به من الشهوات، فويل للمغتربين نصبوا الشباك ومدوا الأشرار وأذن مؤذنتهم: يا شياه الأنعام حى على الهلاك، حى على التياب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العذاب، لا الموارد العذاب. وساموهم من الخسف والبلاء أعظم حطة، قال: ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس يوم حطة. فواعبجاً لمن نجا من شركهم لا من علق، وإنى يتجو منها غلبت عليه شقاوته ولها خلق.

فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذى أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا فى أردأ منازل أهل العناد والكفران. وبحسب إيمان العبد ومعرفة يكون خوفه أن =

.....

= يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقيها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر بن الخطاب يقول: يا حذيفة، ناشدتك الله . هل سماني رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أركى بعدك أحداً<sup>(١)</sup>. يعنى لا أفتح على هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل<sup>(٢)</sup>.

طريق الهجرتين وباب السعادتين [ ٤١٣ : ٤٢٠ ].

---

(١) كنز العمال [٣٤٤/١٣]

(٢) رواه البخارى تعليقا فوق حديث رقم [٤٨]، وقال الحافظ في «الفتح» [١٥٢/١]: هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في «تاريخه» لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولاً في «كتاب الإيمان» له. وعينه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» من وجه آخر مختصراً كما هنا.



## تقوى الله .. والجهاد

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ٧٥]

التقوى- كما هو معلوم- أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه أو يخشاه وقاية.

وقد ورد كثيراً في كتاب الله تعالى قول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وكذلك قوله جل وعلا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والسؤال: كيف نجعل بيننا وبين الله وقاية وهو سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً في معيته باتباع أمره واجتناب نهيه؟!.

والجواب: إن المطلوب أن نجعل الوقاية بيننا وبين عقاب الله سبحانه. ومن عقابه سبحانه: النار. إذن.. علينا أن نسمع ونطيع، وأن نأتمر بما أمر به ونجتنب ما نهى عنه، ونرضى بما قسمه سبحانه لنا ونحمده تعالى على قضائه وقدره، بذلك نكون قد جعلنا بيننا وبين عقابه عز وجل وقاية.

وقوله سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أى: علينا أن نبحث عن الطريقة التي توصلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبته. وهل هناك وسيلة إلا ما شرعه الله سبحانه وتعالى، وبلغه رسوله ومصطفاه من خلقه محمد صلوات الله وسلامه عليه؟

وفي حياتنا هل يتقرب إنسان إلى إنسان آخر إلا بما يعلم أنه يحبه؟ وإذا كان على المستوى البشرى نجد من يتساءل: ماذا يحب فلان؟ فيقال له: فلان يحب كذا وكذا.. فيُهدى إليه بما يحب.

إذن.. فكل إنسان يتقرب إلى من يحب بما يحب، فما بالنا بالتقرب إلى الله سبحانه؟ وما يحبه سبحانه بلَّغه لنا النبي ﷺ وهو:

الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره  
وشره<sup>(١)</sup>، وما شرعه من أركان للإسلام،<sup>(٢)</sup> ومكارم للأخلاق.<sup>(٣)</sup>

وفى الحديث القدسي: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته  
بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال  
عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع  
به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها، وإن  
سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وماترددت عن شيء أنا فاعله

---

(١) أخرج مسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: بينما نحن عند  
رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد  
الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ،  
فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن  
الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً ﷺ  
رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت  
إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن  
الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن  
بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله  
كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما  
المستول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة  
ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق. فلبث ملياً. ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من السائل؟» قلت: الله  
ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».

(٢) أخرج البخاري [٨] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:  
«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام  
الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

(٣) روى مالك في الموطأ [٢/٦٩٠] أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم حُسن  
الأخلاق». قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن  
أبي هريرة رضى الله تعالى عنه وغيره.

ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (١).

أى: أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بالفرائض التى شرعها سبحانه،  
ويزيد من النوافل والطاعات؛ تقريباً لله تعالى؛ شريطة أن يكون من جنس  
ما افترضه الله سبحانه وتعالى عليه؛ فلا ابتكار فى العبادات.

إذن.. فالوسيلة إلى الله تعالى هى طاعته سبحانه، والقيام بأمره فى  
«افعل» واجتناب نهيه فى «لا تفعل»، واتباع هدى رسوله ﷺ وسسته.

كما أن الوسيلة أيضاً هى: علم على أعلى منزلة من منازل الجنة.  
والرسول ﷺ طلب منا أن نسأل الله تعالى له هذه المنزلة فقال ﷺ: «إذا  
سمعتهم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على؛ فإنه من صلى على  
صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة؛ فإنها منزلة  
فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن  
سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» (٢).

إذن.. قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ  
الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥) [المائدة] أى: أطيعوا  
أمره، وابتعدوا عن محارمه؛ لتفوزوا برضاه سبحانه، ويدخلكم جنته.  
وذلك هو الفلاح العظيم (٣).

(١) أخرجه البخارى: [٦٥٠٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه مسلم [٣٨٤ / ١١]، وأبو داود [٥٢٣]، والنسائى فى المجتبى [٦٧٨] عن  
عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما.

(٣) قال ابن كثير فى تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ  
الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه،  
وهى إذا قرئت بطاعته كان المراد بها الانكشاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال  
بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثورى عن طلحة عن عطاء عن =

كذلك عليك أن تعلم أيها المؤمن أن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا بأن تحب لأخيك ماتحبه لنفسك، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على منهج الله تعالى فاحرص على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً.

وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك، ولكن هم الذين سيأتون من بعد ذلك. ولذلك عليك أن تجاهد في سبيل الله؛ لتعلم كلمة الله؛ وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل. وهكذا تملأ الهمة الإيمانية، فلا تنحصر في النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن بل يتعدى أثرها ويتسع ليشمل كل الناس.

ولذلك وضع لنا الحق سبحانه المنهج، وبين لنا الطريق المؤدى إليه. وكانت بداية الطريق أن الإنسان حينما يؤمن بأن الله نعيماً وجزاءً في

---

= ابن عباس: أى القرية. وكذا قال مجاهد، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وهب الله بن كثير، والسدي، وابن زيد، وغير واحد. وقال قتادة: أى: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه. وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيتنا والوسائل  
والوسيلة هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة فى الجنة وهى منزلة رسول الله ﷺ وإداره فى الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش. وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبهم فى ذلك بالذى أعد للمجاهدين فى سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التى لا تبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية الرفيعة، والأمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها التى من سكنها ينعم لا يأس ويحيى لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

تفسير ابن كثير [٢/ ٥٠، ٥١] بتصرف.

الآخرة هو خير مما يعيشه ويحياه، تهون عليه نفسه، فيذلها في سبيل الله تعالى، لذلك قال أحد الصحابة: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال ﷺ: «في الجنة»، فألقى الصحابي تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل (١).

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التي تنتظره خير من الحياة التي يعيشها. ولو حاولنا أن نستقصى مثل هذه البطولات والتضحيات لخرجنا بالكثير والكثير، لذا فلنأنا ننصح بمراجعتها في مظانها من كتب التراث فهي تمثل نموذجاً حياً لواقع عاشه سلفنا الصالح، وقدم فيه أغلى ما يملك وهو: حياته؛ في سبيل إعلاء راية التوحيد، حتى تصلنا الدعوة إلى الله تعالى خالصة نقية.

ونعود إلى موضوع الجهاد (٢) فنقول: لم يضع الله سبحانه الجهاد

(١) أخرجه البخارى [٤٠٤٦]، ومسلم [١٤٣/١٨٩٩] واللفظ له، عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه.

(٢) الجهاد لغة: بذل الجهد وهو الوسع والطاقة مأخوذ من الجُهد بالضم، أو المبالغة في العمل: مأخوذ من: الجُهد بالفتح.

واصطلاحاً عند الحنفية: هو الدعاء إلى الدين الحق، وقاتل من لم يقبله بالمال والنفس، قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وعرفه غير الحنفية بما يقارب هذا التعريف، فقال الشافعية مثلاً: هو قتال الكفار لنصرة الإسلام.

وأنسب تعريف للجهاد شرعاً أنه: بذل الوسع والطاقة في قتال الكفار ومدافعتهم بالنفس والمال واللسان.

الفقه الإسلامى وأدلته [٤١٣/٦-٤١٤]

حكم الجهاد: هو فرض على الناس لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. =

.....  
= ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الجهاد واجب عليكم مع أمير بر أو فاجر». أخرجه أبو داود (١).

قال النفراوى فى الفواكه الدوانى شرح الرسالة: ويتعين على أمير المؤمنين الجهاد، وعلى جماعة المسلمين إن لم يكن (٢).

وفرضه على الكفاية على ما ذهب إليه الجمهور.

وقال محمد بن أحمد بن جزی فى قوانين الاحكام: هو فرض كفاية عند الجمهور. وقال ابن حبيب: فرض عين.

وقال الداوودى: هو فرض عين على كل من يلى الكفار. وإذا حُميت أطراف البلاد وسدت الثغور سقط فرض الجهاد وبقي نافلة.

ويتعين بثلاثة أسباب:

أحدها: أمر الإمام. فمن عينه الإمام وجب عليه الخروج.

الثانى: أن يفجأ العدو بلاد الإسلام فيتعين عليهم دفعه، فإن لم يستقلوا لزم من قاربهم، فإن لم يستقل الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو.

والثالث: لاستنقاذ أسارى المسلمين من أيدي الكفرة (٣).

وفى المختصر: الجهاد فى أهم جهة، كل سنة وإن خاف محارباً، كزيارة الكعبة (٤) فرض كفاية. (٥) قال الخرشى فى شرح المختصر فى هذا المحل: يعنى أن الجهاد فرض كفاية على المشهور يسقط بفعل البعض لقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥] دل على =

(١) رواه أبو داود [٢٥٣٣] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه؛ بلفظ: «الجهاد واجب عليكم مع أمير، بر كان أو فاجر». وقال الألبانى فى ضعيف أبى داود [٥٤٥]: ضعيف.

(٢) الفواكه الدوانى [٤٦٣: ١]

(٣) ابن جزی، القوانين: [١٤٤].

(٤) المراد بزيارة الكعبة إقامة الموسم، أى: الوقوف بعرفة فى كل سنة، لأن زيارة الكعبة ليست فرضاً لذا. يجب على الإمام أن يرسل جماعة فى كل سنة لإقامة الموسم إن كان هناك إمام وإلا فيكون فرض الكفاية على جماعة المسلمين.

(٥) للمختصر [١١١].

= أن الخطاب للجميع على سبيل البدلية وأنه يسقط بفعل البعض، ولو كان على الأعيان لكان القاعد بلا ضرورة عاصياً. <sup>(١)</sup> وقال الشيرخيتي في شرح المختصر في هذا الحل: فلأن قيل كيف غضب ﷺ على الثلاثة الذين خلفوا مع أنه فرض كفاية؟ فالجواب: أنه كان فرض عين على الأنصار؛ لمبايعتهم رسول الله ﷺ على ذلك، فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة. قاله السهيلي في الروض الأثف في حديث الثلاثة عن ابن بطال <sup>(٢)</sup>.

بيان وجوب الهجرة على العباد [٤٦ : ٤٧]

حد الجهاد: قال ابن عرفة: هو قتال مسلم كافراً غير ذي عهد؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، أو حضوره له، أو دخوله أرضه له <sup>(٣)</sup>.

قال الخرشي: وقوله لإعلاء كلمة الله يقتضى أن من قاتل للغنيمة، أو لإظهار الشجاعة وغيرها لا يكون مجاهداً فلا يستحق الغنيمة حيث ظهر ذلك، ولا يجوز له تناولها حيث علم من نفسه ذلك <sup>(٤)</sup>.

وأصل هذا الحد ما جاء في صحيح البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» <sup>(٥)</sup>.

وفى المدخل: إذا نوى أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا يضره ما اعتراه بعد ذلك من قتالهم غضباً أو حمية أو ما أشبهها؛ لأن هذا كان من وساوس الشيطان ونزغاته، وهواجس النفوس التى لا تملك. والله عز وجل قد رفع ذلك عنا <sup>(٦)</sup>.

قلت: ولا يضره أيضاً قصد الغنيمة إذا قاتل لإعلاء كلمة الله كما بينه العلماء؛ ولذلك قال الشيرخيتي فى شرح المختصر عند قول المصنف ولا يغسل شهيد معترك: واعلم =

(١) الخرشي: [٤٠٦/٢].

(٢) الشيرخيتي، ٢/ ورقة ٦٣ ظهر. وانظر الروض الأثف للسهيلي [٣٢٣/٢].

(٣) ابن عرفة: [الحدود/ ١٣٩].

(٤) الخرشي: [٤٠٥/٢].

(٥) أخرجه البخارى: [٢٨١٠].

(٦) ابن الحاج: [المدخل/ ٣- ٧].

.....

= أن الشهيد ثلاثة أقسام: شهيد دنيا وآخره، وشهيد دنيا فقط، وشهيد آخرة فقط، فشهيدهما كمن قاتل الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى، صحبه قصد الغنيمة أم لا، وشهيد الدنيا فقط كمن قاتل لقصد الغنيمة فقط أو ليقال أو ليظهر شجاعة أو لحماية قومه أو للذب عن ماله أو أهله أو لصون عرضه... أو نحو ذلك، وشهيد الآخرة فقط كالغريق والحريق والمبطون<sup>(١)</sup>.

ثم إن الجهاد كما قال الخرشى على أربعة أقسام: جهاد بالقلب وهو: مجاهدة الشيطان والنفس عن الشهوات المحرمة، وجهاد باللسان وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد باليد وهو: زجر الأمراء أهل المنكر بالآداب والضرب بجتهادهم، ومنه إقامة الحدود، وجهاد بالسيف ولا ينصرف حيث أطلق إلا إليه<sup>(٢)</sup>.

بيان وجوب الهجرة على العباد [٥٠ : ٥١]

أما شروط وجوب الجهاد وعلى من يجب: قال ابن جزى فى القوانين هى ستة: الإسلام والبلوغ والحرية والذكورية والاستطاعة بالبدن والمال<sup>(٣)</sup>.

وفى المختصر: وسقط بمرض وصباً وجنون وعمى وعرج وأنوثة وعجز عن محتاج له ورقاً ودين حل. كوالدين فى فرض كفاية ببحر أو خطر لا جد والكافر كغيره فى غيره<sup>(٤)</sup>.

وقال فى القوانين: والأب الكافر كالمسلم فى منع الأسفار والأخطار، إلا فى الجهاد لنهمته، وقيل: يمنع مطلقاً<sup>(٥)</sup>.

وفى الزهراء الوردية: اعلم أن لوجوب الجهاد ست شرائط لا يجب إلا بها، متى اختل واحد منها سقط وجوبه. وهى: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورية =

(١) الشبرخيتى: (١/ ورقة ٣١٨ وجه).

(٢) الخرشى: [٤٠٦/٢].

(٣) ابن جزى: [القوانين / ١٤٤].

(٤) [المختصر/ ١١١] ومعنى العبارة الأخيرة هو: أن الوالد المسلم والكافر يتكافآن فى ترك فرض الكفاية لأجلهما. أما فى الجهاد، ففرض الكفاية فيه لا يترك لأجل الوالد الكافر لأن انتماءه لدين آخر لربما يكون السبب فى أن يمنع ابنه عن الجهاد.

(٥) ابن جزى: [القوانين / ١٤٤].



.....  
= والاستطاعة بصحة البدن وما يحتاج إليه من المال (١).

فرائض الجهاد: قال ابن جزى فى القوانين هى ستة: النية، وطاعة الإمام، وترك الغلول، والوفاء بالامان، والثبات عند الزحف، وتجنب الفساد. ولا بأس بالجهاد مع ولاية الجور (٢).

وقال الخرشى فى هذا المحل: يعنى أن الجهاد فرض ولو مع الوالى الجائر فى حكمه، وهو: الذى لا يضع الخمس فى موضعه، ولا يقبى بعهد؛ ارتكاباً لأخف الضررين؛ لأن الغزو معهم إعانة لهم على جورهم، وترك الغزو معهم خذلان للإسلام. ونصرة الدين واجبة. والمراد بالوالى أمير الجيش (٣).

وقال الشبرخيتى عند قول المصنف «ولو مع والٍ جائر فى رعيته»: بأن كان يظلمهم، أو فى غنيمة بأن كان لا يضع الخمس موضعه. لقوله ﷺ «الجهاد ماض منذ بعث الله نبيه لا ينقضه جور من جار ولا عدل من عدل» (٤).

وغزا أبو أيوب الأنصارى مع يزيد بن معاوية بعد أن توقف ثم ندم على توقفه. وقيل لابن عباس: أغزو مع إمام لا يريد إلا الدنيا. فقال: قاتل أنت عن حفظك من الآخرة (٥).

وقال عبد الباقي عند قول المصنف «ولو مع والٍ جائر»: أى أمير جيش لا يضع الخمس فى موضعه؛ ارتكاباً لأخف الضررين؛ لأن الغزو معه إعانة له على جوره وتركه معه خذلان للإسلام. ونصرة الدين واجبة. وكذا مع ظالم فى أحكامه أو فاسق بجارحة (٦).

وفى الجامع شرح المختصر: وإن كان لا يقبى بالعهد؛ ارتكاباً لأخف الضررين. وهو =

---

(١) عبد المالى، الزهرات الوردية: [١/ ورقة ٢٢٩ وجه].

(٢) ابن جزى: [القوانين/ ١٤٤].

(٣) الخرشى: [٢/ ٤٠٦].

(٤) رواه أبو داود [٢٥٣٢] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «والجهاد ماض منذ بعث الله إلى أن يقاتل آخر أمى الدجال لا يطله جور جائر، ولا عدل عادل». وقال الألبانى فى ضعيف أبى داود [٥٤٤]: ضعيف.

(٥) الشبرخيتى: [٢/ ورقة ٦٣ وجه].

(٦) شرح عبد الباقي على المختصر: [٣/ ١٣٥]. والفاسق بجارحة هو من ليس كافراً بالعتيدة، إنما يرتكب معصية مثل شرب الخمر.

.....  
= قاعدة مشهورة وستة ماثورة وهي معتبرة إجماعاً.

وفي الرسالة: ويقاتل العدو مع كل بر وفاجر من الولاة<sup>(١)</sup>.

بيان وجوب الهجرة على العباد [٥٢ : ٥٤].

من يُقاتل في الجهاد: قال ابن جزى في القوانين: هم ثلاثة أصناف: الكفار، والبغاة، والمحاربون... وأما الكفار فجميع أصنافهم... ولا يُقتل النساء ولا الصبيان اتفاقاً... ولا أهل الصوامع ولا الشيخ الفاني، خلافاً للشافعية، إلا أن يُخاف منهم أذى أو تدبير ولا يقتل المعتوه ولا الأعمى والزَّمن. واختُلف إذا كانا ذوى تدبير<sup>(٢)</sup>.

وفي المختصر في استثناء من ذكر: إلا المرأة، إلا في مقاتلتها، والصبي والمعتوه، كشيخ فان، وزَّمن، وأعمى وراهب منعزل بدير أو صومعة بلا رأى. وترك لهم الكفاية فقط، واستغفر قاتلهم، كمن لم تبلغهم دعوة، وإن حيزوا فقيمته<sup>(٣)</sup>. والراهب والراهبة حرَّان<sup>(٤)</sup>.

وفي الزهراء الوردية: وجميع الكفار يقتلون إلا سبعة: المرأة، والصبي، والمجنون، والشيخ الفاني، والزَّمن، والأعمى، والراهب المنعزل بدير أو صومعة. فأما المرأة فإنها لا تُقتل إذا لم تقاتل، فإن قاتلت، فقال ابن القاسم في الموارية والعتبية: تُقتل. وأما الصبي فله حالتان: إحداهما ألا يشك في أنه صبي فلا يقتل، وظاهر كلامهم: وإن قاتل. الثانية إن شك فيه، فالحكم أن يكشف عن مشرزه، فيقتل إن ثبت شعر عاتته ككونه ممن جرت عليه الموسى. والمراهق كالمرأة إن قاتل بالسيف وشبهه قُتل، وإن رمى بالحجارة لم يُقتل إلا أن يُقتل فيقتل بذلك. وأما المجنون فإن كان مُطبّقاً لم يُقتل، وإن كان يفيق أحياناً فظاهر كلام اللخمي أنه يقتل. وأما الشيخ الكبير الفاني فلا يقتل إلا أن يعلم أنه ممن له الرأي والتدبير على المسلمين. وأما الزَّمنى: كالمقعّد والأعرج والأشل الذين لا رأى لهم ولا تدبير... فلا يقتلون. وكذلك لا يُقتل الأعمى إلا أن يعلم أنه ممن له رأى وتدبير على المسلمين. وكذلك لا يُقتل الراهب المنعزل في دير=

(١) ابن أبي ريد القيرواني: [الرسالة / ٩٧].

(٢) ابن جزى: [القوانين / ١٤٥].

(٣) الحُرشي: [٢ / ٤١١].

(٤) [المختصر: ١١١].

.....  
= أو صومعة إلا أن يكون ذا رأى وتدير على المسلمين<sup>(١)</sup>.

بيان وجوب الهجرة [٥٧ : ٥٨].

الدعوة قبل القتال: إن دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال واجبة، وفي صحيح البخارى، أن النبی ﷺ لما أعطى علياً الراية يوم خيبر قال له على: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ»<sup>(٢)</sup>.

استمرار وجوب الجهاد: إن وجوب الجهاد مستمر على الأمة بعد الصحابة رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وفى التكملة تفسیر عبد الرحمن السيوطى عند قوله تعالى: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يوجد شرك.<sup>(٣)</sup> وفى تفسیر الحارث: قال ابن عباس: يعنى حتى لا يكون شرك. وقال عند قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها خالصة لله دون غيره<sup>(٤)</sup>. ويدل على استمرار وجوب الجهاد أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. قال المفسرون: أى: حتى تنقضى الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسلم.

والمعنى: حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وهو غاية لما ذكر من الضرب =

(١) عبد المالئ، الزهرات الوردية: [١/ ورقة ٢٢٩ وجه].

(٢) أخرجه البخارى: [٣٠٠٩] عن سهل بن سعد بلفظ: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ.

(٣) تفسير الجلالين: [١/ ١٦٠].

(٤) تفسير الحارث: [٢/ ١٨٣].

كوسيلة في أول الأمر، بل ظل يأمرهم بالدعوة والصبر، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى، فلما قامت دولة الإسلام وأصبح المسلمون في منعة وعزة كان لابد لهم من قوة تُرهب أعداء الله تعالى وتمنعهم من التصدي للدعوة، وتخلي بين الناس وبين اختيارهم.

إذن.. فالجهاد في سبيل الله ضمان للمؤمن أن يظل المنهج الذي آمن به

= والشد والمن والفداء، بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم؛ حتى لا يكون حرب مع المشركين يزوال شوكتهم، وقيل: بتزول عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وفي مسند أحمد في حديث الدجال: «ثم ينزل عيسى عليه السلام» إلى أن قال: «فيقتله حتى إن الشجر والحجر ينادى يا روح الله هذا يهودى فلا يترك من كان يتبعه أحداً إلا قتله»<sup>(٢)</sup>. وقد روى البخارى في صحيحه حديث: «ليترن ابن مريم حكماً عدلاً فليكرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية أبى داود الطيالسى حتى: «يهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام»<sup>(٤)</sup>.

ويدل على استمرار وجوب الجهاد أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «الجهاد ماضٍ - أى مستمر - منذ بعث الله نبيه لا ينقضه جور من جار ولا عدل من عدل»<sup>(٥)</sup>.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لن يرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصاة من المسلمين، حتى تقوم الساعة»<sup>(٦)</sup>.

بيان وجوب الهجرة على العباد: [٤٨ : ٤٩]

(١) تفسير الفيضائى: [٥٠٨].

(٢) رواه أحمد في المسند [٣٦٨/٣] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه، وقال الهيثمى فى الزوائد [٣٤٦/٧]: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

(٤) رواه أبو داود [٤٣٢٤]، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٦٣٥]: صحيح.

(٥) سبق تخريجه [ص ٤٥].

(٦) أخرجه مسلم [١٧٢/١٩٢٢] عن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه.

موصولاً إلى أن تقوم الساعة، وذلك لا يتأتى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله. والنفس المؤمنة وقفت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله لأن عندها إيثاراً إيمانياً. وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتحب أن توصله إلى غيرها، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجد أنها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة، فالتناس إذا كانوا اختياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرهم الشيء الكثير.

إذن.. من كمال الإيمان أن «يعدى» الإنسان الخير للغير. وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله يجب أن يُخلى بينها وبين الناس.

ومن أجل التخلية بين الناس ومنهج الله تعالى لابد من إزاحة المتسلطين بجبروتهم وسلطانهم وطغيانهم على عباد الله، وهؤلاء المتسلطون تساندهم قوة من المتفعين والأفاكين، لذلك يجب الإعداد لذلك قبل اللقاء في ساحات المعارك، فقبل اللقاء مع الخصم في ساحة المعركة لابد من حسن الإعداد<sup>(١)</sup>. وعندما يعد المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سلوكاً طيباً، والسلوك الطيب يتشر بين البشر، وهنا يقوى معسكر الإيمان، فيرتقى سلوكاً وعملاً، وعندما يقوى معسكر الإيمان لابد له أن يستخرج كنوز الأرض ليحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى؛ الحق سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]

وعن عقبه بن عامر رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى.

أخرجه مسلم [١٦٧/١٩١٧].

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد].

إذن . . الله سبحانه وتعالى الذى أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر الناس بالعدل لم يطلب منا سبحانه أن نلتزم بمنهج العبادة فقط، بل أمرنا سبحانه بإعداد العدة لإقامة دين الله فى الأرض، والتمكين لمن اختاروا الإسلام دينًا، وردع كل من تسول له نفسه الاعتداء على المسلمين وبلادهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ﴾، فسيحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج، أنزل الحديد فيه بأس شديد، وعلى الإنسان مهمة استخراج الحديد والمواد الخام التى تسهل لنا صناعة الأجهزة العلمية، كما علينا أن نقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذًا، ونحول الفولاذ إلى دروع، ونصنع أدق الأجهزة التى تُهَيِّئُ للمقاتل فرصة النصر، وكذلك ندخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب.

إذن . . حركة الحياة كلها جهاد، وإياك أن تُقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة، ولكن أعد نفسك للمعركة؛ لأنك إن أعددت نفسك جيداً وعلم خصمك بقوة ما أعددت له، ربما امتنع عن أن يحاربك.

والذى يمنع العالم الآن من معركة كبيرة تدمره هو الخوف من قبل الكُتْل المتوازنة لأن كل دولة تحاول أن تستقطب فى جوارها دول أخرى، فلعبة التوازنات هذه هى التى تجعل من يحاول أن يقدم على حرب أن يفكر كثيراً. ولو أن فى الكون قوة متسلطة واحدة لفسدت الدنيا وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقول الحق سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ أى: جاهدوا فى سبيل

إقامة منهج الله تعالى؛ بدراسة هذا المنهج وتفهمه، ثم بعد ذلك المجاهدة فيه باللسان وبالسَّنان، والمجاهدة فيه بالكتاب وبالكُتبية.

إذن.. فقول الحق سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ يصنع أمة إيمانية متحضرة؛ حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره في الكون. فمن يعبد الإله الواحد أولى بالبحث العلمى، والأخذ بأسباب التقدم والرقى، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب، ولكننا نملك المصانع التى تنتج، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس، عندئذ سنحقق الكفاية. ومالا نستعمله فى الحرب سيعود على السلام. ويجب أن نعلم أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب. وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام.

## \* الترغيب فى الجهاد \*

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

(\*) ورد فى ترغيب الناس فى الجهاد فى الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢٣] دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْصُوعِينَ﴾ [الصف: ٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١) تَوَمَّنْوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١].

وأما ما ورد فى السنة المطهرة فمنها أيضاً على سبيل المثال لا الحصر:

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: دننى على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده» (١).

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ، قال: «لغدوة فى سبيل الله =

(١) أخرجه البخارى : [٢٧٨٥].



بَأْمَوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ  
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء]

لهذه الآية سبب نزول فقد روى عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه - وهو أحد كتاب الوحي، والمأمون على جمع كتاب الله من اللخاف<sup>(١)</sup> ومن العظام ومن صدور الصحابة- قال رضى الله تعالى عنه: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ، فغشيت السكينة - وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحي على رسول الله ﷺ - فوقع فخذ على فخذي حتى خشيت أن ترُضَّها - أى تصيبها بالدق الشديد أو الكسر- فلما سرى عنه ﷺ قال: اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾.

= أو روعة خير من الدنيا وما فيها<sup>(١)</sup>.

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

وعن زيد بن خالد رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غارياً فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غارياً فى سبيل الله بخير فقد غزا»<sup>(٤)</sup>.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»<sup>(٥)</sup>.

(١) اللخاف: حجارة بيض رقاق، واحدا لحفة.

(١) أخرجه البخارى: [٢٧٩٢].

(٢) أخرجه البخارى: [٢٧٩٠].

(٣) أخرجه البخارى: [٢٨٥٣].

(٤) أخرجه البخارى: [٢٨٤٣].

(٥) أخرجه البخارى: [٢٨٩٢].

فقال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه: - وكان ضريراً مكفوف البصر- فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله.

إنها الفطنة الإيمانية من ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه؛ لأنه أراد أن يعرف موقفه من هذا القول، خاصة وأنه لا يستطيع الجهاد، وعلم أنه إن ظلت الآية على ما هي عليه فلن يكون هو وأقرانه من أولى الضرر مستويًا مع من جاهد، ولهذا قال قوله.

فأخذت رسول الله ﷺ السكينة ثانية، ثم سرى عنه، فقال لزيد ابن ثابت: اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>؛ فقال زيد رضى الله تعالى عنه: فالحقتها. إذن.. الآية نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم. ولقائل أن يقول: وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ويقول قوله هذه؟.

(١) أخرج البخارى [٤٥٩٢] عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أُملى عليه ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو يُمليها على قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت على حتى خفت أن ترص فخذي ثم سرى عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾.

وعن البراء رضى الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾. أخرجه البخارى [٤٥٩٣].

وعن البراء، قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبی ﷺ: «ادعوا فلاناً» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف، فقال: اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله أنا ضريبر فنزلت مكانها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أخرجه البخارى [٤٥٩٤].

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يسمع قول الله تعالى، عليه أن يتدبر ويتبين وهذا كان حال ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه فيما سمع من رسول الله ﷺ حين نزلت الآية، فهو يعلمنا الفقه والتدبر فيما نسمع أو نقرأ، وأن يعي كل منا مطلوب الله تعالى منه.

وأما قول زيد بن ثابت: فألحقها، يلفتنا إلى الدقة في أداء زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه، فكان زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بين كلمة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وكلمة: ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾.

قال زيد بن ثابت: لقد نزلت: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وحدها وكأني أنظر إلى ملحقتها عند صدع الكتف<sup>(١)</sup> - فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم والكثف التي كتب عليها زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه كانت مشروخة وكانت هذه علامة فيها.

وقول الحق سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ يدل على أن هناك شيئين

(١) عن زيد بن ثابت، قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيت السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذى، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سرى عنه فقال: «اكتب» فكتبت في كتف: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى لما سمع فضيلة المجاهدين، فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة، فوقعت فخذة على فخذى ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سرى عن رسول الله ﷺ، فقال: «اقرأ يا زيد» فقرأت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ الآية كلها، قال زيد: فأنزلها الله وحدها، فألحقها، والذي نفسى بيده لكأني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في كتف.

رواه أحمد في المسند [١٩١/٥]، وأبو داود [٢٥٠٧]، وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢١٨٨]: حسن صحيح.

لا يستويان، فأيهما غير المساوى للآخر؟. كلاهما لا يتساوى مع الآخر؛ ولذلك يكون الاثنان في الإعراب «فاعلاً»، فلا يساوى المجاهدون القاعدين، ولا يساوى القاعدون المجاهدين؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول.

وعندما نسمع قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نتساءل ما هو مقابل «القاعدين»؟ في الآية الكريمة إنهم: ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾، لكن المقابل في الحياة العادية «للقاعدين» هم «القائمون»، ومقابل «المجاهدين» هو «غير المجاهدين». وبذلك كان من الممكن القول: لا يستوى القاعدون والقائمون، أو أن يقال: لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين. فما الحكمة في مجيء: ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ و﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾؟

إن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل مؤمن حين يدخل الإسلام. يعتبر نفسه جندياً في حالة تأهب، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا نداء الجهاد فوراً؛ فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء، بل في تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى النداء، وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على منته، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل والموت مظانته، أو رجل في غنيمة في رأس شَعْفَةٍ من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير» (١).

(١) أخرجه مسلم [١٢٥/١٨٨٩] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه.

وقال الإمام النووي، قوله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه» «المعاش»: هو العيش، وهو الحياة، وتقديره والله أعلم: من خير أحوال عيشهم رجل ممسك.

وقوله ﷺ: «يطير على منته كلما سمع هيعة أو فزعة طار على منته يبتغى القتل والموت مظانته» معناه: يسارع على ظهره، وهو: منته، كلما سمع هيعة، وهى: =

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد، والقاعد - كما نعرف - هو ضد القائم. والحق تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنى محدداً، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع، فيقال: كان مضطجعا فجلس، وكان قائماً فقعد.

إذن.. معنى قول الحق سبحانه وتعالى هنا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ فالقعود مقابل القيام، فكان المجاهد حالته القيام دائماً، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم، لكنه فى انتباه واستعداد.

ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد؛ فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد، فهو على صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة.

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد؟ لا؛ ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام.

ونحن عادة ما نقول لأبنائنا طلاب المدارس: إن من يذاكر دروسه ينجح، ومن لا يستذكر يرسب؛ وهذه مسألة بديهية، لكننا نقولها؛ حتى نجعلها واضحة فى بؤرة شعور الطالب، فيلتفت لمسئوليته.

---

= الصوت عند حضور العدو، وهى بفتح الهاء وإسكان الياء.

والقَزعة: بإسكان الزاى وهى: النهوض إلى العدو.

ومعنى «يتنقى القتل مظانه»: يطلبه فى موطنه التى يرجى فيها لشدة رغبته فى الشهادة. وفى الحديث: فضيلة الجهاد والحرس على الشهادة.

قوله ﷺ: «أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ» «الغُنَيْمَةُ»: بضم الغين تصغير الغنم، أى: قطعة منها، و«الشَعْفَةُ» بفتح الشين والعين: أعلى الجبل.

شرح النووى على مسلم [٤٢/٧]

وعندما يقول الحق: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هل معنى ذلك أنه كان في زمن رسول الله ﷺ مَنْ يظن المساواة بين القاعد والمجاهد؟ لا، ولكن الحق سبحانه يريد بها قضية إيمانية في بلاغ إيماني من الله تعالى.

وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستون مع المجاهدين؛ فيقول: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾؛ والضرر: هو الذي يفسد الشيء مثل المرض، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ (٩٢) [التوبة]

فالضعف إذن ضرر، أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية، والمرض ضرر، والذين لا يجدون ما لا ينفقون منه، والذين يجيئون لرسول الله ﷺ حين لا يكون بحوزته ﷺ دواب تحملهم، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون. وكان المؤمن من هؤلاء يحزن؛ لأن رسول الله ﷺ لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال.

وقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا﴾ لها معنى كبير، فلم يقل الحق سبحانه: إن أعينهم تفيض من الدمع من قبل التولى، فهم لا يدمعون أمام النبي ﷺ، ولكنهم يدمعون في حالة انصرافهم، وهذا انفعال نفسى من فرط التأثر؛ لأنهم لا يستطيعون المشاركة في القتال.

وكلمة: ﴿تَفِيضُ﴾ تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها، فهم لا يصطنعون ذلك، لكن الانفعال يغمرهم؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم

بتعصير عينيه ويبدل جهداً للمراءة، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع.

وفى سورة «الفتح» فَصَّلَ اللهُ تبارك وتعالى من هم أولو الضرر وأصحاب الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال قال ربنا سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٧)﴾ [الفتح]

ومادام المؤمن صاحب العذر الذى أقعده عن الجهاد، والمؤمن المجاهد لا يستون فمن الذى يكون فيهم الأفضل؟.

ذلك ماتوضحه بقية الآية الكريمة، يقول تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ .

الله سبحانه وتعالى وعد الاثنين: ﴿الْحُسْنَى﴾ ؛ لأن كلاهما مؤمن، ولكن للمجاهد درجة على القاعد.

ولكن لماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر ﴿الْحُسْنَى﴾ ؟ علينا أن نتنبه وأن نحسن الفهم والتدبر، فالمؤمن الذى ابتلاه الله تعالى فصبر لحكم الله ورضى بقضائه، وسلم لقدره، ألا يأخذ ثواباً على ذلك؟.

بالقطع لا بد أن يجزيه الله تعالى ثواب صبره، وجزاء استسلامه لقضائه سبحانه وقدره، وشاء فضل الله سبحانه أن يعطى من لم يأخذ ثواباً مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر؛ حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء. لذلك يقول سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ .

﴿الْحُسْنَى﴾ فى: ﴿أُولَى الضَّرَرِ﴾ أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب ﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾ ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا ﴿الْحُسْنَى﴾ من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

الله سبحانه وتعالى يضع أجراً جديداً للمؤمن المجاهد على المؤمن القاعد من أولى الضرر، ففي صدر الآية جاء قوله تعالى: ﴿دَرَجَةً﴾ أعلى للمجاهد، وهنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فما تفسير هذا الأجر العظيم؟ التفسير يجيء في قوله تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]

الله تعالى قد أعطى لأولى الضرر درجة، وفضل سبحانه المجاهد في سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة (١).

(١) قال ابن القيم في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين، ثم أخبر سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات. وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فضل عليهم أولو الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً. وعلى هذا فما وجه استثناء أولى الضرر من القاعدين، وهم لا يستوتون والمجاهدون أصلاً؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحداً. فهذا وجه الإشكال.

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله . فنقول:

اختلف القراء في إعراب ﴿غَيْرُ﴾ فقرأى رفعاً ونصباً وهما في السبعة، وقرأى بالجر في غير السبعة. وهي قراءة أبي حيو.

فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء؛ لأن «غير» يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد «إلا» وهو النصب. هذا هو الصحيح.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أى لا يستوى القاعدون غير مضرورين، أى لا يستوتون في حال صحتهم هم والمجاهدون. والاستثناء أصبح، فإن «غير» لا تكاد =



= تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾

[البقرة: ١٧٣] وقوله عز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي

الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وقوله ﷺ: «مرحباً بالوفد غير خزايَا ولا ندامى» (١).

فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها. كقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ولو قلت: مرحباً بالوفد غير

الخزايَا ولا الندامى لجررت «غير» هذا هو المعروف من كلامهم.

والكلام في عدم تعريف «غير» بالإضافة، وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً له مقام آخر.

وأما بالرفع: فعلى النعت «للقاعدين». هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خير مبتدأ محذوف تقديره: الذين هم غير أولى الضرر.

والذي حمله على هذا: ظنه أن «غير» لا يقبل التعريف بالإضافة. فلا تجزى صفة

للمعرفة. وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها، سوى أن «غير» توغلت في

الإبهام. فلا تعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه.

وأما قراءة الجر: ففيها وجهان أيضاً.

أحدهما: وهو الصحيح: أنه نعت «للمؤمنين».

والثاني: وهو قول المبرد: أنه بدل منه. بناء على أنه نكرة. فلا ينعت به المعرفة.

وعلى الأقوال كلها: فهو مفهم معنى الاستثناء، وأن نفى التسوية غير مسلط على

ما أضيف إليه «غير».

وقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ هو مبين لمعنى نفى المساواة.

قالوا: والمعنى: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة؛

لا امتيازهم عنهم بالجهاد بنفسهم ومالهم. ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود

بالحسنى فقال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أى المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم

فى الإيمان.

قالوا: وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير؛ لأن الله أخبر أن المجاهد

بماله ونفسه أفضل من القاعد، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. وأما الفقير =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

= فنفى عنه الحرج بقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ١٢] فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج؟ قالوا: فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد.

وأما القاعد من غير أولى الضرر: فقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ قيل: هو نصب على البدل من قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقيل: تأكيد له، وإن كان بغير لفظه. لأنه هو هو في المعنى.

قال قتادة: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة.

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع: وهي التي ذكرها الله في براءة، إذ يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]

ثم قال: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١] فهاتان اثنتان

وقيل: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين حُضْرٌ<sup>(١)</sup> الفرس الجواد المضمّر سبعين سنة.

والصحيح: أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيله أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس بذلك؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله. كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفْجَرُ أنهار الجنة»<sup>(٢)</sup>.

قالوا: وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعل هاهنا بدرجات =

(١) الحُضْر: ارتفاع الفرس في عدوه. لسان العرب: [٢٠١/٤].

(٢) أخرجه البخاري [٢٧٩٠].

.....  
= ومغفرة ورحمة، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولى الضرر. فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه.

ولكن بقى أن يقال: إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً لزم أن لا يستوى مجاهد وقاعد مطلقاً. فلا يبقى فى تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة. فإنه لا يستوى المجاهدون والقاعدون من أولى الضرر أيضاً.

وأيضاً فإن القاعدين المذكورين فى الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر. فإنهم لم يذكر حكمهم فى الآية، بل استثناهم، وبين أن التفضيل على غيرهم. فاللام فى القاعدين للعهد. والمعهود هم: غير أولى الضرر، لا المضررون.

وأيضاً فالقاعد من المجاهدين لضرورة غنمه من الجهاد له مثل أجر المجاهد، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيرة، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين من غير أولى الضرر عن الجهاد لا يستوون هم والمجاهدون، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين، بل هذا النوع منقسم إلى معذورين من أهل الجهاد، غلبه عذره، وأقعدته عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها وإنما أقعدته العجز فهذا الذى تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد. وهذا القسم لا يتناول الحكم بنفى التسوية؛ وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام، كما دل عليه قوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار» قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريضاً على قتل صاحبه»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) أخرجه البخارى [٢٩٩٦] عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه بلفظ: «مقيماً صحيحاً» بدلاً من «صحيحاً مقيماً».

(٢) أخرجه البخارى [٢٨٣٩] عن أنس رضى الله تعالى عنه بلفظ «إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر». وأخرجه مسلم [١٥٩/١٩١١] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما.

(٣) أخرجه البخارى [٧٠٨٣، ٣١]. ومسلم [١٤/٢٨٨٨] عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه.

= والقسم الثاني: معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزمًا تامًا، فهذا لا يستوى هو والمجاهد في سبيل الله، بل قد فضل الله المجاهدين عليه وإن كان معذوراً؛ لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول.

وقد قال النبي ﷺ في حديث عثمان بن مظعون: «إن الله قد أوقع له أجره على قدر نيته»<sup>(١)</sup> فلما كان القسم المعذور فيه التفصيل، لم يجوز أن يساوى بالمجاهد مطلقاً، ولا ينفي عنه المساواة مطلقاً، ودلالة المفهوم لا عموم لها، فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموماً يجب اعتباره، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين: أحدهما: التخصيص، والآخر: التعليل.

فأما التخصيص: فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضي نفي الحكم عما عداه، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا لا يقتضي العموم، وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم؛ لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه، إما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق، وإما في وقت دون وقت، بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبداً. ونحو ذلك من فوائد التخصيص، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام، فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة؛ فإثباته يجرد التحكم.

وأما التعليل فإنهم قالوا: ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضي نفي الحكم عما عداه، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة. وهذا أيضاً لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه، وإنما غايته اقتضاؤه نفي الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفي عنها الوصف، وأما نفي الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر، وعلة أخرى. فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلة مختلفة، وفي الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه. ومثال هذا مانحن فيه لأن قوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقاً من حيث الضرورة بل إن ثبتت المساواة فإنها =

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٤٤٦/٥]، والنسائي في المجتبى [١٨٤٦]. وصححه الألباني في صحيح النسائي [١٧٤٢].

وساعة نسمع كلمة: ﴿دَرَجَةٌ﴾ فهي المنزلة، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح الشامل للمعنى، ولكن هى المنزلة الارتقائية. أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل أو أدنى، فنحن نقول: «درجات» ولا نقول: «درجات».

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين؟ لا؛ لأننا لابد أن نلاحظ الفرق بين مفارقة الأهل للجهاد، وعملية الجهاد فى ذاتها.

عملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى قوة إيمانية عالية لما فيها من مشقة وإنفاق للأموال وقد يصل الأمر إلى بذل الأرواح فى سبيل إعلاء كلمة الله، ولذلك قال الحق سبحانه فى سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ [التوبة].

يوضح الحق سبحانه أنه لا يجوز لأهل المدينة والأعراب الذين من حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله ﷺ فى الشدة والمشقة، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا؛ لأن الثواب كبير، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح، ولا يسировون فى مكان يغىظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح. ولا ينالون من عدو نيلًا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً، فسبحانه يجزى المؤمنين بأحسن ما كانوا يعملون.

= معللة بوصف آخر وهى النية الجارمة والعزم التام، والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعاً من المساواة فى الأجر، والله اعلم.

بدائع التفسير : [٦٦/٢ - ٧٣] بتصرف.

وعندما نقوم بعد هذه الدرجات نجدها: الظمأ، وهو: العطش، والنصب، الذى هو: الإعياء والتعب، والمخمصة، التى هى: الجوع الشديد، ويطئون موطناً يغيظ الكفار أى: ينزلون منزلاً يتمكنون فيه من أن يسيطروا سلطانهم على الكافرين ويُكَلِّوا بهم، ولا ينالون من عدو نيلاً أى: تقتيلاً وأسراً وهزيمة، والنفقة الصغيرة أو الكبيرة، وقطع أى وادٍ فى سبيل الله، هذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد. فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات (١).

وهنا نلاحظ أن الله يُرَغِّبُ المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين، وأن يبذلوا

(١) قال الفخر الرازى: اعلم أن الله تعالى لما أمر بقوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩] بوجوب الكون فى موافقة الرسول عليه السلام فى جميع الغزوات

والمشاهد، أكد ذلك فهى فى هذه الآية عن التخلف. فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ

وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والأعراب الذين كانوا حول

المدينة: مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، هكذا قاله ابن عباس.

وقيل: بل هذا يتناول جميع الأعراب الذين كانوا حول المدينة فإن اللفظ عام،

والتخصيص تحكم، وعلى القولين فليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا يطلبوا

لأنفسهم الحفظ والدعة حال ما يكون رسول الله فى الحر والمشقة.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يقال: رغبت بنفسى عن هذا الأمر أى:

توقفت عنه وتركته، وأنا أرغب بفلان عن هذا أى: أبخل به عليه ولا أتركه. والمعنى:

ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول ﷺ لنفسه.

واعلم أن ظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء. إلا أنا نقول: المرضى

والضعفاء والعاجزون مخصوصون بدليل العقل، وأيضاً بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأيضاً بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]

الآية. وأما أن الجهاد غير واجب على كل أحد بعينه، فقد دل الإجماع عليه، فيكون

مخصوصاً من هذا العموم، وبقي ما وراء هاتين الصورتين داخلاً تحت هذا العموم.

واعلم أنه تعالى لما منع من التخلف بين أنه لا يصيبهم فى ذلك السفر نوع من أنواع =

= المشقة إلا وهو يوجب الثواب العظيم عند الله تعالى ثم إنه ذكر أموراً خمسة:  
أولها: قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو شدة العطش، يقال: ظَمِيَ فلان إذا اشتد عطشه

وثانيها: قوله: ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ومعناه الإعياء والتعب.  
وثالثها: ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن.  
ومنه يقال: فلان خميص البطن.

ورابعها: قوله: ﴿وَلَا يَطُوتُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى ولا يضع الإنسان قدمه، ولا يضع فرسه حافراً ولا يضع بعيره خفه بحيث يصير ذلك سبباً ليغيظ الكفار.  
قال ابن الأعرابي: يقال غاظه وغيظه وأغاظه بمعنى واحد، أى أغضبه.

وخامسها: قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ أى: أسراً وقتلاً وهزيمة، قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أى: إلا كان ذلك قرينة لهم عند الله. ونقول: دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله. وكذا القول فى طرف المعصية، فما أعظم بركة الطاعة وما أعظم شؤم المعصية. واختلفوا فقال قتادة: هذا الحكم من خواص رسول الله إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر. وقال ابن زيد: هذا حين كان المسلمون قليلين فلما كثروا نسخها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] وقال عطية: ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم وأمرهم وهذا هو الصحيح؛ لأنه تتعين الإجابة والطاعة لرسول الله إذا أمر وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا ندبوا وعينوا. لأننا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد، لم يختص بذلك بعض دون بعض ولأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يريد: ثمرة فما فوقها، وعلاقة سوط فما فوقها، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ أَوْدِيًا﴾ والوادى: كل مفرج بين جبال وأكام يكون مسلكاً للسيل، والجمع الأودية. إلا كتب الله لهم ذلك الإنفاق وذلك المسير.

ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه وجهان:  
الأول: أن الأحسن من صفة فعلهم، وفيها الواجب والمندوب والمباح والله تعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح.

والثاني: أن الأحسن صفة للجزاء، أى: يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل، وهو الثواب.

التفسير الكبير : [١٦/٢٢٣-٢٢٥]

الغالى والنفيس لتكون كلمة الله هى العليا. فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيماني؛ لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلم لا ينضم إلى ركب من ينفع سواء بالإيمان؟.. ويريد الله سبحانه أن يعبئ كل من باشر الإيمان قلبه، وحتى لو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وينخلع منهم ويخرج منضمّاً إلى جماعة المؤمنين وقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾ [النساء]



## تحريض المؤمنين على الجهاد

قال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) [النساء]

مادة: «شرى»، ومادة «اشترى» كلها تدل على التبادل والمقايضة، فأنت تقول: أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم؛ أى: أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم، «وشرى» تأتى أيضاً بمعنى: باع، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠)

فالجماعة الذين وجدوا يوسف عليه السلام فى الحب كانوا فيه من الزاهدين. ولذا باعوه بثمان بخس.

إذن.. «شرى» من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع، وبمعنى الشراء<sup>(١)</sup>؛ لأن المبيع والمشتري يتماثلان فى القيمة، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع، فلم يكن هناك نقد متداول، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر، فواحد يشتري التمر وآخر يشتري الحب،

(١) شَرَى الشَّيْءَ يَشْرِيهِ شَرِيًّا وَشَرَاءً، وَاشْتَرَاهُ شَوَاءً. وشراء واشتراه: باعه. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠) [يوسف] أى باعوه. قال أبو زيد: شريت: بعت، وشريت أى: اشتريت. قال الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال الفراء: بثما باعوا به أنفسهم، وللعرب فى شروا واشتروا مذهبان: فالاكثر منهما أن يكون شروا: باعوا، واشتروا: ابتاعوا، وربما جعلوهما بمعنى باعوا. الجوهري: الشراء يُمدُّ وَيُقَصَّرُ شَرَيْتُ الشَّيْءَ أَشْرِيهِ شِرَاءً: إذا بَعْتَهُ وَإِذَا اشْتَرَيْتَهُ أَيْضاً وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ.

لسان العرب: [٤٢٧/١٤ - ٤٢٨] يتصرف.

والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال.

وما الفرق بين السلع والمال؟ السلعة هى طعام مباشر، والمال طعام غير مباشر. فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفاً ولا تجده، هل تستطيع أن تأكل من الذهب؟!.

إذن فالرغيف طعام مباشر؛ لأنك ستأكله، أما الذهب فهو طعام غير مباشر؛ لأنك تشتري به ماتتفع به. وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة، فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمنين به صفقة فيها بيع وشراء. قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] فالؤمن هنا يعطى الدنيا؛ ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء، ومنزلة الشهداء؛ واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين به، وهو جل وعلا يريد أن يعطينا مانتعرف به على الصفقات الربحية، فكل منا فى حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه، ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ (٢٩) ﴿[فاطر: ٢٩]

هنا أيضاً تجارة، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشيء الذى تعطيه بالشيء الذى تأخذه، وما الذى يجب أن يُضحى به فى سبيل الآخر؟

الحق سبحانه قد وصف الحياة بأنها: «الدنيا» ولا يوجد وصف أدق من

هذا، فأوضح سبحانه المسألة: إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة- إذن- رابحة، فالدنيا مهما طالَت فإلى نهاية، ولا تقل كم عمر الدنيا؛ لأنه لا يعينك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته هو فيها، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا؟.

إذن.. فقيمة الدنيا هى: مقدار عمرك فيها، ومقدار عمرك فيها مظنون، وعلى الرغم من ثبات متوسطات الأعمار فى القرن العشرين تقريباً، فالبعض يقول: متوسط الأعمار سبعون، أو خمس وستون سنة، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً، أو فتى، أو رجلاً، أو شيخاً.

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو مقدار حياته فيها، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين، إنما قارنها بوجودها معك أنت، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تَعْمُكَ خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود؛ لأن حياتك فيها محدودة، وإمكاناتك محدودة.

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه؟ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقْتُلْ أو تُقْتَلْ فى سبيل الله، لابد أن يوضح لك كيفية الوسيلة التى تأخذ بها الغاية وهى الفوز فى الآخرة، ولن تأخذ هذا الفوز بالكلام فقط، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله، إنه إقامة المجتمع المؤمن المتكامل، الذى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، مجتمع فيه الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بين أبيض وأسود، التفاضل فيه بالتقوى، والعمل الصالح.

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن

تطبيقه. واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال، قد تُقتل، فستأخذ صفقة الآخرة، وقصرت مسافة غاياتك؛ لأن كل شيء إنما يقاس بزمن الغاية له، فإن قُتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية، فتصل إلى الجنة.

والحق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن. نقول لهم: ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية، فلماذا الاستغراق فى الحزن إذن؟.

والحق سبحانه وتعالى يكافئ من يُقتل فى سبيله بحياة فى عالم آخر فيها رزق كريم <sup>(١)</sup>. وبعض الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق. ونقول لهم: إن الحق لم يقل: إن الشهداء أحياء عندكم، بل أحياء عنده سبحانه فى عالم الغيب.

والحق سبحانه يطلب من الذى آمن بالإسلام أن ينشره، وأن يصلح المسلمون ما بين أنفسهم لتصلح أمورهم، وأن يواجهوا أصحاب الشر الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

وسبق أن قلنا: إن الله تعالى لم يأمر بقتال قبل رسالة رسول الله ﷺ، فقد كان الرسول من السابقين على محمد ﷺ يبلغ قومه برسالته، فإن آمنوا فيها ونعمت، وإن لم يؤمنوا يتدخل الله بالعقاب: بريح صرصر، رجفة، صيحة، خسف الأرض بهم، طوفان، إذن.. فالرسول قبل النبى محمد ﷺ كان يبلغ، والله يعاقب من لم يؤمن.

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان، ونحن نعلم أن الإسلام جاء أول ما جاء فى مكة، لكنه لم يتصر (١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عند ربِّهم

يُرزقون (١٦٩)﴾ [آل عمران]

كرسالة ولم ينتشر إلا من المدينة. فمكة بلد محمد ﷺ وفيها قبيلته قريش التي ألقت السيادة على الجزيرة كلها، ولا أحد يستطيع أن يجرؤ على الاعتداء عليها ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال.

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش، فلو أن الإسلام الذى جاء به رسول الله ﷺ انتصر فى مكة ربما قالوا: قبيلة عشقت السيادة، ودانت لها أمة العرب، فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله؟.

و شاء الحق سبحانه أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ﷺ ويحاربه، والضعاف هم الذين يتبعونه، ثم بعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من «المدينة».

ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة. فالحق سبحانه: يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٠١] ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ١٠].

إذن.. فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى. وحين يحاول المستشرقون الإساءة بالباطل إلى الإسلام لأنه أمر بالقتال، نقول لهم: إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون وصول منهج الله تعالى إلى الناس وتصد عن دعوة الحق، وترغم الناس على عدم الدخول فى الإسلام.

ويوضح الحق سبحانه أن رسالة الرسول ﷺ إنما جاءت لتحقيق حرية الاختيار عند الإنسان، فهو سيد الأجناس التى تحيط به، فالجماد مسخر،

والنبات مسخر، والحيوان مسخر، وليس لآى منهم حرية فى أن يقول:  
افعل ولا أفعل، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند  
الإنسان؛ فالخلق سبحانه هو القائل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ  
ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] (١)

(١) قال أبو السعود: لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله، ببيان مآل الخارجين عنها من  
العذاب الآليم، ومثال المراعين لها من الفوز العظيم عَقَّبَ ذلك ببيان عظم شأن  
مايوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ماصدر  
عنهم من الطاعة وتركها، صدر عنهم بعد القبول والالتزام. وعبر عنها بـ﴿الْأَمَانَةَ﴾  
تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين، واثمنهم عليها. وأوجب  
عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد. وأمرهم بمراعاتها، والمحافظة عليها وأدائها، من  
غير إخلال بشيء من حقوقها. وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد مآذكر من  
السموات وغيرها، بالعرض عليهن، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن  
لها- وعن عدم استعدادهن لقبولها، بالإباء والإشفاق منها، لنهويل أمرها وتربية  
فخامتها- وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها، بجعلها من قبيل  
الأجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية، التى أشدها وأعظمها مآفيهن من  
القوة والشدة. والمعنى: أن تلك الامانة فى عظم الشأن، بحيث لو كلفت هاتيك  
الأجرام العظام، التى هى مثل فى القوة والشدة، مراعاتها، وكانت ذات شعور  
وإدراك، لأبين قبولها وأشفقن منها. ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض  
بصورة المحقق، رُوِّماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه. وقوله تعالى:  
﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أى عند عرضها عليه. إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو  
بتكليفه إياها يوم الميثاق- أى تكلفها والتزمها مع مآفيه من ضعف البنية ورخاوة القوة-  
وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى، أو عن اعترافه بقوله: (بلى).  
وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ اعتراض وسط بين الحمل وغايته، للإيذان  
من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أى أنه كان مفرطاً فى الظلم، مبالغاً فى  
الجهل. أى بحسب غالب أفراد الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة. أو  
اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلاً

تفسير القاسمى [١٣/٤٩٢٤]

إذن.. فبأى شئ تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس؟ تميز عليهم بالعقل، ومهمة العقل أن يختار بين الأبدال، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل، فليس للعقل عمل فيه.

ومثال ذلك: إذا سألت عن مكان تريد أن تذهب إليه، وحينما سألت عن الطريق، قيل لك: لا يوجد إلا هذا الطريق، فهل تفكر أن تذهب من طريق آخر؟ بالطبع لا.

إذن.. فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين الأبدال، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له. وإذا أراد العقل أن يختار بين الأبدال أنجعل له حرية الاختيار أم نقيده حرية الاختيار لديه؟.

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التي أعطاه الله تعالى له، وجعلته مقهوراً مُسخرّاً مُكرهاً؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر.

ومادمت تقول: إن العقل هو الذى يختار بين الأبدال، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنوناً، فلا اختيار له، وإن كان العقل موجوداً، لكنه لم ينضج بعد نقول أيضاً: لا اختيار.

إذن.. فلا بد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين الأبدال، ويكون للإنسان حرية أن يختار، فإن لم يكن العقل موجوداً فهو مجنون فلا تكليف عليه. والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل، ولذلك أعفاه الله من أن يسأله أحد عن شئ، فيفعل مايفعل دون سؤال، فلا تكليف لمجنون، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ.

إذن.. الإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار، ويعرض

عليه أمر الإيمان، فالذى حمل السيف، لم يحمله ليَجبر أحداً على الإيمان. ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع لآى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام، وهذه شهادة للمسلمين.

إن الإسلام لم يَجئ ليفرض ديناً، وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين والذين يقولون: إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم: افهموا جيداً، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافاً وظلوا على الضعف مدة طويلة، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير مسلمين، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

فالقِتال إنما جاء حتى يَحْكُمَ منهج الله الخالق سبحانه، خلقه، فهو الأَعلم بهم، وسبحانه حينما يقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله، كأن يقاتل الرجل حمية، أو ليقال أنه شجاع، فقتال الرجل دائماً حسب نيته، ولذلك يتساءل بعض الناس: من الشهيد؟ والجواب هو: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا هو الشهيد<sup>(١)</sup>.

إذن.. فالقتال مرة يكون فى سبيل الله، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

والله تعالى يقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

---

(١) أخرج البخارى [٢٨١٠] عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».



بِالْآخِرَةِ ﴿[النساء: ٧٤] أَى: يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة.

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

إذن.. فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين: إما أن يُقتل من الأعداء، وأما أن ينتصر، وهذه هي القضية الجدلية التي تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر: أنا أقاتل في سبيل الله طلباً لأحدى الحسنين: إما أن أقتل فأصبح شهيداً؛ وأخذ حياة أفضل من هذه الحياة، وإما أن أنتصر عليكم؛ فأفوز بالنصر والغنيمة.

إن المؤمن يثق أنه فائز على كل حال؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياة الدنيا، وإما أن ينتصر، والحالتان على سواء من الخير.

ولقد رأى رسول الله ﷺ الذين يقاتلون في سبيل الله، وعرضت عليه حياتهم وهو في ليلة الإسراء والمعراج، فقد رأى ﷺ جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة؛ لأن الذى قُتل في سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله، فلا ينتهى قطفه أبداً للخير الذى بذله، وحياته مستمرة في حياة الملايين الذين قتل في سبيل إبلاغهم الدعوة <sup>(١)</sup> ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وعرفنا أن كل مؤمن

(١) ذكر البيهقى فى حديث الإسراء الطويل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء]

قال: أتى بفرس فحمل عليه، قال: كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل عليه السلام، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله، يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. جزء من حديث رواه البيهقى فى الدلائل [٢/٣٩٧-٣٩٩]، وانظر الدر المنثور [٥/١٩٨-٢٠٠]، وتفسير الطبرى [١٥/٦، ٧].

يقاتل في سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ماجاء به الحق في قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ [التوبة: ٥٢]

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل فيكون شهيداً، وإما أن يغلب معسكر الكفر، فله النصر والغنيمة، وهو يتربص بالكافرين أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدي المؤمنين؛ إذن.. فالمؤمنون رابحون على كل حال، والكافرون خاسرون على كل حال<sup>(١)</sup>.

و«المعري» قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال:

تخطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك<sup>(٢)</sup>

(١) قال الشوكاني: وعدّ المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يُقدَّر قدره؛ وذلك أنه إذا قُتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وإن غلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا والغنيمة، وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً؛ فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً إلى ما هو دونه، وحقيقاً بالنسبة إلى ما هو فوقه.

فتح القدير: [٥٧٧/١]

(٢) أبو العلاء المعري: ولد يوم الجمعة في السادس والعشرين من كانون الأول سنة تسعمائة وثلاث وسبعين للميلاد، ٣٦٣هـ. وأسماء أبوه أحمد، وعرف بأبي العلاء بين الناس بعد ذلك. ولما وصل للثالثة من عمره أصيب بالجدري ففقد بصره. انصرف للعلم وتلقى مبادئه عن أبيه، ودرس أسرار اللغة والنحو في بلده، ثم سافر إلى حلب سعيّاً وراء التخصص والاستماع إلى كبار العلماء، وزار مكاتبتها، ثم ذهب إلى أنطاكية، ثم اللاذقية، ثم إلى طرابلس الشام، ثم عاد إلى وطنه وقد حظى من علوم عصره بحظ وفير وكان قوى الحافظة حتى حكى عنه أن كان يحفظ كل ما يسمعه ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية معروفة.

توفي سنة ٤٤٩هـ - ١٥٠٧م.

فقالوا: إنه ينكر البعث، فمادام قد جاء بمثل يقول فيه: إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى. قال ذلك أيام تكبر الفكر، في أيام الغرور، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب في فكره وينتهى إلى الإيمان، لكن: أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك؟ ولكنه بعد أن آمن قال كما قال غيره: هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور. ربنا حق وربنا سميع وربنا بصير، وأنشد:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما  
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما (١)

أى: إن صح قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة في الدنيا، فماذا أكون قد خسرت؟ إننى لن أخسر شيئاً، وإن صح قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث، فأنا الذى يكسب، والخسران والبوار والعذاب عليكما، إذن... فإيماني إن لم ينفعنى فلن يضرنى، وكلامكما حتى لو صح - وهو غير صحيح ولا سديد - فلن يضرنى.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ انظروا دقة الأداء القرآنى ولأن القاتل هو الله تعالى، فلنرَ كيفية ترتيب فعل على فعل، فحين أقول لك: «احضر لى أكرمك»، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام، ولكن إن قلت لك: «إن حضرت إلى فساكرمك»، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً، فلن تكرم فور أن تأتى، بل أنت تحضر عندى، وبعد ذلك تأخذ تحيتك، ويأتيك الإكرام بعد قليل.

= والبيت ورد فى الديوان:

«يحطمنا صرف الزمان كأننا رجاج ولكن لا يعاد له السبك.

لزوم ما لا يلزم: [١١١/٢]

(١) لزوم ما لا يلزم: [٣٢٤/٢].

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فأنى أقول: «إن حضرت إلى فسوف أكرمك». إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل:

○ جزاء يأتى من فور حصول الشرط.

○ وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه «السين».

○ وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه «سوف».

الحق سبحانه قال: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل: «فسنؤتيه أجراً عظيماً» هذا القول سيبقى ليوم القيامة؛ لذلك كان لابد أن تأتى «سوف» هنا، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع.

وقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة. فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره؛ لكن إذا كان من يعطى هو ربنا سبحانه، فسيعطى الأجر الأعلى ولذا لا بد أن يكون ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾. والاجر هو الشيء المقابل للمنفعة.

وهناك فرق بين: الأجر والثمن، فالثمن مقابل العين، أما الأجر فهو مقابل المنفعة، أنا اشتريت هذه، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه، ولكن أخذته لانتفع به فقط.

وجزاء الحق لمن يُقْتَل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن؟ نلاحظ هنا أن الحق قد أوضح: أنا لم أَثْمَن من قُتِل، بل نظرت لعمله، فأخذت أثر عمله، وأعطيته: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ

تَنْكِيلًا ﴿ [النساء: ٨٤] حين نرى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شيء قبلها. فإذا سمعت على سبيل المثال قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَاتُهُ فَأَقْبِرْهُ ﴾ [عبس: ٢١] فمعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت. فإذا ما وجدنا «الفاء» فلنعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها، ويسمونها «فاء السببية» .

فما الذى كان قبل هذه الآية لترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ ؟ .

نقول: مادام الأمر جاء بقوله تعالى ﴿ فَقَاتِلْ ﴾ ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة لهذه الآية، ألم يقل الله قبل هذه الآية : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿ (٧٥) ﴾ [النساء]

إذن.. أمر القتال من الله لمن؟ لرسول الله ﷺ . والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به (١) .

(١) قال محمد الطاهر بن عاشور فى قوله تعالى: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾

تفريع على ما تقدم من الأمر بالقتال، ومن وصف المثبطين عنه، والمتذمرين منه، والذين يفتنون المؤمنين فى شأنه؛ لأن جميع ذلك قام، أفاد الاهتمام بأمر القتال، والتحريض عليه، فتبها الكلام لتفريع الأمر به. ولك أن تجعل الفاء فصيحة بعد تلك الجمل الكثيرة، أى: إذا كان كما علمت فقاتل فى سبيل الله ، وهذا عود إلى ما مضى من التحريض على الجهاد، وما بينهما اعتراض. فالآية أوجبت على الرسول ﷺ القتال، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه، فعبّر عنه بقوله: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا الأسلوب طريق من طرق الحث والتحريض لغير المخاطب؛ لأنه إيجاب القتال على الرسول، وقد علم إيجابه على =

إذن.. فالرسول ﷺ هو أول من التزم أمر الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثم بلغ ﷺ ذلك إلى المؤمنين، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله ﷺ في هذا الأمر. لكن علينا أن نعلم أن رسول الله ﷺ هو أول منفعل بالقرآن. فإذا قال الحق سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فعليه ﷺ أن يلزم نفسه أولاً بهذا الأمر، وإن لم يستمع إليه أحد؛ وإن لم يؤمن به أحد؛ أو لم يتبعه أحد. وهذا دليل على أنه واثق من الذي قال له: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لانه ﷺ بإقباله على القتال وحده، إنما يدل على صدق دعوته، ويعطى الأسوة لغيره، فساعة يراه غيره يقول: إن محمداً لن يغش نفسه. فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا قاتل هو وحده. ولذلك نجد أن أبا بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه حينما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وولى الخلافة وحدث الردة من بعض العرب. أصر رضى الله تعالى على أن يقاتل المرتدين وقال: لو منعوني عقاب بغير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه (١).

إذن.. فقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا = جميع المؤمنين بقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ فهو أمر للقدوة بما يجب اقتداء الناس به فيه. وبين لهم علة الأمر وهى رجاء كف بأس المشركين، ف«عسى» هنا مستعارة للوعد. والمراد بهم هنا كفار مكة، فالآيات تهينة لفتح مكة. وجملة: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تذييل لتحقيق الرجاء أو الوعد، والمعنى أنه أشد بأساً إذا شاء إظهار ذلك، ومن دلائل المشيئة امثال أوامره التى منها الاستعداد وترقب المسببات من أسبابها.

والتنكيل عقاب يرتدع به رائيه فضلاً عن الذى عوقب به.

[التحرير والتنوير: ١٤٢/٥، ١٤٣]

(١) عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر =

القول ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلغ به .

فمادام الرسول ﷺ بلغ من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً . وبعد ذلك يبلغ الرسول المؤمنين ، فمن آمن به فعل فعله .

وقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ هذا هو تكليف الفعل . لكن التكليف بالبلاغ شيء آخر .

إن الرسول ﷺ يبلغ ، لكن أن يفعل المبلغون ما أمرهم به الله تعالى أم لا يفعلون ، فهذا ليس شأنه ، ولكن هل معنى ذلك أن يترك الرسول ﷺ الذين آمنوا به لأهواءهم؟ لا . قال له الحق سبحانه : ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ومعنى : ﴿ وَحَرِّضِ ﴾ <sup>(١)</sup> مأخوذة من «الحرص» وهو ما به تزال العوائق وما ينظف الأيدي والملابس مما علق بها من الوسخ والدنس . إن عليك يا رسول الله أن تنظر في أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تزيل الموانع التي = من العرب قال عمر لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق . أخرجه البخارى [٧٢٨٤، ٧٢٨٥] ، ومسلم [٣٢ / ٢٠] .

(١) التحريض : التحضيض . قال الجوهري : التحريض على القتال الحث والإحماء عليه . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [الأنفال : ٦٥] . قال الزجاج : تأويله حثهم على القتال ، قال : وتأويل التحريض فى اللغة أن تحت الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه ، قال : والحارض الذى قد قارب الهلاك . قال ابن سيده : وحرصه : حظه . وقال اللحيانى : يقال حارض فلان على العمل وواكب عليه وواظب وواصب عليه : إذا داوم القتال ، فمعنى ﴿ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ حثهم على أن يحارضوا أى يداوموا على القتال ، حتى يشنّوهم .

لسان العرب [٧ / ١٣٣] .

تَمْنَعُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوا، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِرَسُولِهِ ﷺ: إِنَّكَ لَا تُنْصِرُ بِالْكَثْرَةِ الْمُؤْمِنَةَ وَلَا بِقُوَّةِ الْعِتَادِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ، قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. لِمَاذَا؟ .

إِنْ وَرُودَ كَلِمَةٌ: ﴿بَأْسَ﴾ فِي الْآيَةِ، يَرَادُ بِهَا قُوَّةُ الْحَقِّ، وَيَرَادُ بِهَا الْمَكِيدَةُ وَيَرَادُ بِهَا هَزِيمَةُ الْأَعْدَاءِ.

إِذَنْ.. كَلِمَةٌ: ﴿بَأْسَ﴾ فِيهَا مَعَانٍ مُتَعَدَّةٌ. فَالْحَقُّ يَبْلُغُ رَسُولَهُ ﷺ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَكْلِفُ إِلَّا نَفْسَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَخْطُرَ عَلَى بَالِكَ أَنْ تَقُولَ: كَيْفَ أَقَاتِلُ هَؤُلَاءِ وَحْدِي؟ كَمَا أَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ إِذَا مَا دَخَلُوا الْقِتَالَ، فَهُمْ أَيْضًا لَا يَنْصُرُونَكَ، وَلَكِنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْحَقُّ يَقُولُ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] فَمَا هُمْ إِلَّا أَسْبَابٌ، فَقَدْ يَنْصُرُ اللَّهُ بِهِمْ أَوْ بغيرِهِمْ، وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ:

وَلِمَاذَا كُلُّ ذَلِكَ؟ لِمَاذَا لَا يَنْصُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرُّسُولَ مُبَاشَرَةً؟ فَتَكُونُ الْإِجَابَةُ: إِنْ النَّصْرُ لَوْ جَاءَ بِسَبَبٍ غَيْبِيٍّ مِنَ الْحَقِّ رُبَّمَا قَالُوا: ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ قَدْ نَشَأَتْ. وَلَكِنَّ الْحَقَّ يَرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ أَنَّ الْقِلَّةَ الْمُؤْمِنَةَ هِيَ الَّتِي غَلَبَتْ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْحَقِّ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

إِذَنْ.. فَالْمُؤْمِنُونَ يَقْبَلُونَ عَلَى الْأَسْبَابِ وَلَا يَنْسِي الْمُسَبَّبَ. وَلِذَلِكَ حِينَمَا نَظَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْأَسْبَابِ فَقَطَّ فِي «حَنِينٍ»، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنْ نَهْزِمَ عَنْ قِلَّةٍ فَنَحْنُ كَثِيرٌ، ذَاقَ الْمُسْلِمُونَ طَعْمَ الْهَزِيمَةِ أَوَّلًا، وَبَعْدَ أَنْ أُعْطَاهُمُ الْحَقُّ الدَّرْسَ التَّأْدِيبِيَّ أَوَّلًا، نَصَرَهُمْ ثَانِيًا. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] وَهَذَا لَفَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ



ياخذوا بالأسباب، ولكن عليهم ألا ينسوا المسبب أبداً.

والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم ما حدث لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. فلم يكن الحق سبحانه يريد مجرد إنقاذ إبراهيم عليه السلام من النار. فلو كان هذا هو القصد لما مكن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه، ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء نبي الله إبراهيم عليه السلام: «آه لو كنا قد أمسكنا به»؛ ولكن الحق سبحانه جعلهم يسكون بإبراهيم عليه السلام. ولم يكن القصد أن ينجيه الحق من النار فقط؟ لا.. لأنه كان قادراً سبحانه على إرسال ريح أو مطر. ولكن سبحانه ترك النار تتأجج. وأمسك أعداء إبراهيم عليه السلام به، والنار ظلت متأججة ولكن الله أراد أن يقطع الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] هذه هى النكاية، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسة، لوجد خصوم إبراهيم المخارج للهزيمة (١).

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ أى تعجزاً لهم ولاصنامهم، وعناية بمن أرسلناه، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أى باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه، بل كوني غير ضارة. وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله. والامر مجاز عن التسخير؛ كما فى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: ٦٥] فيه استعارة بالكناية بتشبيهها بأمور مطيع، وتخيلها الامر والنداء؛ ولذا قال أبو مسلم: المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً، لا أن هناك كلاماً، كقوله: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أى فيكونه. فإن النار جماد ولا يجوز خطابه. وهو ظاهر.

تنبيه: قال الرازى: لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى أزال عنها مافيهما من الحر والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق. والله على كل شئ قدير.

وثانيها: أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه. =

لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ ما معناه: يا محمد أنا الذى أرسلتك، ولم أكلك إلى نصره من يؤمن بك، وإننى قادر على نصرتك بدون شىء. ولكن أمتك التى آمنت بك، أردت أن ينالها يمن الإيمان بك فيستشهد بعضها، وتثاب الأمة، فتتصر، فتتقوى هامتها.

وقول الحق سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ إن الحق قادر على أن يوقف حرب وكيد الكافرين . . وهذا ما حدث . فبعد موقعة أحد التى لم ينتصر فيها أى طرف نصراً بيناً؛ فرسول الله ﷺ والذين معه قد انتصروا أولاً. ثم خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، فحدث خلل فى صفوف المقاتلين المسلمين. وعلى الطرف الثانى: لم يبق المحاربون من قريش فى مكان المعركة، ولم يتجاوزوها إلى داخل المدينة، إن الممركة فى أحد لم تنته بنصر أحد.

وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد فى بدر الصغرى فى العام القادم. ومرة العام، وجاء الميعاد، وأراد رسول الله ﷺ أن يخرج، فلما طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً، وخرجوا إلى المكان المحدد. وجعل الله هؤلاء يذهبون إلى المكان، وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف، وقذف الله الرعب فى قلب أبى سفيان وقومه فلم يخرجوا. أليس الله بقادر على أن يكف بأس الذين كفروا؟!

لقد أقام رسول الله ﷺ فى المكان، وجلس مع المقاتلين وكان معهم

= كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة. وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة، وبدن السمندل: بحيث لا يضره المكث فى النار. وثالثها: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه. قال المحققون: والأول أولى؛ لأن ظاهر قوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت.

تفسير القاسمى: [٤٢٨٥/١١، ٤٢٨٦]

تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة.

قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ كلمة ﴿عَسَى﴾ فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة، ف﴿عَسَى﴾ معناها فى اللغة: الرجاء، كقول واحد: «عسى أن يجرىء فلان» أى «أرجو أن يجرىء فلان»، أو قول واحد مخاطباً صاحبه له: «عسى أن يأتىك فلان بخير». إن هذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير. وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى، ولكن الرجاء قد حدث. وقد يقول الإنسان لصاحبه: عسى أن آتىك أنا بخير. هنا يكون الرجاء أكثر قوة، لأن الرجاء فى الأولى فى يد آخر غير المتحدث. أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث.

لكن أیضمن المتحدث أن يعيش وأن توجد له القوة حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه؟ إنه صحيح ينوى ذلك، ولكنه لا یضمن أن توجد عنده القدرة. وإذا قال قائل: عسى الله أن يأتىك بالفرج، هذه الأخيرة هى الأوغل فى الرجاء. لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله یجیب هذا الرجاء؟ قد يحدث أن یجیب الله وقد لا يحدث.

لكن عندما يقول الحق سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا يكون قول الحق هو البالغ لنهايات كل الرجاءات، ف«عسى» بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك. فمراحل «عسى» كما أوردنا هى كالآتى:

أن يقول قائل: «عسى أن يفعل لك فلان خيراً» هذه مرحلة أولى فى الرجاء.

وأن يقول قائل: «عسى أن آتىك أنا بخير» هذه مرحلة أقوى فى

الرجاء. فقد يحب الإنسان أن يأتي بالخير لكن قد تأتي له ظروف تعوقه عن ذلك.

وأن يقول قائل: «عسى الله أن يفعل كذا» هذه مرحلة أكثر قوة، لأن الخير فيها منسوب إلى الله تعالى. لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه.

والأقوى على الإطلاق هو قول الله سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن ﴿عَسَى﴾ هنا رجاء محقق لأنه طمع في كريم، والطمع هنا ليس من العبد ولكن الرب هو القائل سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ لماذا؟ لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فيخلخل عظامه. لكن واهب الفعل وواهب القوة للغير قادر على أن يفعل، فهو الأشد بأساً، وهو سبحانه أشد تنكيلاً.

وساعة يسمع الإنسان أى شئ من مادة «نكل» فعلينا أن نعرف أنها مأخوذة من القيد، فـ «النكل» هو القيد. وعندما يوقع الحاكم - مثلاً - العذاب على مرتكب الجريمة. فمن يرى من الناس هذا العذاب يخافوا من ارتكاب مثل هذه الجريمة، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى ألحق بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله. بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً.

إذن.. فالتنكيل والنكال والنكل معناها القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة فى ذاته أولاً، أو فيمن يراه ثانياً<sup>(١)</sup>.

---

(١) نكّل به تنكيلاً: صنع به صنيعاً يحذر غيره. وقيل: نكله: نَحَاهُ عما قبله. =

والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعلهم متفاوتين فى المواهب، ولا يوجد واحد قد جمع كل المواهب . لماذا؟ لأن فكر الإنسان وطاقته الإنسان وزمن الإنسان وظروف الإنسان، كل ذلك لا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال. ولكن الله سبحانه أعطى عبد جزءاً من المواهب، ويعطى العبد الآخر جزءاً آخر. وذلك حتى يتكامل العباد معاً. فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين. والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملأً،<sup>(١)</sup> فما لا أعرفه أنا أجده عند غيرى. فنحن نجد بارعاً فى الهندسة، لكن عندما يصاب هذا المهندس البارع بقليل من الألم فهو يطلب طبيباً.

= والنكال والنكلة بالضم، والنكَل كمقعد: ما نكلت به غيرك كائنأ ما كان.

والنكل بالكسر: القيد الشديد، أو قيد من نار، وضرب من اللجم، ولجام البريد، وحديدة اللجام، والجمع فى النكل أنكال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً﴾ [المزمل: ٦٧] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾ [البقرة: ٦٦] ونكَل: قَبِلَ النكال. وإِنَّهُ لَنُكَلٌّ شَرٌّ: أى يُنكَل به أعداؤه. ورماء بنكلة، أى بما يُنكَلُ به.

بصائر ذوى التمييز: [١٢٦/٥].

(١) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ أصابعه. أخرجه البخارى [٤٨١] واللفظ له، ومسلم [٦٥/٢٥٨٥].

وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى». أخرجه البخارى [٦٠١١] واللفظ له، ومسلم [٦٦/٢٥٨٦].

وعن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله».

أخرجه مسلم [٦٧/٢٥٨٦].

عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «ذمة المسلمين واحدة فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل».

جزء من حديث أخرجه البخارى [١٨٧٠] واللفظ له، ومسلم [٤٦٧/١٣٧٠].

والطبيب يريد بناء عيادة فيطلب المهندس، وكلاهما يطلب مشورة المحامي في كتابة العقود، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء. والذين يقيمون البناء من مهن متعددة أخرى.

إذن.. لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد، ولو حدث ذلك لكان التفكك فى المجتمع.

ولذلك جاء قول الحق: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٢٢] إن الناس حين ينظرون لتفضيل الله لبعض الناس على بعض لا ينظرون إلى ذلك إلا فى مجال المال فقط. ونقول لمن يظن ذلك: إنك مخطئ.

فإن فضلك الله فى القوة والجسم فهذه رفعة.

وإن فضلك فى العلم فذلك رفعة.

وإن فضلك فى الحلم فهذه رفعة.

إن تفضيل الحق لك فى أى مجال هو رفعة لك، فأنت كعبد تكون مفضلاً ومفضلاً عليك.

إذن.. عندما نسمع قول الحق سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ هنا نسأل: أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه؟

إن كل واحد مرفوع بموهبته، والآخر مرفوعون عليه بمواهبهم. ومن الخطأ أن ننظر إلى التفضيل فى مجال المال فقط، ولكن يجب أن ننظر من كل الزوايا. لأننا إذا نظرنا من جميع الزوايا سنجد فرد مرفوعاً فى شىء ومرفوعاً عليه فى أشياء، والآخر مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى أشياء وهكذا.. فالكل مسخر لخدمة الكل.

وتتابع الآيات فى ترغيب المؤمنين وتحريضهم على القتال فى سبيل الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) [النساء]

نلاحظ أن الآية تبدأ بالاستفهام؛ ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله تعالى كان لابد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية، ونحن نقول فى حياتنا العادية: وما لك لا تفعل كذا؟ وكأنا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع والعقل. فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً.

فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله تعالى جزاءه، فالذى لا يُقدم عليه يصبح مثاراً للتعجب منه، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: لإعلاء كلمة الله. ومرة يكون القتال للوقوف بجانب المؤمن المستضعف الذى أودى بسبب دينه. ويكون ذلك أيضاً لإعلاء كلمة الله تعالى.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أى أن القتال يكون فى سبيل الله لاستنقاذ المستضعفين، وفى ذلك استشارة للهمم الإيمانية حتى يقاتل المؤمن فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين، وتخليصهم من العذاب؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب، فهذا دليل على قوة الإيمان وتمكنه من نفوسهم، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب.

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ فكان منطق العقل والعاطفة والدين يحتم أن نقاتل.

وهذه الآية تعنى أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً

للعجب لديهم، مثلها مثل قول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

يعنى: كيف تكفرون بالله الذى خلقكم من عدم ورزقكم من غير حول منكم ولا قوة؟! إن هذه مسألة عجيبة لا يتصورها عقل.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ﴾ يأتى بعدها ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ والمفروض فى الرجل القوة، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً، وبالطبع من يأتى بعده أشد ضعفاً.

إذن قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

هؤلاء المستضعفون من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، وظلوا على دينهم، هؤلاء المستضعفون رجالاً ونساءً وولداناً، أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى النساء، والولدان، فيحرض الحق سبحانه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

وهؤلاء المستضعفون لم يجدوا ناصراً ينصرهم ومعيناً يعينهم على الهجرة من مكة واللحاق برسول الله ﷺ، ولم يكن أمامهم إلا أن يتجهوا إلى الله تعالى ويشكوا إليه - سبحانه - ما أصابهم من أهل هذه القرية الذين منعوهم من الهجرة.. قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [النساء: ٧٥] وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا؛ بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولى يلى أمرهم من المسلمين، فكأنها أوحى لهم بأنه سيوجد فتح لمكة. وقد كان.

ولقد جعل الله لهم من لدنه خيرَ ولى وخيرَ ناصر وهو عبده ورسوله



وخيرته من خلقه محمد ﷺ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أعظم النصر.

هذه الجماعة من المستضعفين كان منهم «سلمة بن هشام» لم يستطع الهجرة، ومنهم «الوليد بن الوليد» و«عياش بن أبي ربيعة» و«أبو جندل» و«سهيل بن عمرو». وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما الذى قال: لقد كنت أنا وأمى من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان<sup>(١)</sup>.

فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم، ولذلك يحفز الله إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية الإيمانية فيهم ليقاتلوا فى سبيل خلاصهم؛ فلقد كان ظلم الكافرين لهم شرساً لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان فى العذاب<sup>(٢)</sup>.

ثم بعد ذلك هيج الله تعالى المؤمنين على قتال أعدائه وأعدائهم،

(١) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «كنت أنا وأمى من المستضعفين».

أخرجه البخارى [٤٥٧٨]

وعن ابن عباس أنه تلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ﴾ [النساء: ٩٨] قال: كنت وأمى ممن عذر الله.

أخرجه البخارى [٤٥٨٨]

(٢) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [٧٥] [النساء] هذا الاستفهام فيه حث وتحريض على الجهاد فى سبيل الله، وعلى تخليص المستضعفين.

وأجاز الزمخشري أن يكون: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منصوباً على الاختصاص يعنى: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين؛ لأن سبيل الله عام فى كل خير، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصه. انتهى كلامه.

ولا حاجة إلى تكلف نصبه على الاختصاص، إذ هو خلاف الظاهر. ويعنى بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال قريش وأذاهم، إذ كانوا لا يستطيعون خروجاً، ولا تطيب لهم على الأذى إقامة. ومن المستضعفين: عبد الله بن عباس وأمه، وقد دعا رسول الله ﷺ بالنجاة للمستضعفين من المؤمنين وسمى منهم: الوليد =

ووضح لهم أنهم يقاتلون في طاعة الله تعالى ورضوانه، وأن هؤلاء الكفرة الذين يعذبونهم ويستضعفونهم إنما يقاتلون في طاعة الشيطان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]

الطاغوت هو: المسرف في الطغيان، ويطلق على المفرد، وعلى المثني، وعلى الجمع: فتقول: رجل طاغوت، رجلان طاغوت، رجال طاغوت،

= ابن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة. وقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ تبيين للمستضعفين.

والظاهر أن ﴿الْوِلْدَانِ﴾ المراد به الصبيان، وهو جمع وليد. قيل: وقد يكون جمع ولد، ونبه على الولدان تسجيلاً بإفراط ظلم من ظلمهم، وهم غير مكلفين ليتأذى بذلك آبائهم، ولأنهم كانوا يشركون آباءهم في الدعاء طلباً لرحمة الله تعالى، وتخليصهم من أذى الكفار. وهم أقرب إلى الإجابة حيث لم تكن لهم ذنوب كما فعل قوم يونس، وكما هي السنة في خروج الصبيان في الاستسقاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ الأحرار، وبالولدان: العبيد لأنه يطلق على العبد وليد، وعلى الأمة وليدة وغلب المذكر على المؤنث؛ إذ درج المؤنث في جمع المذكر و ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ ليس لهم من القوة والمنعة من الظلم إلا بالدعاء والاستنصار بالله تعالى، والقرية هنا مكة بإجماع.

ووصف أهلها بالظلم إما لإشراكهم، وإما لما حصل منهم من شدة الوطأة على المؤمنين وإذلالهم.

قال ابن عطية: والآية تتناول المؤمنين والأسرى، وحواضر الشرك إلى يوم القيامة. انتهى. ولما دعوا ربهم أجاب كثيراً منهم في الخروج، فهاجر بعضهم إلى المدينة، وفر بعضهم إلى الحبشة، وبقي بعضهم إلى الفتح. والجمهور على أن الله تعالى استجاب دعاءهم، فجعل لهم من لدنه خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي، ونصرهم أقوى النصر. ولما خرج من مكة ولي عليهم عتاب بن أسيد وعمره إحدى وعشرون سنة، فأروا منه الولاية والنصر كما سألوا. قال ابن عباس: كان ينصف الضعيف من القوى، حتى كانوا أعز بها من الظلمة.

[البحر المحيط: ٣/ ٧١٠-٧١٢] بتصرف.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وقيل: الطاغوت هو الشيطان؛ وهو الظالم الجبار الذى يطغيه تسليم الناس له خوفاً من بطشه وظلمه واتقاء لشره.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ . أولياء الشيطان هم: الذين يطيعون الشيطان فى معصية الله تعالى ويعرضون عن منهج الله تعالى، ويصدون الناس عن عبادة الله سبحانه ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله . وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يدل على أنه ليس للشيطان سلطان يقهر الإنسان على فعل، وليس له حجة مقنعة.

ثم يقول الحق مرغباً ومحرضاً للمؤمنين على قتال عدوهم: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

﴿أَلَا﴾ تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب.

وقوله تعالى: ﴿نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أى: هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول ﷺ من مكة.

﴿وَهَمُّوا﴾ أى: عقدوا النية على العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى أنهم هم الذين بدءوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه رسول الله ﷺ . والبدء هو: العمل الأول، وهو فعل لا يتكرر.

هم إذن الذين بدءوا الفعل الأول بالعداوة. والإسلام- كما نعلم- قد

واجه قوتين فى مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام:

القوة الأولى : قوة المشركين من قريش . والقوة الثانية: قوة اليهود .

أما قريش فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدءوا القتال فى بدر . وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير عوضاً عن مالهم الذى تركوه فى مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر<sup>(١)</sup>.

إذن . . فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان<sup>(٢)</sup> إلا أن قريشاً هى التى أرادت القتال، فجمعوا الجند والفرسان؛ ليقاتلوا المسلمين . وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ﷺ من المدينة . كما فعل به المشركون وأخرجوه من مكة؛ وكان بينه ﷺ وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله ﷺ فى المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟ .. لا، فقد تعهدوا من ضمن ما تعهدوا ألا يعينوا عدواً عليه، ولكنهم نكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشاً على رسول الله ﷺ والمسلمين .

---

(١) وذلك: أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشاً وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره قد جدد بعيره - أى: قطع أنفه-، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة - وهى: الإبل تحمل الطيب- أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث .

سيرة النبى ﷺ لابن هشام [٢/٢٦٥].

(٢) وذلك أن أبا سفيان غير طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرًا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم فقد نجأها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له .

سيرة النبى ﷺ لابن هشام [٢/٢٧٦/٢٧٧].

وكذلك فعل بنو النضير، فقد أرادوا اغتياله ﷺ، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غزوة الأحزاب وأعانوا قريشاً ضد الرسول ﷺ، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا الرسول ﷺ وجيش المسلمين غدرًا من الخلف.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ بَدَأُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من حيثة، بمعنى: أن نقضهم العهد ويدوهم القتال يجعلكم تقاتلونهم؛ لتأمنوا شرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ تحريض على القتال، أى: ما الذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

وهنا يلفت الحق سبحانه المؤمنين إلى أنهم إن كانوا بين خشيتين: خشية من البشر وإذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية منه هو الله سبحانه وتعالى لما له من نعم لا تعد ولا تحصى على الإنسان، من خلق وإيجاد، وهداية. وكذلك رهبة منه سبحانه لعظم قوته وقهره وجبروته وسلطانه فإنه سبحانه لا يعز من عاداه ولا يذل من والاه.

إذن.. إذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون ما يمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولا يخشون ما يصيبهم من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين والآية فيها استفهام للتوبيخ؛ فإِنَّ الله سبحانه وتعالى يخبر المؤمنين أن يقولوا للكافرين:

إن قتلناكم فلنا النصر والغنيمة وإن قتلتمونا فلنا الجنة والشهادة، أما أنتم فانتظروا عقوبة من الله لتهلككم، كما أصاب الأمم السابقة من قبلكم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبداً أن تخشوهم وتخافوهم؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر والغنيمة. وكلاهما أمر محجب لنفوس المؤمنين بالله تعالى.

إذن... ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر، نجد أن الجانب الفائز هو جانب المؤمنين، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسرون على أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يُعَذَّبُوا بأيدي المؤمنين، فيخزيهم الله تعالى فى الدنيا، وإلا فإن مصيرهم إلى الله فيعذبهم عذاباً شديداً فى الآخرة.

وهكذا نزع الله سبحانه الخوف من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، حتى ولو كانوا أقل منهم عدة وعدداً، قال سبحانه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا يجب ألا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية، فهذه خشية لا محل لها فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم تواصل الآيات فى تحريض المؤمنين على القتال، يقول سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة]

قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار.

ويخبرهم الله سبحانه بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُخْزِيهِمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وقد يستل سائل:

إذا كان الله يريد أن يعذبهم، فلماذا لا يأتى بآية من عنده مباشرة؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كوني غير القتال لقال الكفار: حدث كوني هو الذى نصرهم. وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدي المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لا يؤمنون إلا بالامر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهد المسألة، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرى الكفار بأس المؤمنين؛ لتمتلى قلوبهم هية وخوفاً ورعباً من المؤمنين، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترثوا على الدين، أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق جل شأنه هنا يأمر فيقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وفى آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟

ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. الله سبحانه وتعالى قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال: قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم، لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول كما سبق وقبلنا: إن الجهة منفكة، فقله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى: لا ينزل الله تعالى عليهم عذاباً من السماء مادمت فيهم وقد أوضح هذا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴿١﴾ [الأنفال]

فقد طلب الكفار عذاباً ينزل عليهم من السماء إن كان هذا الدين هو

(١) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فتزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أخرجه البخارى [٤٦٤٨، ٤٦٤٩].

الحق، فانزل الله سبحانه وتعالى قوله السالف بأنه جل جلاله لا يعذبهم مادام رسول الله ﷺ فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين.

وإن عدم أخذهم بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. فإن الله ائتمن المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم ناصرهم ومؤيدهم؛ وذلك لأن العذاب من الله يكون استئصالاً لكل الكافرين؛ صغاراً وكباراً، كأن يكون كما قلنا من قبل: يغرقهم الطوفان، أو تأتي الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تحيثهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أو تصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفي كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال لا يقضى على الكفار نهائياً، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء والصبيان<sup>(١)</sup>، الذين لم يقاتلونا<sup>(٢)</sup>.

إذن. . . فالعذاب بعد رسالة رسول الله ﷺ ليس عذاب استئصال وإبادة

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». متفق عليه، أخرجه البخارى [٣٠١٥] ومسلم [٢٥/١٧٤٤]

وقال النووى: قوله: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان» أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء: يقتلون، وأما شيوخ الكفار فإن كان فيهم رأى قتلوا، وإلا ففيهم وفى الرهبان خلاف، قال مالك وأبو حنيفة: لا يقتلون، والأصح فى مذهب الشافعى: قتلهم.

(٢) قال ابن العربى: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] فيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: فى بقاء حكمها أو نسخه: وفيه قولان:

أحدهما: أن هذا كان فى أول الإسلام عند المودعة وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ؛ قاله ابن زيد .

الثانى: أنه باق، وذلك على وجهين:

أحدهما: أنهم خزاعة ومن كان له عهد.

تحريض المؤمنين ..... ١٠٠ ..... جهاد الرسول ﷺ



كما كان فى الأمم السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمداً ﷺ وأمه من بعده أن تحمل لواء الدعوة إلى الله تعالى، وأن تبلغ رسالة النبى ﷺ لكل الناس، وأذن لها بحمل السيف للتخلى بين الناس وحریتهم فى الاختیار، وكذلك تأديب من تسول له نفسه الاعتداء على مجتمع المسلمين من الكفار والمشرکین؛ وكذلك الذين ينقضون عهودهم.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]

ما الفرق بين العذاب والخزى؟ نقول: قد نجد واحداً له كبر وجلد، وقوة تحمل فإن أصابه العذاب فهو يتحملة ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، مثل ذلك له عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛ لأن معناه الفضيحة.

كأن يكون هناك إنسان له جبروت وبطش فى الحى الذى يسكن فيه،

= الثانى: ما رواه عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه طلق امرأته قتيلة أم أسماء فى الجاهلية، فقدمت عليهم فى المدة التى كان رسول الله ﷺ هادن فيها كفار قريش، وأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر قرطاً، فكرهت أن تقبل منها، حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله الآية.

والذى صح فى رواية أسماء ما بيناه من رواية الصحيح فيه من قبل.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، أى تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل؛ فإن العدل واجب فىمن قاتل وفىمن لم يقاتل.

المسألة الثالثة: استدلل به بعض من تعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر، وهذه وهلة عظيمة؛ فإن الإذن فى الشئ أو ترك النهى عنه لا يدل على وجوبه، وإنما يعطيك الإباحة خاصة. وقد بينا أن إسماعيل بن إسحاق القاضى دخل عليه ذمى فأكرمه، فوجد عليه الحاضرون، فتلا هذه الآية عليهم.

أحكام القرآن لابن العربى [١٧٨٥/٤]

مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب لهذا الفتوة ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولا يؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاًماً لنفسه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة من مراحل النصر والتمكين.

أول هذه المراحل قول الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

والثانية: ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾.

والثالثة: ﴿وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

والرابعة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أى أن النصر سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم وأخذوا أموالهم وأخرجوهم من ديارهم، فكان هذا النصر يذهب غيظ قلوبهم. أى: يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور.

إذن.. قتال المؤمنين للكفار لا يحقق فقط العذاب والخزى للكفار، والنصر للمؤمنين، ولكنه يشف صدور المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق تسلط الكفار عليهم وإخراجهم من أموالهم وديارهم.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠]

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، أنه سبحانه وتعالى رغم تعذبه لهم، وتشديد النكير عليهم، يفتح لهم باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب رحمن رحيم، وفى ذلك إشارة للمؤمنين إذا جاءهم هؤلاء المحاربين، أو نفر منهم تائب إلى الله تعالى نادماً على ما فعل طالباً الدخول فى الإسلام فلا يتعالوا، ويقولوا: إنما جاء بعد الهزيمة والانكسار؛

فإن الذى أتى به هو الله تعالى لما فتح له باب التوبة ليتوب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: أنه سبحانه عليم بخلقه، حكيم فى تقديره فالقتال أرادَه الله عز وجل ليذك به جبروتهم وطغيانهم، والتوبة قدرها لهم لمنع تمادى الكفار فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، وما دام مصيرى إلى النار، فلاأخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لا توجد توبة.

إذن.. تشريع التوبة يجعل الظالم لا يتمادى فى ظلمه، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح لعله يكفر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد.

إذن.. فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

## تشوق المؤمنين للإذن بالقتال

قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

إن قول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ يعني: أن بؤادر مد الأيدي كانت موجودة. لقد جاء الأمر هنا بكف اليد عن القتال، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

إذن.. قوله سبحانه ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ كان لأن بؤادر مد الأيدي إلى القتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن قالوا: دعنا يا رسول الله نقاتل. وإما فعلاً بأن يتهيئوا لعملية القتال.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يدلنا على أن هناك زمينين بصدد هذه الآية: زمناً قيل لهم فيه: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾. ورمناً كُتِبَ عليهم فيه القتال.

ونفهم من هذا أنهم كانوا قد استعدوا تأهباً ببؤادر مد الأيدي للقتال قبل أن يكتبه الله عليهم. والذين قالوا: دعنا نقاتل هم: عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له. هؤلاء قالوا لرسول الله ﷺ: إنا مضطهدون في مكة ويجب أن نقاتل هؤلاء الناس وليحدث لنا ما يحدث. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني أمرت بالعرفو فلا تقاتلوا القوم».

فلو كان هناك أمر إلهي بالقتال لقال لهم: هيا إلى القتال. وهذا

دليل على أن الرسول ﷺ كان يتنظر أمراً من الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ويعد ذلك كتب الله عليهم القتال، فلما كُتب عليهم القتال جزع

(١) قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتموا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض؛ فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الآية [محمد: ٢٠]. قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن عبد العزيز عن أبي زرعة وعلى بن رمحة قالوا: حدثنا علي بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله: كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا؛ فأنزل الله ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية. ورواه النسائي والحاكم<sup>(١)</sup>.

وقال أسباط عن السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وقال مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي آخرة المتقى خير من دنياه =

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره [٥٦٣٠]، والنسائي في الكبرى [٤٢٩٣]، والحاكم في المستدرک

[٣٠٧/٢] وصححه، ووافقه الذهبي.

بعضهم لما فيه من يتم للأولاد وترمل للنساء وسفك للدماء، وقالوا:  
﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقي، قد يدب في النفوس الخور والخوف، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتي على المؤمن، فمادام الإنسان ليس رسولاً ولا معصوماً فلا تقل: فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا؛ لأن فلاناً هذا لم يدع أنه معصوم، وكل بني آدم خطاءً، وتأتيه خواطر نفسه، وتأتيه هواجس في رأسه، ويقف أحياناً موقف الضعف، ولذلك عندما يقول لك واحد: فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا، قل له: وهل قال أحد: إن هؤلاء معصومون؟ وما داموا غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا.

والآية تعنى: أنهم ليسوا سواء، ففريق منهم أصابه الضعف، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته في إيمانه، لم تلن له قناة ولم ينل منه وهن ولا ضعف.

ثم انظر أدب الأداء. لم يقل: فلان أو فلان. بل قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان في نفسه، وهذه عملية أراد بها

= ﴿وَلَا تُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا﴾ أى: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن زيد عن هشام قال: قرأ الحسن ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صاحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يجب ثم انتبه<sup>(١)</sup>.

تفسير ابن كثير: [٤٩٨/١]

(١) رواه ابن أبى حاتم في تفسيره [٥٦٣٥].

الحق سبحانه الستر للعبد، ومادام الستر قد جاء من الرب، فلنعلم أن ربنا أغير على العبد من نفسه، ولذلك نقول دائماً: إن ستر ربنا غيب الناس عن الناس هو تكريم للناس جميعاً.

فهب أن واحداً أحب أن يطلعه الله على غيب الناس، أيحب هذا العبد أن يطلع الله الناس على غيبه؟! لا، إذن.. فأنت حين ترى أن الله ستر غيبك عن الناس، وستر غيب الناس عنك فهذه نعمة من الله ورحمة؛ لأن الإنسان ابن أغيار. والله ستر يحب الستر.

إن الإنسان قد يعصى الله ولكن الله تعالى يحب من يستر على هذا الإنسان<sup>(١)</sup>، ويأمرنا: إياكم أن تتبعوا عورات الناس، فماداموا قد امتلكوا بعضاً من الحياء جعلهم يسترون، فليكن لهم الاستتار؛ حتى لا يفقدوا الأمل في رحمة الله، وحتى يحمي الله المجتمع من آثامهم لو أعلنوا معصيتهم وجأهروا بها، ونشروا في الناس الفاحشة. ولكن من جهل بعض الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب، ويحاولوا قراءة الطالع بزعمهم، لا يعلمون من فرط جهلهم أن ستر الغيب نعمة من الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ يدل على أنهم قد نسوا هنا أنهم طلبوا القتال من قبل أن يكتبه الله عليهم، كي نعرف أن النفس البشرية، حين

---

(١) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

أخرجه البخارى [٢٤٤٢] واللفظ له، ومسلم [٥٨/٢٥٨٠].

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: «لا يستر عبدٌ عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة». أخرجه مسلم [٧٢/٢٥٩٠].

تكون بمنأى عن الشيء تتمناه، وعندما يأتيها تعارضه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام؟ يوضح الله لنا ذلك: إنهم يقولون: يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء، وقد لا نقدر عليه في ساعة لقاء العدو؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك، وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو، إن قوله تعالى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يوضح أن كل واحد منهم يعي تماماً أنه سيموت حتماً، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهي حياته بالقتل.

ولماذا يطلبون التأخير؟ أحبباً في الدنيا ومتاعها؟ ويأتي جواب الحق: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فلا يصح أن تحرصوا عليه -أيها المؤمنون- حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا، فكلكم ستموتون، وكل منا سيجازيه ربنا على عمله، أما الذي يُقتل في سبيل الله فسيجازيه على عمله أحسن الجزاء، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت <sup>(١)</sup>، ولذلك يأمر الحق رسوله ﷺ بأن يقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إذا قُتل مجاهداً في سبيل الله.

وروى أن بعض العارفين قال: إذا كان لا مفر من الموت، فلماذا لا نذهب لتقاتل في سبيل الله، فإن قتلنا فليكن موتنا بضمن زائد عن عملنا، إذن فهذا رُبُّو وتسمية للفائدة، ولذلك قال الحكيم:

لعددا أضلنا الشجعانا

ولو أن الحياة تبقى لحى

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]



الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب، لكن المسألة ليست كذلك، والشاعر العربى يقول:

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد للذات هل أنت مخلدى؟  
والمتنبى يقول:

أرى كلنا ييغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهماً بها صبا  
فحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع النفس أورده الحرباً<sup>(١)</sup>  
إذن فالاثنان يجبان نفسيهما، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق.

وعندما ننظر إلى إجمال السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى الجماعة المؤمنة تربية إيمانية، لا تخضع لعصية الجاهلية ولا لحماية النفس، ففريق من المؤمنين وهم فى مكة وقد ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا، لكن الرسول ﷺ يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال، وتلك تربية أولى للجماعة المؤمنة؛ لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حماية وعصية وعزة وأنفة، فكلما أهيج واحد منهم فى شىء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً، ف يريد الله سبحانه أن يستل من الجماعة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصية والغضب للحمية، وأراد أن يجعل الغضب كله فى الله، والله.

وحينما جاء الإذن بالقتال، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة، ولا ليكرههم على إسلام، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تابعاً له، فأراد الله سبحانه أن

(١) انظر ديوان المتنبى [٣٢٥ - ٣٢٨].

يحمى حرية الاختيار فى الإنسان، فكان القتال حفاظاً على كرامة الإنسان أن يكون تابعاً فى العقيدة لغيره، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً؛ فمن استجاب له وآمن فلنفسه، ومن لم يستجب فعلها.

وهذا يدل على أن الإسلام دينٌ مَنَعَ التسلط على عقائد الناس، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يرغبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغى.

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويراً طبيعياً. فبين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

إذن.. فهناك فرق بين أن نطلب أن نقاتل، وأن نخوض القتال بالفعل؛ لذلك نجد أن بعضهم خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا، والقتل كما نعلم: هدم بنية، ولكن الموت حتف الأنف هو الذى يقبض الله به الروح الإنسانية، دون هدم بنية أو نقض لها.

وأيضاً: فالقتال يكون مظنة القتل، والخوف من القتال مظنة الإطالة فى الأجل، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله؛ لذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن الأمة الإسلامية ستواجه عنفاً شرساً فى سبيل الدعوة، لذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحفزهم على القتال ويحرضهم عليه ويزهدهم فى الدنيا: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فالحرص

على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعنى أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر، وهذا تصور خاطئ؛ فالأجل محدد ومقدور ولا يقربه قتلاً أو يؤخره؛ وشئ آخر وهو الأهم من الدنيا ومتاعها القليل وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

إنه شراء وبيع، الموت فى سبيل الله مقابل الجنة ونعيمها الدائم. وتلك هى التجارة الربحية دائماً التى لا تبور. قال سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ [الصد].

إذن.. فالله تعالى يدلنا على ماينجينا من عذاب النار، والتاجر الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الربحية والمضمونة، والتى تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها. فلو أننا تأملنا الدنيا، لعلمنا أنها مهما طالّت لا تؤثر ولا تزيد فى عمر الفرد؛ لأن الدنيا تطول فى الزمن لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها، لا بمقدار أعمار الآخرين، فإن دامت للآخرين طويلاً، فما دخل الواحد منا فى ذلك؟.

إذن.. فالدنيا بالنسبة للفرد هى زمن محدد، والله يُبَشِّرُ المؤمن الذى يقتل فى سبيله أنه سيأخذ أجراً عظيماً فى حياة أبدية لا نهاية لها.

وأيضاً فالبقاء فى الدنيا بدون قتل إلى أن يموت الواحد حتف أنفه، هو بقاء غير متيقن. ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً. أما الآخرة فهى غير محدودة بزمن وهى متيقنة.

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم. وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى

أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته. فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة نجد أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل لا يساوى شيئاً بالنسبة للآخرة.

إذن. . فالحق سبحانه يرغبنا في الصفقة الإيمانية، ويعلم سبحانه أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظن أحد أن الدين جاء ليسلبه حياته، أو ليستزله في تلك الحياة!! لا. . إنما جاء الدين ليعلى من شأن المؤمن في الدنيا والآخرة، فالمجاهد في سبيل الله يجمع الله تعالى له الحسنين بمعنى: إن انتصر في الحرب، فاز بالغنيمة والظفر على عدوه، بخلاف ما له عند الله تعالى في الآخرة، وإن قاتل فقتل في سبيل الله، فهو شهيد في مقعد صدق عند ملك مقتدر<sup>(١)</sup> مع النبيين والصديقين، فالله تبارك وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً وهو سبحانه الذي نهانا أن نبخس الناس أشياءهم، كما نهانا عن الظلم وأمرنا بالعدل حتى مع قوم بيننا وبينهم عداوة قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ونحن نعرف أن الفتيل هو ما قُتل من الخلايا الميتة على سطح جلد الإنسان مع ما علق بها من الأوساخ والأتربة وما شابه ذلك؛ نلاحظ ذلك حينما يدعك الإنسان كفيه معاً، فيخرج ناتجاً كالفتلة، والفتيل هو: الفتلة في بطن النواة، أى: أن الله تعالى لا يظلم حتى لو كان بمقدار ذلك الشيء القليل<sup>(٢)</sup>.

(١) مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر]

(٢) قال الفيروزآبادي: قتل الحبل وقُتل: لواه فهو فتيل ومفتول، وقد انفتل وتفتل وفتل وجهه عنهم: صرفه. وقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مثل في الحقارة والقلة، وهو ما يكون في شق النواة لكونه على هيئة الفتيل، وقيل: هو ماتفته بين أصابعك من خيط. أو وسخ بصائر ذوى التمييز [١٦٦/٤].

إذن.. . قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يعني فيما قضى به سبحانه متفضلاً به على عباده بالفضل مع العدل. وسبحانه يريد أن يطمئنتنا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء، لا.. . إن فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء. واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١) [يونس: ٥٨] .

ويوم أحد قال المنافقون فى شهداء المسلمين: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (٢) [آل عمران: ١٥٦] . ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت.

وهذا زعم باطل وقول غير صحيح؛ فإننا نعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف.

إن الذين درسوا «الظرف» فى النحو يقولون: «ظرف زمان، أو ظرف مكان»، فكل حدث من الأحداث لابد أن يوجد له زمان ومكان. والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم، فظرف حدوث الموت زماناً أو مكاناً مبهم، وحين ييهم الله شيئاً، فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا، إن الحق ييهم الأمر ليوضحه أوضح بيان، فالإبهام من

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يدخل أحداً عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا ولا يمتنن أحدكم الموت؛ إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعقب» .

أخرجه البخارى [٥٦٧٣] واللفظ له، ومسلم [٢٨١٦/٧١].

(٢) عن الحسن فى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قال: هذا قول الكفار، إذا مات الرجل فيقولون: لو كان عندنا ما مات. ولا تقولوا كما قال الكفار. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [٤٣٩٨].

عنده أوضح بيان، كيف؟ إنه سبحانه حين يجهلنا بزمان الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة، وهل هناك بيان أوضح من هذا؟. فحين جهلنا بزمان الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه، ولكنه أشاع زمنه فى كل زمن، فلا أحد بقادر على الاحتياط من الموت.

وكذلك الحال فى مكان الموت، يقول الحق جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨] كلمة يهدى : أى يدل ويبين؛ لأن الهداية هى الدلالة والبيان فالله سبحانه يسألهم ، والاستفهام قد يكون لتعلم ما تجهل وقد يكون إنكاراً للنشء، وقد يكون بهدف إقرار المستفهم منه بشيء. فالكفار يرون ما حدث للأمم التى كذبت رسلها من قبل ومع ذلك لم يتعظوا بما وقع لأسلافهم، من هذه الأمم التى حل بها عذاب الله<sup>(١)</sup>.

يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

وهناك آيات كثيرة تتحدث عن نصر الله لرسله على الأمم الظالمة والأقوام الذين تمردوا على منهج الله. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات].

(١) عن قتادة فى قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ قال: أفلم نبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ نحو عاد و ثمود، ومن أهلك من الأمم.

الدر المثور: [٦١٠/٥]

وقال أيضاً : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ١٠]  
 فالله سبحانه لا يتخلى عن رسله ؛ بل ينصرهم ويؤيدهم حتى تكون الغلبة  
 لمنهج الله فى الأرض . وبعد ذلك يكون مصير المكذبين هو البوار  
 والخسران . فالله تعالى يذكر المشركين بمن سبقوهم فى معاندة الرسل  
 والوقوف فى وجه دعوتهم والمصير الذى حاق بهم فى النهاية . وكلمة :  
 ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ معناها شئ كثير فوق الحصر . مثل قولك لصديق غاب  
 عنك : كم سألت عنك ؟ أى أنك سألت عنه مرات كثيرة . ومثل قولك  
 لإنسان ينكر إحسانك إليه : كم أحسنت إليك ؟ لأنك أحسنت إليه مرات  
 كثيرة وهو يعلم ذلك جيداً ولا يستطيع الإنكار ، وأنت تريده أن يقر بهذا  
 أمامك . ولا تستفهم عنه إلا إذا كان الجواب فى صالحك .

إذن . . الاستفهام عن الشئ ليس معناه أن تعرف ما تجهل ، ولكن أن  
 تقرر المقابل ومن لسانه هو بما حدث .

ومعنى : ﴿ أَقَلَّمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ . أى ألم يدلهم ويبين لهم وجود هذه القرى  
 والأماكن الكثيرة التى كذبت رسلها ، وما حدث لها من هلاك وعذاب ، كان  
 يجب أن يتنبهوا إلى ذلك ؛ حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه بسبب عدم إيمانهم  
 بالرسول ﷺ . وهم الذين يمشون فى مساكن هؤلاء الأقوام الذين لا رالت  
 آثارهم باقية ، ألم يتعظوا من أن يحل بهم نفس هذا المصير جزاء كفرهم  
 وعنادهم . وهذه الأشياء فيها آيات عجيبة لمن يفكر فيها من أصحاب العقول  
 والألباب . لأن قوله ﴿ لَأُولِي النُّهَى ﴾ بمعنى : أصحاب العقول والألباب .

وكلمة : ﴿ النُّهَى ﴾ تحل لنا إشكالات متعددة فى الكون ؛ لأن الناس  
 يفهمون خطأ أن الله خلق لنا العقل لتعربد به فى الفكر ونستخدمه كما  
 نشاء ، وهذا خطأ فادح لأن العقول اسمها نُهى «جمع نهية» أى أن  
 العقل جاء لكى ينهى عن الفعل القبيح ، لا ليجعلك تعربد فى الكون

بلا ضوابط <sup>(١)</sup>. كلمة: عقل، مأخوذة من عقل البعير، وأنت تقيد البعير بالجل حتى لا ينطلق على غير هدى. فربنا سبحانه أعطاك العقل حتى يضبط سلوكك فلا تمشى فى الكون على هواك <sup>(٢)</sup>.

فالرجل الذى يسرق مثلاً لو كان عنده عقل كان لابد أن يقول له عقله: أنت إن سرقت وأنت واحد، فأبح للناس جميعاً أن يسرقوك.

وحين يقول لك الشرع: غض بصرك عن محارم غيرك. العقل يقول: ما دام الله طلب منى أن أغض بصرى عن محارم الناس فلا بد أن الله طلب من غيرى أن يغض بصره عن محارمى.

فالعقل لا يأخذ هذا على أنه تضيق عليه وعلى غيره وإنما لتستقيم الأمور. فساعة يمنعك من شىء يمنع غيرك منه أيضاً، وهذا لصالحك ولصالحهم. أما من يريد أن يعربد فى أعراض الناس فليترك الناس يعربدوا فى عرضه !!.

ولذلك يقول أبو أمامة رضى الله تعالى عنه: أن فتى شاباً جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لى بالزنا! ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً. قال: فجلس ، قال: «أتحبه لأملك؟» قال: لا والله ، جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابتنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله ، جعلنى الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال:

---

(١) النهى: العقل ، والنهى: العقل ، بالضم؛ سميت بذلك؛ لأنها تنهى عن القبيح .  
لسان العرب: [٣٤٦/١٥].

(٢) قال ابن الأنبارى: رجل عاقل، وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. وقيل: العاقل الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها.  
لسان العرب: [٤٥٨/١١].



لا والله جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». قال: فلم يكن - بعد ذلك - الفتى يلتفت إلى شيء<sup>(١)</sup>.

إذن.. العقل جاء ليعقلك عن العريضة، وسمى بـ «النهى» لأنه ينهى عن الفعل غير المشروع. فالكفار كان عليهم أن ينظروا إلى مصير الأمم السابقة التى كذبت رسلها وما حدث لها، فيرتدعوا ويؤمنوا بمنهج الله؛ حتى لا تكون نهايتهم مثلهم. ولكن لأن الله أخر عنهم العذاب كانوا يقولون: نحن لا زلنا نحيا كما نحب ولم يحدث لنا أى شيء، فلا عذاب ولا صعق ولا مسخ ولا ريح صرصر. ولا أى شيء، فربنا سبحانه يبين لهم أن السبب فى منع نزول البلاء عليهم كما حدث مع الأمم السابقة هو كلمة سبقت من الله لرسوله ﷺ حين قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

لذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]. فهذه هى الكلمة التى سبقت من الله لرسوله، والرسول عليه الصلاة والسلام يوضحها بقوله: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله»<sup>(٢)</sup> فهناك سببان منعا نزول العقاب والهلاك فى

(١) رواه أحمد فى المسند [٥ / ٢٥٦ ، ٢٥٧] والطبرانى فى الكبير [٨ / ٧٦٧٩]، والبيهقى فى السنن الكبرى [١٨٥٠٧]، وذكره الهيثمى فى المجمع [١٣٤/١] وقال: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم=

الدنيا على المعاندين للرسول ﷺ هما: الكلمة التي سبقت من الله تعالى بأنه لن يعذبهم والرسول ﷺ بينهم؛ والأجل المسمى لكل واحد منهم<sup>(١)</sup>. فلولاً الكلمة التي سبقت من الله؛ لكان من اللازم أن يصنع بهم مثلما فعل بالأمم السابقة. ولأنهم سيكفرون ولن ينزل عليهم عقاب في الدنيا. فنتيجة ذلك أنهم سيتمادون في الكفر والطغيان والعناد للرسول ﷺ. ولذلك الحق سبحانه وتعالى يعطى المناعة للرسول ﷺ وهى الصبر.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] فالصبر مطلوب في الدعوة ولك بكل صبر أجر،

= كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة. إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً».

أخرجه البخارى [٣٢٣١]، ومسلم [١٧٩٥/١١١] واللفظ له.

(١) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. أخرجه البخارى [٤٦٤٩].

وقال ابن كثير: أى لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يُعَذَّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة؛ لجاءهم العذاب بغتة. تفسير ابن كثير: [٣ / ١٦٥].

والصبر مرة يأتي سهلاً، ومرة يكون على شيء صعب وشديد على النفس. والأقوال التي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصبر عليها مثل قولهم عليه: إنه ساحر، وشاعر، ومجنون، كما قالوا: أساطير الأولين اكتتبها. فوجب عليه ﷺ أن يصبر على كل قولة يقولونها؛ لأن كل كلمة منهم تحمل معها دليل كذبتها .

فقالوا: ساحر، والمنطق يقتضي أن الساحر يسحر كل من حوله، فلماذا لم يسحرهم فيؤمنوا به وتنتهي المشكلة؟ فهذا كذب لأن بقاءهم على عنادهم وكفرهم به دليل على أنه لا يسحر أحداً.

وقالوا: شاعر، وهذه مقولة تحمل في طياتها دليل كذبتها؛ لأن العرب أمة بلاغة وصنعتهم الكلام ويعرفون الكلام المنظوم من الكلام المنثور أو المسجوع ، والقرآن ليس بشعر وليس له بحر أو قافية فهو معجزة خالدة تحداهم الله تعالى به (١).

والعرب أكثر الناس معرفة باللغة وأساليها، وكانوا يقيمون لها الأسواق والمهرجانات في عكاظ، ويعلمون تماماً أن القرآن لا هو بالشعر ولا هو من قول البشر، وشهد بذلك صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة .

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

عندما سمع القرآن فعاد إلى الكفار ليقول لهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه وما هو من قول البشر<sup>(١)</sup>.

(١) روى ابن إسحاق ومقاتل في تفسيره وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي والواحدي من طرق عن ابن عباس، قال: لما أنزل على النبي ﷺ سورة غافر قرأها النبي ﷺ في المسجد، فسمعها الوليد ثم انطلق إلى مجلس بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد كلاماً أنفأ ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمورق، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يعلَى. ثم انصرف فقالت قريش: لقد صبا الوليد، والله لئن صبا الوليد لتصبان قريش كلها. وكان يقال للوليد: ريحانة قريش. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه.

فانطلق حتى دخل عليه وهو حزين فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه؛ فإنك، أتيت محمداً تتعرض لما قبّله. فقال: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له. قال: وماذا أقول فيه؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن. فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: دعني أفكر فيه.

فلما اجتمع بقومه قال، وقد حضر الموسم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً. قالوا: فأت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقوله فيه. قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، فقد رأينا الكهان فما هو بزمرة الكاهن ولا سبعة. قالوا: فنقول مجنون. قال: والله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بحنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحروهم فما هو بنفته ولا عقده. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعاه لمثمر وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، فما يقول سحر يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته =

ثم قالوا: مجنون، والجنون يتافيه الخلق الانسجامي مع كل تصرف، فأنت لا تقول عن المجنون: إنه كذاب أو منافق أو لص؛ لأن عقله غائب فلا تصفه بأي صفة. فكيف يصلح أن يقال هذا عن محمد ﷺ؟ وهم الذين سموه الصادق الأمين وكانوا يحفظون أماناتهم عنده رغم اختلافهم مع دعوته.

ولذلك قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) [القلم] فالخلق هو الملكة المستقرة للخير، والرسول ﷺ كان صاحب خلق عظيم كما وصفه ربه سبحانه.

كما اتهموه بالافتراء مع أنهم لم يجربوا عليه أنه كذب مرة واحدة أو قال شعراً ذات يوم، فإذا كان الرسول جاء بهذا الكلام العظيم مع أنه ليس من أصحاب صنعة الكلام، بل أنتم أصحاب صنعة الكلام والبلاغة، فلماذا لم تأتوا بمثل هذا الكلام الذي جاء به محمد ﷺ وتعارضوه به؟ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]

= فاضربوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروه لهم.

وأنزل الله تعالى في الوليد وفي ذلك قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) [الدھر].

سبل الهدى والرشاد: [٢ / ٤٧٢].

إذن.. يا محمد، اصبر على ما يقولونه عنك وسبح بحمد ربك<sup>(١)</sup>،  
والتسبيح هو التنزيه وهو صفة لله قبل أن يخلق من ينزهه، فالله تعالى  
منزه من قبل أن يوجد من ينزهه سبحانه.

---

(١) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الزمل: ١٠]. أى: من الأذى والسب  
والاستهزاء، ولا تنزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم.  
﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أى: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن فى ذلك ترك  
الدعاء إلى الله - وكان هنا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية  
القتال ما كان قبلها من الترك؛ قاله قتادة وغيره.

وقال أبو الدرداء: إنا لنكشر فى وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم.  
تفسير القرطبي [٤٥٨٩].

## الجهاد.. فتنة واختبار

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]

ساعة تسمع ﴿أَمْ﴾ فاعلم أنها حرف إضراب أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم- علم الواقع- من منكم يؤمن إيماناً يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا ما يقابله (١).

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن شرفه الله تعالى وهده لهذا الدين وحمل رسالته.

وساعة يقول الحق عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم. لا؛ فسبحانه يعلم كل شئ أزلاً، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل- والله المثل الأعلى- نجد عميد إحدى الكليات أحياناً يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له الاستاذ الذى يشرف على تحصيل الطلبة: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة، فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شئ أزلاً، ولكن

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه.

فتح التقدير: [٣٦٢/٢]

العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

وكلمة ﴿وَلَمَّا﴾ للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى أنه لم يتحقق  
المجئ حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لا تؤذن بتوقع ثبوت  
مابعدھا، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبداً، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما  
بعدها، أى أن ما بعدها لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد  
ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى أن البستان الذى تملكه لم يثمر بعد،  
ولكنه سيثمر من بعد ذلك.

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ  
تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى الآية: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم، ولكنه سوف يدخل بعد  
ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: ﴿آمَنَّا﴾ فأوضح الحق  
سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو  
الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك،  
أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكن لم تؤمنوا حقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: العلم المراد هنا  
هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو  
لم يختبركم لقلت: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى  
الحرب لصبرنا.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة  
العدو فى القتال، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر  
على الابتلاءات عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علماً واقعاً.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ  
وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾



إذن.. فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيماني واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله تعالى ولا رسوله ﷺ وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة». والمعنى: أن لا يجعل له من دون الله سبحانه ولا من دون رسوله ﷺ بطانة يطلعهم على أمره وسره.

واقراً قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]

أى: يدخل الليل على النهار ويدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشيء الذى يدخل فى شيء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول: «امرأة وليجة» و«رجل وليجة»، و«امرأتان وليجة»، «رجلان وليجة»، و«نساء وليجة»، و«رجال وليجة». كما تقول: «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، و«امرأتان عدل»، و«رجال عدل»، و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء<sup>(١)</sup> التى تدخل على المؤمنين الضعاف،

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَلِيَجَةً﴾ بطانة ومداخلة؛ من الولوج وهو الدخول، ومنه سمي الكائن الذى تلج فيه الوحوش تَوَلَجًا. ولج يلج ولوجًا إذا دخل. والمعنى: دخيلة مودة من دون الله ورسوله. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته فى شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة. وقال ابن زيد: الوليجة الدخيلة، والوُلُجاء الدخلاء؛ فوليجة الرجل من يختص بدخلة أمره دون الناس. تقول: هو وليجتى وهم وليجتى؛ الواحد والجمع فيه سواء. قال أبان بن تغلب رحمه الله:

فبئس الوليجة للهاربين والمعتدين وأهل الرب

وقيل: وليجة بطانة؛ والمعنى واحد؛ نظيره: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] وقال الفراء: وليجة: بطانة من المشركين يتخذونهم ويفشون إليهم أسرارهم ويعلمونهم =

وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علماً واقعياً من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولاً يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

فالممنوع هنا- إذن- أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتدخلوا معه، وهم مأمونون على ما يعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شئ من أسرار المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

أى: إن كنتم تحسبون أنكم تتدخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين، ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خير لا يخفى عليه خافية، فلا تخذعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئاً عن عيون الخلق قد يخفى على الله !! واعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

تفسير القرطبي: [٨٨/٨].

= أمورهم.

وفى الحديث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى». أخرجه البخارى [٧١٩٨]

## التفكير فى الجهاد

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ هنا للحث والترغيب أن ينقسم المؤمنون قسمين : قسمًا يجاهد ، وقسمًا يبقى مع رسول الله ﷺ ؛ ليعلموا ما أنزل الله تعالى من القرآن ويبلغوه إخوانهم إذا رجعوا (١) .

(١) قال الدكتور وهبة الزحيلي فى فريضة الجهاد: إن لم يكن التفكير عامًا: فالجهاد فرض كفاية، ومعناه أنه يفترض على جميع من هو أهل للجهاد، لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين، لقوله عز وجل: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٠] فالله سبحانه وعد الحسنى كلاً من المجاهدين والقاعدين عن الجهاد ، ولو كان الجهاد فرض عين لما وعد القاعدين الحسنى؛ لأن القعود يكون حراماً.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية، ولأن المقصود من الجهاد- وهو الدعوة إلى الإسلام، وإعلاء الدين الحق، ودفع شر الكفرة وقهرهم- يحصل بقيام البعض به، فإذا قاموا به يسقط عن الباقين.

وإن ضعفوا عن مقاومة الكفرة، فعلى من يجاورهم من المسلمين، الأقرب، فالأقرب أن يجاهدوا معهم وأن يمدوهم بالسلاح والمال.

ولا يجوز للمرأة الاشتراك فى الجهاد إلا بإذن زوجها؛ لأن القيام بحقوق الزوجية فرض عين، كما لا يجوز الجهاد للولد بدون إذن أبويه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتاً؛ لأن بر الوالدين فرض عين، فيكون مقدماً على فرض الكفاية.

وأقل الجهاد مرة فى السنة كإحياء الكعبة، ولقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]

قال مجاهد: نزلت فى الجهاد ولفعله ﷺ منذ أمر به .

= فإن كان النفيّر عامّاً: كأن هجم العدو على بلد إسلامي، فالجهاد فرض عين على كل قادر من المسلمين، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] . قيل: نزلت في النفيّر . وقوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] . فإذا عم النفيّر خرجت المرأة بغير إذن زوجها، وجار للولد أن يخرج بدون إذن والديه .  
ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع :

الأول: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] .  
الثاني: إذا نزل الكفار ببلد، تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث: إذا استنفر الإمام قوماً، لزمهم النفيّر معه، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢٨] وللحديث المتفق عليه: «إذا استنفرتم فانفروا»<sup>(١)</sup> .

وهذا الحكم المذكور في فرضية الجهاد باتفاق الفقهاء .

الفقه الإسلامي وأدلته [٤١٦/٦، ٤١٧]

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصابة، يعني السرايا فلا يسيرون إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ ، قالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم، ويعت سرايا أخر، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: يتعلمون ما أنزل الله على نبيه ﷺ ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

الدر المنثور: [٣٢٢/٤، ٣٢٣] .

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أمروا إذا بعث النبي ﷺ سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة فيحفظ المقيمون على الدين خرجوا ما أنزل الله من القرآن ، وما يسن من السنن فإذا رجعوا إلى إخوانهم =

(١) أخرجه البخاري [٢٨٢٥] من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ كَلِمَةٌ ﴾ ﴿ نَفَرَ ﴾ تستخدم دائماً في مسألة الخروج للجهاد، مصداق ذلك قوله جل جلاله : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٢٨] ولكن لماذا تستخدم كلمة النفرة لمعنى الخروج للجهاد ؟ نقول : إن الذي يعوق الإنسان عن الجهاد، حبه لبيته وأهله وماله ووطنه. ولذلك إذا خرج إلى الحرب يكون هذا شيئاً ثقیلاً على نفسه، مصداق ذلك قوله عز وجل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. إذن.. فالخروج للقتال صعب على النفس ، ولكن الذي يرغب فيه هو أنه طاعة لله سبحانه وتعالى، رغبة فيما عنده سبحانه من الثواب الكبير الذي وعد به المجاهد في سبيل الله تعالى، هذا الأمر يجعله ينفر ، ولا يحب البقاء في بيته مع أهله وماله ، بل ينفر من البقاء معهم طمعاً في ثواب الله وجنته ؛ لأن كل ما يغريك أيها المؤمن على عدم الجهاد من متاع الدنيا لا يقارن بما ستحصل عليه من أجر في الآخرة. لذلك فأنت تنفر من كل ما يعوقك ويمنعك من هذا الأجر .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ نلاحظ ذكر الحق تبارك وتعالى لفعل ﴿ نَفَرَ ﴾ في وصف الذين يتفقهون في الدين . هنا قد يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التي تتفقه في الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع الرسول ﷺ في المدينة ؟

ولجيب : إن قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾

= أخبروهم بذلك، وإذا خرج رسول الله ﷺ لم يتخلف عنه أحد إلا بإذن، أو عذر .

تفسير ابن أبي حاتم [١٠١٧].

نجد فيه كلمة ﴿ فِرْقَةٌ ﴾ وهى الجماعة، والجماعة تنقسم إلى طوائف، فنحن نسمى كل مجموعة من الناس فرقة ، هذه الفرقة الأولى ، وهذه الفرقة الثانية، وهذه الفرقة الثالثة، ثم تنقسم الفرقة إلى طوائف: جماعة للدعوة، وجماعة للكشافة، وجماعة للتثقيف، وجماعة للرياضة، هذه كلها اسمها طوائف، والطائفة هى بعض الفرقة. والحق سبحانه وتعالى قسم كل فرقة إلى طائفتين : طائفة ستقاتل ، وطائفة تتفقه فى الدين .

إذن .. قول الحق سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة؛ ليجلسوا إلى الرسول ﷺ، ليسمعوا، ويتفقهوا فى الدين حتى إذا رجع إخوانهم الذين خرجوا فى سبيل الله تعالى يعلمونهم أمور الإيمان وما نزل من القرآن.

وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يُعَلِّم من يأتون إليه؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال .

إذن .. تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتُعَلِّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات وبالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتُعَلِّمها للطائفة التى لم تخرج للقتال .

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ، وقد سماها الحق «نفرة»؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحِيثِيَّات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى عندما يعود هؤلاء القوم من الغزوات ، يخبرهم الذين

لم ينفروا أن رسول الله ﷺ أنزل عليه كذا وكذا .

إذن . . فرقة نفرت وفرقة لم تنفر ، والذين لم ينفروا يأخذون عن رسول الله ﷺ ما نزل من القرآن . على أن الفرقة المجاهدة لم تخرج عن التفقه في الدين ؛ لأنهم عندما يعودون يتحدثون عما جرى في الغزوة ، والمعجزات التي حدثت ، كما حدث في بدر مثلاً كنزول الملائكة للنصرة والتأييد ، وكيف انهزم المشركون وهم كثرة من المؤمنين وهم قلة ، فكان التفقه في الدين للطائفتين ، طائفة تتفقه في علم ما ينزل من القرآن ، وطائفة تتفقه في معجزات الغزوة .

فحين ندقق في هذا الأمر نجد عدة مراحل :

المرحلة الأولى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ .

المرحلة الثانية: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ .

أما الثالثة فهي: ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ .

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

## نقض العهد موجب للقتال

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]

﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ ، أى: لم ينفذوا بنود العهد الذى عاهدوا رسول الله ﷺ عليه، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا عهدهم، ولم يكتفوا بذلك بل ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ، أى: عابوا فى الدين عيباً مقذعاً.

وعندما يقال: إن فلاناً طعن فى فلان، فلا بد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق سبحانه وتعالى إما بقتالهم، وإما أن يعلنوا الإيمان.

وهذا حق للمسلمين؛ لأنهم قدموا من قبل كل ما يؤمن أهل العهد على حياتهم وممتلكاتهم، لكن أئمة الكفر نقضوا عهدهم وخانوا ما اتفقوا عليه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ، أى أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، ويحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا سوى قوم مقهورين على اتباع شئ قد يكونوا غير راغبين فيه؛ ولكن أئمة الكفر من عليه القوم وسادة الناس هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون (١).

(١) قال ابن العربى فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ : فيها مسألتان:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ دليل على أن الطاعن فى الدين كافر، وهو الذى ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف =



وهم كما يوصفون فى العصر الحديث بأنهم مجرمو حرب، والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تُخلَّص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كائمة الكفر، الذين صدوا عن سبيل الله تعالى فى البدء بمكة بتعذيب من يختار رسول الله ودينه؛ حتى القبائل التى كانت تأتى للحج كانوا يحولون بينها وبين الاستماع إلى رسول الله ﷺ وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعد ووعد؛ ثم طغوا وتجبروا والجأوا المؤمنين إلى ترك ديارهم وأموالهم وأهلهم والفرار مرة إلى الحبشة،

= على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه.

المسألة الثانية: إذا طعن الذمى فى الدين انتقض عهده لقوله: ﴿وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ إلى: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فأمر الله بقتلهم وقتالهم إذا طعنوا فى دينكم فإن قيل: إنما أمرنا بقتالهم بشرطين: أحدهما: نكثهم للعهد.

والثانى: طعنهم فى الدين.

قلنا: الطعن فى الدين نكث للعهد؛ بل قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عملوا ما يخالف العهد انتقض عهدهم. فقد روى أن عمر رفع إليه أن ذمياً نخس دابة عليها امرأة مسلمة، فرمحت، فأسقطتها، فأنكشف بعض عورتها، فأمر بصلبه فى الموضع. وقد قال علماؤنا: إذا حارب الذمى نقض عهده. وكان ماله وولده فيئاً. قال محمد ابن مسلمة: ولا يؤخذ ولده؛ لأنه نقض وحده، وقال: أما ماله فيؤخذ. وهذا تعارض لا يشبه منصب محمد؛ لأن عهده هو الذى حمى ولده وماله، فإذا ذهب عنه ذهب عن ولده وماله.

وقال أشهب: إذا نقض الذمى العهد فهو على عهده، ولا يعود الحر فى الرق أبداً. وهذا من العجب، وكأنه رأى العهد معنى محسوساً، وإنما العهد حكم اقتضاه النظر، والتزمه المسلمون، فإذا نقضه انتقض كسائر العقود من البيع والنكاح، فإنها تعقد؛ فترتب عليها الأحكام، فإذا نقضت ونسخت ذهبت تلك الأحكام.

أحكام القرآن: [٩٠٥، ٩٠٦]

وأخرى إلى المدينة ناهيك عمن مات تحت قسوة التعذيب أو أخفى إيمانه خوفاً من بطشهم.

والامر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمي الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ .

وفى فهم هذه الآية يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويُحسبون علينا بقولهم وظواهرهم فيقولون: إن هناك تناقضاً؛ والله يقول: ﴿وإن نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يعنى: أثبت أن لهم أيماناً، ثم يقول: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. فكيف يثبت لهم الايمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لا يجتمعان فى وصف الشخص الواحد!!

ونقول: إنهما لا يجتمعان عند من يأخذ الأمور بظواهرها، ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشيء وإثباته فى القرآن الكريم معناه أن الجهة منفكة. والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ فى غزوة بدر:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]

فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾: إثبات للرمى. فقد جاء نفى الشيء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى: انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال: إن فلاناً

(١) قال الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرئ: «لا إيمان لهم»، أى لا إسلام لهم، أو لا يعطون الامان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه. فإن قلت: كيف أثبت لهم الايمان فى قوله: ﴿وإن نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ ثم نفاها عنهم. قلت: أراد أيمانهم التى أظهروها، ثم قال: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمة الله عليه أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعى رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه أنهم لا يوفون بها بدليل أنه وصفها بالنكث.

الكشاف: [١٤١/٢، ١٤٢]

يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه، إذن فهو فى نفس الوقت: عالٍ عمن تحته، وأسفل ممن فوقه.

أو تقول مثلاً: فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، ولكنه أب لابنه، وابن لأبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما يسمى انفكاك الجهة.

إذن.. لا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله ﷺ وإثباته له؛ لأن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار، هذا ما فعله الرسول ﷺ وهو من البشر<sup>(١)</sup>، لكن الله جلت قدرته أخذ هذا الحصى وأوصله إلى كل جندى من جيش الكفار.

وفى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٦، ٧] يزعم المستشرقون: إن الله نفى العلم عن أناس وأثبت لهم، ونقول: لا؛ إنه نفى عنهم العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً.

إذن.. قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ نَكْثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] أثبت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]

ونخلص من ذلك إلى فائدة مهمة وهى: أن صاحب اليمين أو العهد عليه أن يحافظ على يمينه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه وعهوده لا قيمة لها؛ لأنها مجردة من الوفاء.

(١) روى ابن جرير فى تفسيره [١٥٨٢٧- شاكراً] عن على، عن ابن عباس قال: رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر فقال: يا رب، إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد فى الأرض أبداً! فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب! فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لا حظ لها من الوفاء، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على استذكار دروسه، وتجلس تراقبه فيقلب صفحات الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. فإذا حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئاً، فتقول: ذاكرت وما ذاكرت، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما؛ لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان في آخر الآية معناه أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلا وفاء فلا قيمة لأيمانهم.

وقول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يُقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين وصددهم عن سبيله؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد قُتل، وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للمسلمين، وتنتهى المكابرة والمعاندة.

## أولويات القتال

قال رب العزة سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٧٣]

وهذا يعنى: أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]

إذن. فهناك أولويات فى القتال، وقاتل الكفار القريبين فيه تأمين لمعسكر الإيمان؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مثونة للسفر البعيد، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم، وكيفية تحصيناتهم. فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد؛ فيتفق مع العدو القريب، ويصنع الاثنان حولك كما يقولون بلغة الحرب «كماشة»، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً، من شر العدو الأقرب (١).

(١) قال القرطبي: إنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد، وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام. وقال الحسن: نزلت قبل أن يؤمر النبي ﷺ بقتال المشركين؛ فهى من التدرج الذى كان قبل الإسلام.

وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وقد روى عن ابن عمر أن المراد بذلك الديلم.

وروى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم؟ فقال: بالروم.

وقال الحسن: وهو قتال الديلم والترك والروم.

وقال قتادة: الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى. =

إذن.. فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تعارض بين قول الحق سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾؛ وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك؛ لتضمه إليك، ومتى ضمته إليك نقصت أرضاً من عدوك، وأصبح رائداً فيك، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده؛ فأخذه؛ يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار: اعتبروا أيها الكفار، فأنتم ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم<sup>(١)</sup>، وما ينقص من أرض الكفار يزيد فى أرض المسلمين.

وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة، وجراحة تحفز على القتال، وتعين عليه، فقد تجدد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته، وأحس منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة، ويقال: غِلْظَةً، وَغِلْظَةً، وَغِلْظَةً<sup>(٢)</sup>، والمعروف أنها الشدة، فحين

= قلت: قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار ابن العربى أن يبدأ بالروم قبل الديلم؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه. أحدها: أنهم أهل كتاب، فالحجة عليهم أكثر وأكد. الثانى: أنهم إلينا أقرب، أعنى أهل المدينة.

الثالث: أن بلاد الأنبياء فى بلادهم أكثر، فاستفادها منهم أوجب.

تفسير القرطبى: [٢٩٨، ٢٩٧/٨]

(١) روى الطبرى فى التفسير [١٧٢/١٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿نَاتِي الْأَرْضَ نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض.

(٢) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم: غِلْظٌ يَغْلُظُ غِلْظًا وَغِلْظَةً وَغِلَظَةً: ضد=

تضرب عدوك اضربه بقوة الواثق من النصر، ويجرأة صاحب الحق،  
وبشجاعة المؤمن.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبل الضربة بتحمل وجلد، وهكذا  
نجد أن الغلظة مطلوبة في حالتين اثنتين؛ في حالة الإرسال منك، وفي  
حالة استقبالك منه، فلا يكفي أن تضرب عدوك ضربة قوية، وحين يرد  
لك الضربة تخور وتضعف. إن الحق سبحانه يطلب منك غلظة وأنت  
تحمل على عدوك، وقوة تتحمل بها ضربة عدوك. ولذلك نجد في آية  
آل عمران يقول الحق سبحانه: ﴿اصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

وهنا يثور سؤال: هب أن عدوك صبر أيضاً، فماذا أنت فاعل ؟ هنا  
يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

أى: حاول أن تغلبه في الصبر. وحذر الحق من إلقاء السلاح بعد انتهاء  
المعركة؛ وأمر باليقظة وأخذ وضع الاستعداد الدائم لأن العدو قد ينتهز  
فرصة غفلة المؤمن عن سلاحه فيميل عليه؛ لذلك جاء الأمر من الحق:  
﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] (١)

أى: ظل على استنفارك ويقظتك أيها المؤمن؛ ليعلم العدو أنك تنتظره

= رَقَّ رَقَّةً. واستغلظ: نهياً لأن يكون غليظاً أو صار غليظاً، ويستعار غلظ الأجسام للمعاني  
بمعنى الكبر والكثرة والعنف الشديد، فقله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] أى كبير  
كثير شديد صعب، وقوله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٦١] أى عظيماً كبير  
الشان هو ميثاق الزواج، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]  
أى غير رقيق القلب غير لطيف العشرة. القاموس القويم: [٥٨/٢].

(١) قال النووي فى شرح مسلم: قوله ﷺ: (رباط يوم ليلة خير من صيام شهر وقيامه،  
وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل) هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان  
عمله بعد موته فضيلة مختصة به، لا يشاركه فيها أحد، وقد جاء صريحاً فى غير  
مسلم: «كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة».

النوى على صحيح مسلم: [٧٠ / ٧]

ومستعد لمنازلته إن حاول الكرة من جديد أو حدثته نفسه بالقتال مرة أخرى.

إذن.. فالغلظة تطلب منك أن تهاجم، وتطلب منك أن تتحمل، والتحمل يقتضى صبراً، والهجوم يقتضى شجاعة، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة؛ فعليك أن تصابره أى: تصبر أكثر منه، وهى مأخوذة فى الأصل من «نفس فلان فلاناً.. أى سابقه وحاول أن يسبقه»، والمنافسة من النفس، وفى الذكر الحكيم يقول تعالى:

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]

أى تنافسوا فى الخير، وإذا ما نافست العدو فانت تصطاد الشئ النفيس، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لاجابة لمدة قصيرة ثم يتراجع؛ لأن الباطل زهوق.

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

فإن هذا ينفى الغلظة، وأقول: لنفرق بين أمرين، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال، أما المعاشة والمؤاكلة والملاطفة، فهذه تحتاج إلى لين ورقة.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة، بل تعنى: إن تَطَلَّبَ الأمر ذلك فيجب أن تكون فيك.

ومعلوم أن الله لم يطبع قلب المؤمن على الغلظة، ولم يطبعه على الشدة، وكذلك لم يطبعه عزيزاً على المؤمنين، بل على العكس تماماً، قال سبحانه:

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

وقال سبحانه: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]



وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعدتك؛ وإن كان العدد والعدة أمرين مطلوبين؛ لتدخل المعركة وأنت عندك شيء من الاطمئنان. ومثل ذلك من يسلك مفاوز<sup>(١)</sup> أو صحارى مقفرة<sup>(٢)</sup> أو طريقاً موحشاً، ولذلك تجده يأخذ حذره ويحمل معه سلاحه لعله يصادف قطاع طريق، أو غير ذلك مما يعوق سيره؛ فهذا يعطيه شيئاً من الاطمئنان النفسى فقط، وهكذا الحال مع العدد والعدة للمجاهد.

أما النصر فهو من عند الله سبحانه وتعالى. ومادام الله مع المتقين، فلا بد أن يمدّهم بمدد من عنده، والله جنود لا يعلمها إلا هو سبحانه. وقد يكون المؤمن غليظاً طمعاً فى المغنم، فيدخل على الكافر بالقسوة، لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فإن سلم لك واستسلم، فاستأسره، وإياك أن تؤذيه من أجل أن تأخذ معداته على أنها مغنم، فانت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً لإقامة أمر الله، وتسلك بالخلق الإيماني اللائق فى إطار أنك من المتقين لله، وتقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا<sup>(٣)</sup>.

إذن.. فالغلظة ليست طبع أصيل فى المؤمن، ولكنها عارض يتطلبه موقف. فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة؛ فالأصل فى المؤمن اللين والموادعة.

(١) المفاوز: جمع مفارة، وهى الصحراء المهلكة، وسميت هكذا؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فار. قال ابن شميل: المفارة التى لا ماء فيها.

لسان العرب [٣٩٣/٥] بتصرف.

(٢) مقفرة: القفر، الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلام.

المعجم الوسيط: [٢/٧٥٠].

(٣) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه، قال: قال أعرابى للنبي ﷺ الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

متفق عليه، أخرجه البخارى [٣١٢٦]، ومسلم [١٥٠/١٩٠٤].

ولذلك يُقال: الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة، وفى السلم وداعة، وخيركم من كان فى الجيش كميّاً وفى البيت صبيّاً، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء؛ لأن ذلك وضع للأمر فى غير نصابه.

إذن.. قول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]

أى: كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة، ولكن إياك أن تستعمل القسوة والغلظة لصالحك، ولكن استعملها من أجل نصرة دين الله (١).

(١) قال السيد محمد رشيد رضا فى تأويل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذى نزلت أهم قواعده وأحكامه فى هذه السورة والتى قبلها، وإنما وضعت ههنا على سنة القرآن فى تفريق الموضوع الواحد الكثير الأحكام فى مواضع متفرقة، وبيننا حكمته آنفاً عوداً على بدء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أى الذين يدنون منكم وتتصل ببلادهم ببلادكم؛ وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله: ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الدورى: ٧] وقال لاهل مكة: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١] أى وكل من بلغته دعوته بل أمره أن يخص الأقرب إليه فى النسب من أهل بلده أم القرى فقال: ﴿وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال: كان الذين يلونه من الكفار العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم (١).

وعن قتادة قال: الأدنى فالأدنى.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر: أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ

(١) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٠١٣٩].

= يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال «الروم» اهـ. يعنى أن الروم هم المراد بالكفار فى الآية لأنهم كانوا عند نزولها فى هذه السورة بعد الفراغ من أمر يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم فى تبوك وسائر بلاد الشام. •

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة فى الدعوة والقتال والتنفقات والصدقات، وكذا ما يدار فى المجلس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه فالذى يليه<sup>(١)</sup>. وأمر بأن يأكل الإنسان مما يليه<sup>(٢)</sup>. وإنما تطرد القاعدة فى الحالة العادية. وأما ما يعرض من ضرورة فى كل ذلك فله حكمه فأحكام الضرورات مستثناة فى الواجبات والمحرمات والآداب.

﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى وليجدوا فيكم شدة وخشونة فى القتال ومتعلقاته كما تقدم فى تفسير آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحرية: ٣٣] والغلظة على المقاتلين فى زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة، وتنكيرها فى الآية يدل على أن لأولى الأمر أن يحددها فى كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة، وإنما أمروا بها على كونها طبيعية لتقيدها ما أمروا به فى الأحوال العامة من الرفق والعدل والبر فى معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام، وأمر القتال مبنى على الشدة والغلظة فى كل الأمم، وقد حرم فظائعها الإسلام كما تقدم فى تفسير سورة الأنفال، وقد بلغت فظائعها عند الإفرنج فى هذا العصر ما يخشى أن يفضى إلى تدمير العمران كله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ له فى مراعاة أحكامه وسنته بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه فى الحرب، من التقصير فى أسباب النصر والغلب التى بينها فى كتابه، والتى تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب

(١) عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه رأى رسول الله ﷺ، شرب لبناً وأتى داره فحلبت شاة فشبت لرسول الله ﷺ من البئر فتناول القدح فشرب وعن يساره أبو بكر وعن يمينه أعرابى فأعطى الأعرابى فضله ثم قال: «اليمين فاليمين».

(٢) عن عمر بن أبى سلمة قال: كنت فى حجر رسول الله ﷺ. وكانت يدى تطيش فى الصفحة. فقال لى: «يا غلام! سم الله وكل بيمينك. وكل بما يليك». أخرجه مسلم [١٠/٢٠٢٢]

## الإذن بالقتال

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ [البقرة: ١٩٤].

هذه القضية هي التي تميز الأمة الإسلامية بخصوصية فريدة؛ لأنه سبحانه قد أقام هذه الأمة على منهاج قويم لم تظفر به أمة من قبل، وهذه الخصوصية هي أن الله قد آمن أمة محمد ﷺ على أن تؤدب الخارجين على منهج الله، والصادقين عن سبيله<sup>(١)</sup>، فقدima كان الله سبحانه يؤدب هؤلاء الخارجين على المنهج، بعد أن يكون الرسول قد بلغ المنهج، واجتهد ما وسعه الجهد حتى إذا يأس الرسول، ولم يجد فيهم خيراً، دعا الله عليهم، فيعاقبهم الله تعالى، إما

(١) قال ابن القيم: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة. وأيده الله بنصره، بعباده المؤمنين الانتصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن<sup>(١)</sup> التي كانت بينهم، فَمِنَعْتَهُ أَنْصَارُ اللَّهِ وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه؛ وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح. حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حيثئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

(١) الإحنة: الحقد، وجمعها: «إحن». مختار الصحاح: [١٧].

بصاعة، وإما بعذاب، وإما بفيضان، وإما بأى وسيلة أخرى. ولم يكن الرسل مكلفين بالدفاع عن المنهج ولا مأمورين بالتخلى بين من يريد المنهج، والصاد عنه.

= وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:  
أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثانى: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٢١] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين (١).

الرابع: أنه قد خاطبهم فى آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخطاب بذلك كله مدنى، فاما الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] فم مشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به فى مكة بقوله: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به فى سورة «الحج» فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى فى «مستدرکه» من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ وهى أول آية نزلت فى القتال (٢). وإسناده على شرط الصحيحين. وسياق السورة يدل على أن فيها المكى والمدنى، فإن قصة إلقاء الشيطان فى أمانة الرسول ﷺ مكية، والله أعلم.

(١) أخرج البخاري [٤٧٤٣] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أنه كان يقسم فيها إن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا فى يوم بدر.  
(٢) رواه الحاكم فى المستدرک ٢ / ٦٦ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه بنحوه الترمذى [٣١٧١] وقال: حديث حسن. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٣٥].

= ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً، ثم ماذوناً به، ثم مأموراً به لمن بداهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور.

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[التوبة: ٤١] وعلق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُمْتِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ ظِئَّةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف: ١]. وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يحبون من

النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ [أى: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهى ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وأخبر سبحانه أنه ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وأن

هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهى: التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذى عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم. فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثلث جنت النعيم، والفوز برضاه، والتمتع برويته هناك، والذى جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيئت لك الأمر لو فطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل (١) =

(١) هو آخر بيت من لامية المعجم للطغرائي.

= مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لالمكهما الذى اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض للفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها الفلاسون، ولا كسدت، فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض فى سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمان دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت فى يد ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

لما كثر المدعون للمحبة، طُلبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم، لادعى الخلى حرفة الشجى، فتنوع المدعون فى الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كله، وثبت أتباع الرسول فى أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطلبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ١٠٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، ف﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، وعقد التبائع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبائع على يديه، ومقدار الكتاب الذى أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فراوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمان بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء، ففقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضى واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيك ولا نستقيك، فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للريح عليكم؛ بل ليظهر أثر الجود والكرم فى قبول المعيب، والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن. تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه ﷺ بغيره، ثم وقاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير <sup>(١)</sup>. وكان أبوه قد قُتل مع النبى ﷺ فى وقعة أحد =

(١) أخرج مسلم [١١٣/٧١٥] عن جابر قال: لما أتى على النبى ﷺ، وقد أعيا بعمري، قال: فنخسه فوثب. فكنت بعد ذلك أحبس خطامه لاسمع حديثه، فما أقدر عليه. =

= فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره ﷺ «أن الله أحياء، وكلّمه كفاحاً وقال: يا عبدى، تمن على»<sup>(١)</sup> فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفّق لتكميل العقد، وقبّل المبيع على عيه، وأعاض عليه أجلاً الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وأسمع منادى الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حياً ، فهزّه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به فى طريق سيره، فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار، فقال ﷺ : «انتدب الله لمن خرج فى سبيله - لا يخرج به إلا إيمان بى، وتصديق برسلى - أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة. ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحياء، ثم أقتل، ثم أحياء ثم أقتل»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ : «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ : «غدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها»<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «إما عبد من عبادى خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء مرضاتى، ضمنت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة»<sup>(٥)</sup>.

= فلقنى النبى ﷺ فقال: «يعنيه»، فبعته منه بخمس أواق. قال: قلت: على أن لى ظهره إلى المدينة. قال: «ولك ظهره إلى المدينة». قال: فلما قدمت المدينة أتني به، فزادنى وقيةً، ثم وهب لى.

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه [١٩٠] بلفظ: «ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدى ، تمنّ علىّ أعطك...». وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٥٧].

(٢) أخرجه البخارى [٣٦، ٣١٢٣، ٧٤٥٧، ٧٤٦٣] واللفظ له، والنسائى فى المجتبى [٥٠٢٩، ٥٠٣٠]. وابن ماجه [٢٧٥٣]، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه البخارى [٢٧٨٧] بلفظ: «مثل المجاهد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله - كمثل الصائم القائم. وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة». وأخرجه مسلم [١٨٧٨/١١٠]، والنسائى فى المجتبى [٣١٢٤]، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٤) أخرجه البخارى [٢٧٩٢] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها». وأخرجه مسلم [١٨٨٠/١١٢]..

(٥) رواه النسائى فى المجتبى [٣١٢٦] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بلفظ: «إما عبد من عبادى خرج =



.....  
= وقال ﷺ : «جاهدوا في سبيل الله ، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة يُنَجِّي الله به من الهمِّ والغمِّ» (١).

وقال ﷺ : «أنا زعيم- والزعيم الحميل- لمن آمن بي، وأسلم وهاجر بيت في ربض الجنة، وبيت في وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بي وأسلم، وجاهد في سبيل الله بيت في ربض الجنة، وبيت في وسط الجنة، وبيت في أعلى غرف الجنة، من فعل ذلك، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً يموت حيث شاء أن يموت» (٢).

وقال ﷺ : «من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم، فُوقَ ناقة، وجبت له الجنة» (٣). وقال ﷺ : «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة» (٤).

وقال ﷺ لأبي سعيد: «من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علىّ يا رسول الله، ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

---

= مجاهداً في سبيل الله .. وإن قبضته غفرت له ورحمته . وصححه الألباني في صحيح النسائي [٢٩٢٩].

(١) رواه أحمد في المسند [٣١٤/٥] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه، واللفظ له، والحاكم في المستدرک [٧٥/٢] وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في الجمع [٢٧٥/٥] وقال: رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط أطول من هذا، وأحد أسانيد أحمد وغيره ثقات.

(٢) رواه النسائي في المجتبى [٣١٣٣] عن فضالة بن عبيد رضى الله تعالى عنه، واللفظ له، والحاكم في المستدرک [٧١/٢] وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح النسائي [٢٩٣٦].

(٣) رواه ابن ماجه [٢٧٩٢] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٢٥١]. وهو جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥٤١]، والترمذی [١٦٥٧]، والنسائي في المجتبى [٣١٤١] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٢١٦].

(٤) أخرجه البخارى [٢٧٩٠، ٧٤٢٣] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه.

= قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله »<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ : « من أنفق زوجين في سبيل الله ، دعاه خَزَنَةُ الجنة كل خَزَنَةٍ باب ، أى قُلْ هلم ، فمن كان من أهل الصلاة ، دُعِيَ من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد ، دُعِيَ من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة ، دُعِيَ من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام ، دُعِيَ من باب الريان » ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دُعِيَ من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم وأرجو أن تكون منهم »<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ : « من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله ، فبسبعمائة ، ومن أنفق على نفسه وأهله ، وعاد مريضاً أو أَمَاط الأذى عن طريق ، فالحسنة بعشر أمثالها ، والصوم جُنَّة ما لم يخرقها ، ومن ابتلاه الله في جسده فهو له حطَّة »<sup>(٣)</sup>.  
وقال ﷺ : « من أعان مجاهداً في سبيل الله ، أو غارماً في غُرمه ، أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله »<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ : « من اغبرت قدماء في سبيل الله حرَّمه الله على النار »<sup>(٥)</sup>.  
وقال ﷺ : « لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل واحد ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد »<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه مسلم [١١٦/١٨٨٤] عن أبي سعيد الخدري بلفظ : « يا أبا سعيد ، من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة ». الحديث . ورواه النسائي في المجتبى [٣١٣١] .  
(٢) أخرجه البخاري [١٨٩٧] ، ومسلم [٨٥/١٠٢٧] عن أبي بكر رضى الله تعالى عنه بلفظ : « من أنفق زوجين في سبيل الله ، نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله ، هذا خير . » الحديث .  
(٣) رواه أحمد في المسند [١ / ١٩٥] عن أبي عبيدة بن الجراح بلفظ : « من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة ، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو ماز أذى فالحسنة . » الحديث . وقال الشيخ شاکر [١٦٩٠] : الإسناد في أصله صحيح .

(٤) رواه أحمد في المسند [٤٨٧/٣] ، والطبراني في الكبير [٥٥٩٠/٦] ، والحاكم في المستدرک [٢١٧/٢] وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : بل عمرو رافضى متروك . وذكره الهيثمي في المجمع [٢٨٦/٥] وقال : رواه أحمد والطبراني وفيه عبد الله بن سهل ابن حنيف ولم أعرفه ، وعبد الله بن محمد بن عقيل حديثه حسن .  
(٥) أخرجه البخاري [٩٠٧ ، ٢٨١١] واللفظ له ، والترمذی [١٦٣٢] وقال : حديث حسن غريب صحيح . عن أبي عبيس رضى الله تعالى عنه .

(٦) رواه النسائي في المجتبى [٣١١١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ : « لا يجتمع غبار في »

= وفى لفظ: «فى مَنْخَرَىْ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن ماجه عنه رحمه الله: «من راح روجه فى سبيل الله، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكاً يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وذكر أحمد- رحمه الله- عنه رحمه الله: «ما خالط قلب امرئ رهج فى سبيل الله إلا حرم الله عليه النار»<sup>(٣)</sup>.

وقال رحمه الله: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»<sup>(٤)</sup>.

وقال رحمه الله: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات، جرى عليه عمله الذى كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: «كل ميت يُختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر»<sup>(٦)</sup>.

وقال رحمه الله: «رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»<sup>(٧)</sup>.

= سبيل الله ودخان جهنم فى وجه رجل أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان، فى قلب عبد أبداً» وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩١٤]. ورواه الحاكم فى المستدرک [٧٢ / ٢]، وصححه عنه .

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٥٦ / ٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ: «لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم، ولا يجتمع شح وإيمان فى قلب رجل مسلم». وصححه الشيخ شاکر بقم [٧٤٧٤].

(٢) رواه ابن ماجه [٢٧٧٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٢٣٩].

(٣) رواه أحمد فى المسند [٨٥ / ٦] عن عائشة رضى الله عنها وذكره الهيثمى فى المجمع [٢٧٩ / ٥] وقال: رواه أحمد ورجال أحمد ثقات.

والرَّهَجُ: بفتحتين الغبار. مختار الصحاح [١٤١].

(٤) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٨٩٢] عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه.

(٥) أخرجه مسلم [١٦٣ / ١٩١٣] واللفظ له، والنسائى فى المجتبى [٣١٦٨ / ٣١٦٧] عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه.

(٦) رواه أبو داود [٢٥٠٠] عن عمرو بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «كل ميت يختم على عمله، إلا الرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر». والترمذى [١٦٢١] وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٨٢].

(٧) رواه الترمذى [١٦٦٧] عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائى فى المجتبى [٣١٦٩]. وحسنه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٧١].

= وقال ﷺ: «مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في أهله ستين سنة، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة، جاهدوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فَوَأَقِ نَاقَةَ، وجبت له الجنة» (١).

وقال ﷺ: «حُرِّمَت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحُرِّمَت النار على عين سهرت في سبيل الله» (٢).

وقال ﷺ: «لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه لم يتزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: «قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها» (٣).

وقال ﷺ: «من بلغ بسهم في سبيل الله، فله درجة في الجنة» (٤).

وقال ﷺ: «من رمى بسهم في سبيل الله، فهو عدل محرور، ومن شاب شية في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة» (٥).

وقال ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الاداء، والناكح الذي يريد العفاف» (٦).

- (١) رواه أحمد في المسند [٤٤٦/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه واللفظ له، والترمذي [١٦٥٠] وقال: حديث حسن، والحاكم في المستدرک [٦٨/٢] وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط البخاري. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي [١٣٤٨].
- (٢) رواه النسائي في المجتبى [٣١١٧] عن أبي ربيعة رضي الله تعالى عنه بلفظ: «حُرِّمَت عين على النار سهرت في سبيل الله». وصححه الألباني في صحيح النسائي [٢٩٢٠].
- (٣) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥٠١] عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢١٨٣].
- (٤) جزء من حديث رواه أبو داود [٣٩٦٥] عن أبي نجيع السلمى، والنسائي في المجتبى [٣١٤٣]، وصححه الألباني في صحيح النسائي [٢٩٤٦].
- (٥) رواه النسائي في المجتبى [٣١٤٢] عن عمرو بن عبسة رضي الله تعالى عنه بلفظ: «من شاب شية في سبيل الله تعالى كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله تعالى بلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداء من النار عضواً بعضو» ورواه الترمذي [١٦٣٤] مختصراً عن كعب بن مرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح النسائي [٢٩٤٥].
- (٦) رواه الترمذي [١٦٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه واللفظ له، وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند [٢/٢٥١]، والنسائي في المجتبى [٣١٢٠]، وحسنه الألباني في صحيح النسائي [٣٠١٧]، وصححه الشيخ شاکر برقم [٦٤١٠].

= وقال ﷺ: «من مات، ولم يغز، ولم يُحدثْ به نفسه، مات على شعبة من نفاق»<sup>(١)</sup>. وذكر أبو داود عنه ﷺ: «من لم يغز، أو يُجهِّز غارياً، أو يُخلف غارياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعهم عنهم حتى يُراجعوا دينهم»<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفسر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه الإلقاء باليد إلى التهلكة بترك الجهاد<sup>(٤)</sup>.

وصح عنه ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»<sup>(٥)</sup>.

وصح عنه ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»<sup>(٦)</sup>.

وصح عنه ﷺ: «أن من جاهد يبتغي عرض الدنيا، فلا أجر له»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه مسلم [١٥٨/١٩١٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه واللفظ له، وأبو داود [٢٥٠٢]، والنسائي في المجتبى [٣٠٩٧].

= وكان ﷺ يستحب القتال أول النهار، كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإن لم يقاتل أول النهار، أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح وينزل النصر<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله- إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك»<sup>(٢)</sup>.

وفى الترمذى عنه ﷺ «ليس شئ أحب إلى الله من قطرتين أو اثنتين، قطرة دَمعة من خشية الله، وقطرة دم تهارق فى سبيل الله، وأما الاثران فأتى فى سبيل الله، وأثر فى فريضة من فرائض الله»<sup>(٣)</sup>.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد يموت، له عند الله خير لا يسره أن يرجع إلى الدنيا؛ وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا؛ فيقتل مرة أخرى»<sup>(٤)</sup> وفى لفظ: «فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»<sup>(٥)</sup>. وقال ﷺ لأم حارثة بنت النعمان، وقد قتل ابنها معه يوم بدر، فسأله أين هو؟ قال: «إنه فى الفردوس الأعلى»<sup>(٦)</sup>.

وقال ﷺ: «إن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم =

= له». وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٩٦].

(١) روى أبو داود [٢٦٠٦] عن صخر بن وداعة الغامدى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لأمى فى بكورها» وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٢٧٠].

(٢) أخرجه مسلم [١٨٧٦/١٠٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ: «لا يكلم أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يتعب، اللون لون دم والريح ريح مسك».

(٣) رواه الترمذى [١٦٦٩] عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٣٦٣].

(٤) أخرجه مسلم [١٨٧٧/١٠٨] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها. إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل فى الدنيا لما يرى من فضل الشهادة».

(٥) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٨١٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه.

(٦) أخرجه البخارى [٢٨٠٩] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه بلفظ: «يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»

= اطلاعاً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أى شيء نشتهى؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا؛ حتى نُقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا» (١).

وقال ﷺ: «إن للشهيد عند الله خصلاً: أن يُغفر له من أول دفعة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويحلّى حلية الإيمان، ويُزوّج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها. ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه» (٢) ذكره أحمد وصححه الترمذى.

وقال ﷺ لجابر: «ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟» قال: بلى، قال: «ما كَلَّمَ الله أحداً إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدى تمن على أعطك، قال: يارب تخمينى فأقتل فىك ثانية، قال: إنه سبق منى «أنهم إليها لا يرجعون» قال: يا رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣) [آل عمران: ١٦٩]

وقال ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهّدوا فى الجهاد؛ ولا ينگلّوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ (٤).

(١) أخرجه مسلم [١٨٨٧/١٢١] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه بلفظ: «أرواحهم فى جوف طير خضر». الحديث.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٤ / ١٣١] بلفظ: «إن للشهيد عند الله عز وجل ست خصال: أن يغفر له فى أول دفعة... الحديث. ورواه الترمذى [١٦٦٣]، وابن ماجه [٢٧٩٩] عن المقدام بن معد يكرب رضى الله تعالى عنه، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٢٥٧].

(٣) رواه الترمذى [٣٠١٠] وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه [٢٨٠٠]، عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٢٥٨].

(٤) رواه أحمد فى المسند [١ / ٢٢٦] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما واللفظ له، وصححه الشيخ =

.....  
= وفى «المسند» مرفوعاً: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» (١).

وفى «المستدرک» والنسائى مرفوعاً: «لأن أقتل فى سبيل الله أحب إلى من أن يكون لى أهل المذّر والویر» (٢).

وفيهما: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» (٣).

وفى السنن: «يشفّع الشهيد فى سبعين من أهل بيته» (٤).

وفى المسند: «أفضل الشهداء الذين إن يلقوا فى الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبّطون فى الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد فى الدنيا، فلا حساب عليه» (٥).

وصح عنه ﷺ أنه: «لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً» (٦).

وسئل ﷺ أى الجهاد أفضل؟ فقال: «من جاهد المشركين بماله ونفسه، قيل: فأى القتل أفضل؟ قال: «من أهرق دمه، وعقر جواده فى سبيل الله» (٧).

---

= شاکر برقم [٢٣٨٨] ورواه أبو داود [٢٥٢٠] والحاكم فى المستدرک [٢ / ٢٩٧، ٢٩٨] وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٩٩].

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٦٦/١]، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما. وصححه الشيخ شاکر برقم [٢٣٩٠].

(٢) رواه النسائى فى المجتبى [٣١٥٣] عن ابن أبى عميرة رضى الله تعالى عنه، وحسنه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٥٥].

(٣) رواه الترمذى [١٦٦٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى بلفظ: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة». وقال: حديث حسن صحيح غريب. والنسائى فى المجتبى [٣١٦١]، وابن ماجه [٢٨٠٢]، وقال الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٦٣]: حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود [٢٥٢٢] عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٢٠١].

(٥) رواه أحمد فى المسند [٢٨٧ / ٥] عن نعيم بن همار وإسناده صحيح.

(٦) أخرجه مسلم [١٨٩١ / ١٣٠]، واللفظ له، وأبو داود [٢٤٩٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٧) رواه أبو داود [١٤٤٩]، والنسائى فى المجتبى [٢٥٢٦]، بدون قوله: «فى سبيل الله» عن عبد الله ابن حبشى رضى الله تعالى عنه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٢٨٦].



وحتى حين سأل بنو إسرائيل ربهم أن يقاتلوا، لم يكن قتالهم من أجل الدين وذلك ما نفهمه من قول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ [البقرة: ٢١٦].

لقد كانت علة طلبهم للقتال أنهم أخرجوا من بيوتهم وأجبروا على ترك أولادهم، فهم عندما طلبوا القتال لم يطلبوه للدفاع عن العقيدة؛ وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم.

أما أمة النبي محمد ﷺ فهي التي أمنها الله على أن يكون في يدها الميزان، وليس هذا الميزان ميزان تسلط، وإنما هو ميزان يحمي كرامة الإنسان بأن يصون له حرية اختياره بالعقل الذي خلقه الله، فلا إكراه لأحد في الإيمان بالله.

وقد شرع الله القتال لأمة محمد ﷺ لا ليفرض به ديناً؛ ولكن ليحمي اختيار الإنسان في أن يختار الدين الذي يرتضيه. وهو يمنع سدود الطغيان التي تحول دون هذا الإنسان ودون أن يكون حراً مختاراً في أن يقبل الإيمان أو لا يقبله.

ولذلك فالذين يحاولون أن يلصقوا بالإسلام تهمة أنه انتشر بالسيف نقول لهم: إن حججهم ساقطة واهية، وكذلك قولهم: إن الإسلام عندما فرض الجزية كأنه جاء لجباية الأموال، نقول لهؤلاء: جزية على من؟ جزية على غير المؤمن، وما دام قد فرضت عليه جزية فمعنى ذلك أنه ترك دينه القديم ولم يكره أحدٌ على اعتناق الدين الجديد، ولو كان الإسلام يكرهه

= وصح عنه ﷺ: «أنه لاتزال طائفة من أمته يقاتلون على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»<sup>(١)</sup>.

[زاد المعاد : ٣ / ٦٩ - ٩٥] بتصرف.

(١) أخرجه البخارى [٧٣١١] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه، ومسلم [١٩٢٠ / ١٧٠] عن ثوبان رضى الله عنه بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهو كذلك».

الناس على اعتناقه لما كان هناك من نأخذ منه جزية، وحتى الجزية لم تكن بلا مقابل ، بل كانت مقابل توفير كافة الخدمات والحماية التي يوفرها الدين الجديد لمعتقيه.

إذن.. فالإسلام لم يكره الانسان، وإنما حماه من القوة التي تسيطر عليه حتى لا يكرهه أحد على اختيار ما لا يرغب ، وجعله حراً ، فى أن يُسلم أو لا يُسلم. وكان الذين يتقنون الإسلام يدافعون عنه؛ فسهامهم قد ارتدت إلى صدورهم.

وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت حروب المسلمين؟ نقول: إن حروب المسلمين كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم، وجاء الإسلام ، ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أن يختاروا ما يشاءون.

ولماذا تركهم الإسلام أحراراً؟ لأن الإنسان ما دام على حريته فى أن يختار - خاصة بعد أن يجلى له الأمر - فلا يمكن أن يختار إلا الإسلام؛ لأنه دين الفطرة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وكثير من الناس الذين يقرءون قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، لا يفتنون إلى أن العلة واضحة من قوله سبحانه فى الآية نفسها: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

إذن.. فالمسألة واضحة ، فلماذا نكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون عقائدهم الباطلة على الناس؛ ونبين لهم مطلوب الله منهم ولماذا خلقهم. فمن شاء أن يؤمن فليؤمن، ومن بقى على معتقده القديم فالله تعالى حسيبه. فانت تستطيع أن تكره القلب، لكن لا تستطيع أن تكره القلب.

والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبع الإيمان من القلب؛ ولهذا يقول

لرسوله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ إِنَّ نَاشِئَ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴿ [الشعراء].

إن الله لا يريد أعناقاً خاضعة له، لو كان يريد سبحانه أعناقاً خاضعة له ما استطاع أحد أن يخرج عن أمره سبحانه.

إن الحق سبحانه يريد إيمان قلوب لا رضوخ قوالب. فالذى يجبر الآخرين على الإيمان لن يتبعه أحد، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس. ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر؛ إنهم سيقبلونه عن طوعية واختيار، عندما يتبين لهم أنه الحق من عند ربهم.

وعندما ننظر حولنا نجد أن النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تسقط ولو بعد حين. ورحم الله القائل: دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

والقرآن يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريعه، الأمر الذى اختص به الحق سبحانه أمة الإسلام. وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عاماً، لكنه سبحانه أذن به بعد الهجرة إلى المدينة. وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال؛ لأن الحق سبحانه أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى تثبيت عقيدتهم؛ حتى يكونوا قدوة لغيرهم، ويرى الناس فيهم أسوة حسنة؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْقُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. لماذا كل هذا التدرج؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت، وسيضم البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية؛ لصار فى كل بيت معركة.

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل بها كثير من خفة

وطيش وسفه؛ وكانوا يقتلون لانتفه الأسباب؛ فمن ناقة ضربها كليب  
بسهم فى ضرعها فماتت ؛ اشتعلت الحرب أربعين سنة . وفى ذلك يقول  
الشاعر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا  
أى أنهم لا يسألون أخاهم: لماذا نحارب؟ وإنما يحاربون بلا سبب  
ولأى سبب، فالحمية الرعناء تدفعهم للقتال بلا سبب.

ويعلم الحق سبحانه وتعالى أن نقل أمة العرب مما اعتادته ليس أمراً  
سهلاً؛ لذلك أخذهم بالرفق والهوادة.

والذين يقولون: لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة؟  
ولماذا لم يقاتلوا صناديد الكفر فى مكة؟

نقول لهم: إن كثيراً من الذين كتّم ترون قتالهم فى بداية الدعوة  
الإسلامية هم الذين رفعوا راية الإسلام من بعد ذلك ، ومثال ذلك خالد  
ابن الوليد ، الذى كان قائداً مغواراً فى صفوف المشركين، وقاتل المسلمين  
فى أول حياته ، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول ، ماذا لو  
قتل هذا القائد الفذ على أيد المسلمين ؟ بالطبع كان مثل هذا الفعل  
سيتسبب فى حرمان المسلمين من موهبته ، تلك الموهبة التى أسهمت فى  
معظم الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق.

إذن.. شاء الله تعالى أن يستبقى أمثال خالد بن الوليد وهم خصوم  
للإسلام فى بدء الدعوة؛ لأنه سبحانه قد أعد لهم دوراً يخدمون به  
الإسلام. والذين نالوا من الإسلام أولاً هم الذين ستبقى عندهم الحماسة؛  
حتى يعملوا عملاً يغفر الله لهم به ما قد سبق.

مثال ذلك عكرمة بن أبى جهل، كان شوكة فى ظهر المسلمين فى بداية الدعوة، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً، ولما أصيب فى موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال: أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ﷺ؟ كأنه كان يعلم أن رسول الله ﷺ كان قد غضب عليه قبل أن يُسلم (١).

(١) عكرمة بن أبى جهل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى. وأمه أم مجالد إحدى نساء بنى هلال بن عامر، واسم أبى جهل عمرو، وكنيته أبو الحكم. وإنما رسول الله ﷺ والمسلمون كنّوه أبا جهل، فبقى عليه ونسى اسمه وكنيته، وكنية عكرمة هو عثمان.

أسلم بعد الفتح بقليل، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ فى الجاهلية، ومن أشبه أباه فما ظلم! وكان فارساً مشهوراً، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة هرب منها ولحق باليمن، وكان رسول الله ﷺ لما سار إلى مكة أمر بقتل عكرمة ونفر معه.

ولما أسلم كان المسلمون يقولون: هذا ابن عدو الله أبى جهل افساء ذلك، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ لأصحابه: «لا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحي» ونهاهم أن يقولوا: «عكرمة بن أبى جهل».

اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، فما أحسن هذا الخلق وأعظمه وأشرفه. ولما أسلم عكرمة قال: يا رسول الله، لا ادع مالاً أنفقت عليك إلا أنفقت فى سبيل الله مثله. واستعمله رسول الله ﷺ على صدقات هوازن عام حج.

وله فى قتال أهل الردة أثر عظيم. استعمله أبو بكر رضى الله عنه على جيش، وسيره إلى أهل عمان، وكانوا ارتدوا، فظهر عليهم. ثم وجهه أبو بكر أيضاً إلى اليمن، فلما فرغ من قتال أهل الردة سار إلى الشام مجاهداً أيام أبى بكر مع جيوش المسلمين، فلما عسكروا بالجرف على ميلين من المدينة، خرج أبو بكر يطوف فى معسكرهم، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فأنهى إليه فإذا بخباء عكرمة فسلم عليه أبو بكر، وجزاه خيراً، وعرض عليه المعونة، فقال: لا حاجة لى فيها، معى ألفا دينار. فدعا له بخير، فسار إلى الشام واستشهد بأجنادين. وقيل: يوم اليرموك، وقيل: يوم الصفر. عن أبى عثمان الغسانى - وهو يزيد بن أسيد - عن أبيه قال: قال عكرمة بن أبى جهل يومئذ - يعنى يوم اليرموك - : قاتلت رسول الله ﷺ فى كل موطن، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: مَنْ يياعننى على الموت؟ فبايعه عمه =

وكذلك عمرو بن العاص داهية المسلمين الذى فُتحت مصر على يديه .  
فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله ، وناظرهم بعد ذلك حتى  
استل حقدهم على المسلمين ، وأبان لهم أن رسول الله ﷺ قال موصياً بهم :  
« إذا فتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيراً ؛ فإن لهم ذمة ورحماً » (١) .

إذن . . فمن رحمة الله أنه لم يشرع الأمر بالقتال من البداية ، وإلا لكنا  
فقدنا الكثير من قادة الإسلام العظام ، الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية  
فيما بعد ، وكل إنسان استبقاه الله تعالى وهو خصم للإسلام ، قدّر الله له  
بعد أن يسلم دوراً خدّم به الدين الخاتم .

من هنا نفهم أن الحكمة من تأخير القتال فى الإسلام ؛ هى أن الله أراد  
أن يمحّص ويختبر ، وألا يدخل هذا الدين إلا من يتحمل تبعات هذا  
الدين ، ومشاقه ؛ لأنه سيكون مأموناً على مجد أمة ، وعلى منهج الله ،

---

= الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ،  
فقاتلوا قُدّام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحة وقتلوا إلا ضرار بن الأزور .  
وعن الزهرى : أن عكرمة بن أبى جهل يومئذ - يعنى يوم « فحل » - كان أعظم الناس  
بلاءً ، وأنه كان يركب الاسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقبل له : اتق الله وارفق  
بنفسك . فقال : كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى ، فأبذلها لها ، أفأستبقىها الآن  
عن الله ورسوله ؟ لا والله أبداً قالوا : فلم يزد إلا إقداماً حتى قتل رحمه الله تعالى .  
أسد الغابة [ ٤ / ٦٧ - ٦٩ ] بتصرف .

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [ ١٩ / ١١٢ ، ١١٣ ] عن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله  
تعالى عنهما ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [ ١٠ / ٦٦ ] وقال : رواه الطبرانى  
بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح .

وأخرجه مسلم [ ٢٥٤٣ / ٢٢٧ ] : عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله  
ﷺ « إنكم ستفتحون مصر . وهى أرض يُسمى فيها القيراط . فإذا فتحتموها  
فأحسنوا إلى أهلها ؛ فإن لهم ذمة ورحماً » أو قال : « ذمة وصِهراً . فإذا رأيت رجلين  
يختصمان فيها فى موضع لبنه ، فأخرج منها » قال : فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل  
بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان فى موضع لبنه ، فخرجت منها .

وتلك أمور لا يصلح لها أى واحد من الناس .

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً ينصرونه بأرواحهم وأموالهم؛ لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى أعلى عليين مع النبيين والصديقين، والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وبالتدريج .

لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة بقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام، فجاءوا فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة طالبين العمرة . فلما وصلوا إلى « الحديبية » ، وقفت أمامهم قريش وقالت: « لا يمكن أن يدخل محمد وأصحابه مكة »<sup>(١)</sup> .

ودارت مفاوضات بين الطرفين، تم الاتفاق فيها على أن يرجع الرسول ﷺ هذا العام على أن يأتى فى العام القادم، وتُخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة .

---

(١) عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صَدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية. ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه، ثم يأتى القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله ﷺ فلما كان العام المقبل تجهَّز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تقبَل لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يعنى قريشاً.

أسباب النزول للواحدى [٢٩].

وكان الرسول ﷺ قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلّقين ومقصّرين<sup>(١)</sup>، وشاع ذلك الخبر، وفرح به المسلمون وسعدوا، ثم فوجئوا بمفاجآت رسول الله ﷺ ورجوعه وهو على بُعد نحو عشرين كيلو متراً من مكة. وحزن الصحابة حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه: أليس برسول؟! ألسنا بالمسلمين؟! فرد عليه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قائلاً: يا عمر، إنه لرسول الله فاستمسك بغرزه<sup>(٢)</sup>.

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفاً لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، وهو موقف يعبر عن الحنان والرحمة والمشورة اللينة الهينة ورجحان العقل. فحينما دخل عليها رسول الله ﷺ ذكر لها أن المسلمين لم يسمعوا لأمره لهم بأن ينحروا ويحلّقوا.

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموماً، هنا تتجلى

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

(٢) قال ابن هشام: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى أبا بكر رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه؛ فإنى أشهد أنه رسول الله ﷺ. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنت برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعننى» قال: فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً.

السيرة النبوية: [٣/ ٣١٩]



وظيفتها فى السكن، قالت أم سلمة: اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلق شعرك، فإن رأوك فعلت، علموا أن ذلك عزيمة وسيتبعونك (١).

(١) عن المسور بن مخرمة ومروان- يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالوا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد ابن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات بالغميم» (١). فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش (٢)، فانطلق يركض نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلّ حلّ. فألحّت (٣). فقالوا خلأت القصواء (٤). فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألوننى خطّة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم رجّرها فوثبت». قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمّد قليل الماء (٥). يتبرّضه الناس تبرّضاً (٦) فلم يلبّثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يعجش (٧) بالرّى حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة- وكانوا عيّنة نصح (٨) رسول الله ﷺ من أهل تُهامة -فقال: «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العود المطافيل» (٩)، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا مُعتمرين، وإن =

(١) الغميم: موضع بالحجاز. لسان العرب: [٤٤٤/١٢]

(٢) القترة: الغبار. مختار الصحاح: [٢٦٩]

(٣) ألحّت الناقة وألحّ الجمل: إذا لزما مكانهما فلم يبرحا. لسان العرب: [٥٧٧/٢]

(٤) القصواء: اسم ناقة رسول الله ﷺ

(٥) الثّمّد- يسكون الميم وفتحها-: الماء القليل الذى لا مادة له. مختار الصحاح: [٥٣]

(٦) يتبرّضه الناس تبرّضاً أى: يأخذونه قليلاً قليلاً. لسان العرب: [١١٧/٧]

(٧) جاش الماء: تدفق وجرى. المعجم الوسيط: [١٥٠/١]

(٨) عيّنة الرجل: موضع سره. لسان العرب: [٦٣٤/١]

(٩) «ومعهم العود المطافيل»: يريد النساء والصبيان. لسان العرب: [٥٠٠/٣]

= قريشاً قد نهكتهم الحرب <sup>(١)</sup> وأضررت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلُّوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا. وإلا فقد جموا. وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لا قاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى <sup>(٢)</sup>، وليُنفذن الله أمره. فقال بُدِيل: سأبلغهم ما تقول. قال فانطلق حتى أتى قريشاً قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرونا عنه بشيء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبى ﷺ. فقام عروة ابن مسعود فقال: أى قوم، أستم بالوالد <sup>(٣)</sup>؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنى استنشرت أهل عكاظ <sup>(٤)</sup>، فلما بلَّحوا <sup>(٥)</sup> على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطَّة رشداً، اقبلوها ودعونى آتة. قالوا: آتة. فاتاه، فجعل يكلم النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال: عروة عند ذلك: أى محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإنى والله لا أرى وجوهاً، وإنى لأرى أشواباً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: أمصص بظُر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده، لولا يد كانت لك عندى لم أجرك بها لاجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة يديه إلى لحية رسول الله ﷺ، ضرب يده بنعل السيف وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألسنت أسعى فى غدرتك؟ وكان المغيرة قد صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم. فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل =

(١) أى: جهدتهم وغلبتهم. المعجم الوسيط: [٢/٩٥٩].

(٢) السالفة: ناحية مُقدِّم المتق من لدن مُعلَق القرط إلى قُلَّت الترقوة. مختار الصحاح: [١٦٥].

(٣) أراد بقوله: «أستم بالوالد» أنكم حتى قد ولدونى فى الجملة؛ لكون أُمى منكم.

(٤) أى دعوتهم إلى نصركم.

(٥) المبالح: المنتع الغالب. لسان العرب: [٢/٤١٤].

= وأما المال فلست منه فى شىء. ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب النبى ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفَضُوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفَضُوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خُطَّةٌ رشد فاقبلوها. فقال رجل من بنى كنانة: دعونى آتته، فقالوا: آتته. فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يُلبُّون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ فما أرى أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعونى آتته. فقالوا: آتته، فلما أشرف عليهم، قال النبى ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل ابن عمرو. قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: «قد سهَّلَ لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدرى ما هى، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمنى، اكتب: محمد بن عبد الله» - قال الزهرى: وذلك لقوله: «لا يسألونى خُطَّةٌ يعظمون فيها حرَمَاتِ الله إلا أعطيتهم إياها» - فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا =

= ضُفْطَة<sup>(١)</sup>، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد، أول من أقاضيك عليه أن ترده إلى.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «فأجزه لي»<sup>(٢)</sup>، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل. قال مكرراً: بل قد أجزنا لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أردت إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: أأست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: أأستنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنتطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنا تأتية العام؟» قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومطوف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: أأستنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتية العام؟ قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومطوف به». قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فأنحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بطنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بطنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

الحديث بطوله أخرجه البخارى [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

(١) أى: قهراً.

(٢) أى: امض لى فعلى فيه، فلا أردك إليك، أو استنه من القضية.

وأخذ رسول الله ﷺ بنصيحة أم سلمة، وصنع ما أمره به الله، وتبعه كل المسلمين، وانتهت المسألة. وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ الله أن يطيل على الذين انتقدوا الموقف حتى لا يظل الشرخ في نفوس المؤمنين، وتلك عملية نفسية شاقة؛ لذلك لم يطل الله عليهم السبب، وجاء بالعلة قائلاً لهم: لا تحزنوا وقد رجعتم إلى المدينة دون أن تدخلوا مكة على الرغم من أنه كان بينكم وبينها مسافة قصيرة، وكنتم قد هيأتم أنفسكم للطواف والصلاة في بيت الله الحرام؛ فإن لكم إخواناً مؤمنين في مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسون بين الكفار، فلو أنكم دخلتم، وقاتلوكم، ستقاتلون الجميع مؤمنين وكافرين، فتقتلون إخواناً لكم، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزين في جانب من مكة؛ لأذنت لكم بقتال المشركين؛ كما تريدون. وذلك قول الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٥].

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة ولحكمة، فلما جاءوا في العام التالي قال الله تعالى لهم: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكان الحق يطمئنهم، فالذين صدوكم في ذى القعدة من ذلك العام ستقابلونهم وستدخلون في ذى القعدة من العام القادم. وخاف المسلمون إن جاءوا في العام المقبل أن تنقض قریش العهد وتقاتلهم، فنزل قول الحق تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، فلا بد أن تكون نية جهاد الرسول ﷺ

القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان. فلا قتال من أجل الجاه، أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، أو لاستغلال ثروات واحتلال أراضٍ كما يحدث في الحروب الاستعمارية وإنما في الإسلام القتال لإعلاء كلمة الله تعالى؛ ونصرة دينه سبحانه؛ وضمان حرية اختيار الناس لعقيدتهم هذا هو الغرض من القتال في الإسلام (١).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ : الحق سبحانه ينهى عن الاعتداء، أى لا يقاتل المسلم من لم يقاتله، ولا يعتدى على من لم يعتد عليه. وهب أن قريشاً هي التي قاتلت، ولكن أناساً كالنساء والصبيان والعجزة لم يقاتلوا المسلمين مع أنهم في جانب من قاتل؛ هؤلاء نهى الله تعالى عن قتالهم (٢).

(١) عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد . فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت . ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار... الحديث .

جزء من حديث أخرجه مسلم [١٩٠٥/١٥٢].  
(٢) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : « وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازى رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان .

أخرجه البخارى [٣٠١٥]، ومسلم [١٧٤٤/٢٥].  
وعن أسامة بن زيد. قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فصباحنا الحرقات من جهينة. فأدركت رجلاً. فقال: لا إله إلا الله. فطعته فوقع فى نفسى من ذلك. فذكرته للنبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا». فما زال يكررها على حتى ثمنت أنى أسلمت يومئذ. قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين يعنى أسامة. قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة. وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة.

أخرجه مسلم [١٥٨/٩٦]. =

= عن صفوان بن محرز أنه حدث؛ أن جندب بن عبد الله البجلي بعث إلى عسعر بن سلامة، رمن فتنة ابن الزبير، فقال: اجمع لى نفرأ من إخوانك حتى أحدثهم. فبعث رسولا إليهم. فلما اجتمعوا جاء جندب وعليه بُرُئُص أصفر. فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون به. حتى دار الحديث فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه. فقال: إني أتيتكم ولا أريد أن أخبركم عن نبيكم. إن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له قتلته، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته. قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ. فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه، فسأله فقال: «لَمْ قُتِلْتَهُ؟» قال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفرأ، وإنى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أُقِلْتَهُ؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله -، استغفر لى قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟». أخرجه مسلم [٩٧/ ١٦٠].

وقال القرطبى فى قتل النساء والصبيان ومن شابهم: وللعلماء فيهم صور ست:  
الاولى: النساء: إن قاتلن قُتلن؛ قال سحنون: فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله:  
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾  
وللمرأة آثار عظيمة فى القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرآت بالفرار، وذلك يبيح قتلهن؛ غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع؛ لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن، وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.  
الثانية: الصبيان: فلا يقتلون للنهى الثابت عن قتل الذرية، ولأنه لا تكليف عليهم، فإن قاتل الصبى قُتل.

الثالثة: الرهبان: لا يقتلون ولا يُسْتَرْقُونَ، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد: «وستجد أقواماً رعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما رعموا أنهم حبسوا أنفسهم له»<sup>(١)</sup> فإن كانوا مع =

(١) روى مالك فى الموطأ، كتاب الجهاد [٢١]، باب: النهى عن قتل النساء والولدان فى الغزو [٣] عن =

.....

= الكفار في الكنائس قتلوا. ولو ترهبت المرأة فروى أشهب أنها لا تهاج<sup>(١)</sup>.  
وقال سحنون: لا يغيرُ الترهّب حكمها. قال القاضي أبو بكر بن العربي: والصحيح  
عندي رواية أشهب؛ لأنها داخلة تحت قوله: «فذرهم وما حبسوا أنفسهم له».  
الرابعة: الزمّنى: قال سحنون: يقتلون. وقال ابن حبيب: لا يقتلون. والصحيح أن  
تعتبر أحوالهم؛ فإن كانت فيهم إذابة قُتلوا، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزّمانة  
وصاروا مالا على حالهم وحشوة.

الخامسة: الشيوخ: قال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون، والذي عليه جمهور الفقهاء:  
إن كان شيخاً كبيراً هَرِمًا لا يطيق القتال، ولا يتنفع به في رأى ولا مدافعة فإنه  
لا يقتل؛ وبه قال مالك وأبو حنيفة. وللشافعي قولان:  
أحدهما: مثل قول الجماعة.

والثاني: يقتل هو والراهب. والصحيح الأول، لقول أبي بكر ليزيد، ولا  
مخالف له ثبت أنه إجماع. وأيضاً فإنه ممن لا يُقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز  
قتله كالمرأة، وأما إن كان ممن تخشى مضرتة بالحرب أو الرأى أو المال، فهذا إذا  
أسرَ يكون الإمام فيه مخيراً بين خمسة أشياء: القتل، أو المن، أو الفداء، أو  
الاسترقاق، أو عقد الذمة على أداء الجزية.

السادسة: العسفاء: وهم الأجراء والفلاحون؛ فقال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون.  
وقال الشافعي: يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا  
الجزية. والأول أصح، لقوله عليه السلام في حديث رباح بن الربيع: «الحق  
بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً»<sup>(٢)</sup>.  
=

= يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يمشى مع يزيد بن أبى سفيان -  
وكان أمير رُبْع من تلك الأرباع- فزعموا أن يزيد قال لأبى بكر: إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال  
أبو بكر: ما أنت بنارل وما أنا براكب، إني أحسب خطاى هذه في سبيل الله، ثم قال له: «إنك  
ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له»، إلى أن  
قال: «وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً، ولا كبيراً هَرِمًا.. إلخ.

(١) لا تهاج: أى لا تزعج ولا تنفر.

(٢) روى أبو داود [٢٦٦٩] عن رباح بن ربيع، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فرأى الناس  
مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: «انظر علامَ اجتمع هؤلاء» فجاء فقال: على امرأة قتيل، =



= وقال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا يتصبون لكم الحرب، وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حرّاً ثأراً؛ ذكره ابن المنذر.

تفسير القرطبي: [٣٤٨/٢، ٣٤٩].

وقال الشيباني: ما يحل للمسلمين أن يفعلوه بالعدو وما لا يحل :

لا بأس بتحريق حصونهم وتغريقها ما داموا ممتنعين فيها، سواء كان فيها قوم من المسلمين أسراء أو مستأمنين أو لم يكونوا، والأولى لهم إذا كانوا يتمكنون من الظفر بهم بوجه آخر ألا يُقدموا على التغريق والتحريق؛ لأن في ذلك إتلاف من فيها من المسلمين إن كانوا وإن لم يكونوا، ففي ذلك إتلاف أطفالهم ونسائهم، وذلك حرام شرعاً، فلا يجوز المصير إليه إلا عند تحقيق الضرورة، والضرورة فيه ألا يكون لهم طريق آخر يتمكنون من الظفر بهم بذلك الطريق، أو يلحقهم في الطريق الآخر حرج عظيم ومثونة شديدة، فحيث لدفع هذه المثونة يباح لهم التحريق، ومن ضرورة ثبوت الإباحة مطلقاً مع العلم بالحال ألا يلزمهم دية ولا كفارة؛ لأن وجوب ذلك باعتبار قتل محظور، وهذا قتال مأمور به فلا يكون موجباً دية ولا كفارة.

والسفينة في ذلك كله بمنزلة الحصن في جميع ما ذكرنا، وكذلك إن تترسوا بأطفال المسلمين أو منهم، وفي الوجوه كلها ينبغي لهم أن يقصدوا بفعلهم المشركين من المقاتلين دون غيرهم. لأنهم لو قدروا على التحرز عن إصابة الأطفال فعلاً، كان عليهم التحرز عن ذلك، فإذا عجزوا عن ذلك وقدروا على التحرز قصداً، كان عليهم ذلك، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فإن اختلف الرامي وولى المقتول بالرمية من المسلمين، فقال الولي : أقصدته بعد ما علمت أنه مكره من جهتهم في الوقوف في الصف ، وقال الرامي : إنما تعمدت المشركين بالرمي، فالقول فيه قول الرامي مع يمينه؛ لأن الرمي إلى صف المشركين مباح له، وذلك غير موجب الضمان عليه باعتبار الأصل، فيجب التمسك بذلك الأصل حتى يقوم الدليل بخلافه.

ثم الولي يدعى على الرامي سبب وجوب الضمان، وهو تعمد إياه بالرمي مع العلم بالحال ، وهو منكر ، فكان القول قول المنكر مع يمينه . ولأن الظاهر شاهد للرامي، =

= فقال: «ما كانت هذه لتقاتل» قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فيعت رجلاً فقال: «قل لخالد: لا يقتل امرأة ولا عسيفاً» . وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢٣٢٤]: حسن صحيح.

= والمسلم لا يتعمد الرمي إلى المسلم.

ومطلق فعل المسلم محمول على ما يحل شرعاً؛ لأن دينه وعقله يحمله على ذلك، ويمتنعه عن ارتكاب ما لا يحل؛ فلهذا جعلنا القول قول الرامي في ذلك. إلا أنه يحلفه؛ لأن الولي يدعى عليه ما لو أقرّ به ألزمه، فإذا أنكر استُحلف لرجاء نكوله.

فإذا سبى المسلمون المرأة مع ولدها الصغير فلم يقدروا على حملها، فقد بينا أنه لا يحل لهم أن يقتلوهما؛ لأن قتل النساء والولدان حرام بالنص. ولكن يتركونهما في مضیعة؛ لأن في تركهما في مضیعة امتناع من الإحسان إليهما بالنقل إلى موضع الأمن، والامتناع من الإحسان لا يكون إساءة.

وإذا كان معهما أب الصبي فلا بأس بأن يقتلوه؛ لأنه أسير مباح الدم. ولو امتنع قتله؛ لما فيه من ضياعهما لامتنع قتال المشركين أصلاً؛ لأنه لا يقتل أحد منهم في الحرب إلا وفيه توهم ضياع عياله.

فإن قدروا على أن يحملوا المرأة دون الصبي، وعلموا أن الصبي يموت إذا فرقوا بينهما، أو كان ذلك أكبر ظنهم، فلا بأس بأن يفعلوا ذلك؛ لأنهم لو تركوهما كان فيه ضياع الصبي أيضاً. ولأن تضييع أحدهما دون الآخر فهو خير من تضييعهما، ولأنهم يحملون المرأة دون الصبي يقصدون منفعة أنفسهم في استرقاقها، وذلك حق مستحق للمسلمين.

ولا بأس بالتفريق بين الوالدة وولدها بسبب حق مستحق، إلا أنه ينبغي لهم ألا يرموا بالصبي عن خيولهم رمياً، ولكن يضعونه على الأرض وضعاً. لأنهم إذا رموا به كان هالكاً بفعلهم، وذلك بمنزلة القتل منهم له، وإذا وضعوه لم يكونوا قاتلين له. ألا ترى أن من وجد لقيطاً فرفعه ثم وضعه في مكانه لم يكن عليه في ذلك شيء، ولو رمى فتلّف كان ضامناً ببدل نفسه، فهذا تبين الفرق بين الوضع والتترك في موضع يعلم أنه يهلك فيه.

وكذلك إن كانوا يقدرون على حمل الصبي ولا يقدرون على حمل أمه، فلا بأس بأن يحملوه ويتركوها، إذا كانوا يطعمون في إخراجهم صحيحاً، بأن كانوا يقدرون على غداء يغذونه به إذا فرقوا بينه وبين أمه، فإن كانوا لا يقدرون على ذلك، ولكنهم يتيقنون بأنه يموت في أيديهم إذا حملوه دون أمه، فالأولى أن يتركوه مع أمه؛ لأن هذا تفريق غير مفيد، ولأنهم إذا تركوه مع أمه لا يكون هلاك الولد مضاعفاً إلى فعلهم =

.....  
= تسيباً ولا مباشرة ، وإذا حملوه دون أمه كان هلاك الولد مضاعفاً إلى فعلهم تسيباً من حيث التفريق بينه وبين ما يتغذى به من لبن أمه .

وإن كانوا يقدرون على حمل أحدهما أيهما شاءوا، فينبغي أن يحملوا ما يكون منفعتهم فيه أكثر؛ لأن باعتبار المنفعة يباح أصل الحمل في أحدهما دون الآخر، فزيادة المعنى في المنفعة يقع الترجيح أيضاً.

وإن كانت المنفعة واحدة ، فإن لم يطمعوا في أن يعيش الصبي إذا فصل من أمه، فينبغي أن يحملوا الأم دون الصبي؛ لأنه لا منفعة في حمل الصبي الآن.

وإن كانوا طمعوا أن يعيش الصبي معهم بما يغذونه به ، فالأولى أن يُحمل الصبي ويتركوا الأم؛ لأن خوف الضياع والعجز عن الإحسان لنفسه في حق الصبي أظهر ولأن الأم كافرة مخاطبة، فالامتناع من الإحسان إليها عند إصرارها على الكفر يكون أولى من الامتناع من الإحسان إلى الرضيع.

وإن قدروا على حملهما فليست أحب لهم أن يتركوا واحداً منهما؛ لما فيه من ترك إيصال المنفعة إلى المسلمين مع التمكن من ذلك، ولما فيه من التفريق بين الوالدة وولدها. وقال ﷺ : « من فرق بين والدته وولدها ؛ فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » (١).

ولأنهم نقلوهما إلى هذا المكان وفي ترك أحدهما في هذا المكان تضييع له، فلا يجوز الإقدام عليه إلا عند العجز عن حملهما.

وبه فارق ما لو وجدوهما في هذا الموضع، فإن هناك لا بأس بأن يأخذوا أحدهما أيهما شاءوا؛ لأنهم ما نقلوهما إلى هذا الموضع، ولهم أن يتركوهما في هذا الموضع مع القدرة على حملهما، فيكون لهم أيضاً أن يتركوا أحدهما ويأخذوا الآخر؛ لأنه تفريق بحق.

وهذا إذا طمعوا أن يعيش الصبي في أيديهم بما يغذونه به إذا أخذه، فإذا لم يطمعوا في ذلك فلا ينبغي لهم إلا أن يأخذوهما إن قدروا على ذلك أو يتركوهما؛ لأن في أخذ الصبي وحده تفريق غير مفيد.

وإن لم يقدروا على أحدهما فليأخذوا الأبين ؛ لأن فيه منفعة لهم . ولا بأس بأن يأخذوها وإن كان أكبر الرأي منهم أن الصبي يموت؛ لأنهم بأخذ الأم يقصدون تحصيل =

---

(١) رواه الترمذی [١٢٨٣، ١٥٦٦] عن أبي أيوب وحسنه الألبانی فی صحيح الترمذی [١٠٣٢، ١٢٧١].

.....  
= المتفعة لهم ، وأخذها ليس يقتل منهم للصبي بعينه .

وكذلك لو وجدوا مع الصبي أباه فلا بأس بأن يقتلوه أو يأسروه ، وإن كانوا يعلمون أن الصبي يموت بعده . لأن هذا ليس بتعرض منهم للصبي بشيء .  
وكذلك إن كان مع الصبي والداه فلا بأس بأن يوضع الصبي ناحية ويؤخذ أبواه فيؤسران .

ألا ترى أنه لا بأس بتحريق حصونهم وتغريقها ، وإن كان فيه هلاك الأطفال ؛ فلأن يجوز قتل المشرك وأسرره وإن كان فيه هلاك الصغير كان أولى ، إلا أنه ينبغي لهم ألا يرموا بالصبي ، ولكنهم يضعونه في موضع من الأرض إن تمكنوا من ذلك .

فإن لم يتمكنوا بأن كان المشركون في أثرهم فخافوا أن يتزلوا فيضعوه على الأرض ، أن يلحقهم المشركون ، فلا بأس بأن يرموا به عن خيولهم ولا يتعمدوا قتله ؛ لأن أمر أنفسهم أهم ، والتحرز عن وقوعهم في أيدي المشركين واجب عليهم بحسب الإمكان ، فكان حالهم الآن فيما ابتلوا به ، كحال تترس المشركين بالأطفال ، وقد بينا أن هناك لا بأس بالرمي إليهم ، بشرط ألا يتعمدوا قتل الصبيان ، فهذا هنا أيضاً لا بأس يرمى الصبيان عن دوابهم إذا عجزوا عن حملهم وعن وضعهم على الأرض .

فإن قتلهم رميهم لهم فلا شيء عليهم من الكفارة ، ولا إثم إن شاء الله تعالى ؛ لأنهم فعلوا ما أمروا به ، ولكنه قيد بالاستثناء ها هنا ، وهذا ليس في معنى التترس من كل وجه ، فهناك لم يتصل منهم فعل بالأطفال قبل أن تترس بهم المشركون ، وفي هذا الموضع قد اتصل منهم فعل بالأطفال قبل أن يتلوا برميهم ، وهو حملهم ونقلهم من موضع إلى موضع ؛ فلهذا قيد الجواب بالاستثناء .

وكذلك إن كانوا في سفينة ومعهم فيها أطفال من أطفال المشركين ، فانتهوا إلى مكان من البحر أكبر الظن منه إن لم يطرحوهم في الماء غرقت السفينة ومن فيها ، فلا بأس بأن يطرحوهم ولا يتعمدوا بذلك قتلهم ؛ لأنه تعين عليهم هذا الوجه لنجاتهم عما ابتلوا به ، فكانوا في سعة من الإقدام عليه .

ولو كان معهم أطفال المسلمين في الفصيلين ، والمسألة بحالها ، فليس ينبغي لهم أن يطرحوهم ولا أن يرموا بهم ؛ لأن حرمة أطفال المسلمين كحرمة الكبار منهم .

وقد بينا أن المسلم لا يحل له أن يقي روحه بروح من هو مثله في الحرمة ، كما لو أكره بوعيد القتل على أن يقتل مسلماً . ولأنهم يتعجلون في هذا قتل المسلمين =

= والمسلمات، ولا رخصة فى ذلك لمن يخاف الهلاك على نفسه.  
 ألا ترى أنه لو ابتلى بمخمصة لم يحل له أن يتناول أحدًا من أطفال المسلمين ؛ لدفع  
 الهلاك عن نفسه.

ولو كان معهم فى سفينة قوم من أهل الذمة أو من أهل الحوب مستأمنين، فهم فى  
 ذلك كالمسلمين لا يسعهم أن يطرحوهم فى الماء وإن خافوا على أنفسهم؛ لأنهم آمنون  
 فيهم بسبب الذمة أو الأمان، فكانوا كالآمنين بسبب الإيمان.

وحقيقة المعنى: فى الفرق بين هؤلاء وبين أطفال أهل الحرب أنهم منعوا من قتل  
 هؤلاء؛ لوجود عاصم منهم.

ألا ترى أنهم لا يسترقونهم كما لا يقتلونهم، وفى حق الأطفال المنع من القتل ليس  
 بعاصم فيه، بل لانعدام العلة الموجبة للقتل وهى المحاربة، ولهذا جاز استرقاقهم، مع  
 أن فى الاسترقاق إتلافًا من طريق الحكم، فلضعف حالهم قلنا: عند تحقق الضرورة  
 يرخص له فى أن يجعلهم وقاية لنفسه.

وعلى هذا لو هدد ملكهم أسيرًا من المسلمين بأن يقتل صبيًا منهم أو امرأة وقال: إن لم  
 تقتله قتلناك، كان فى سعة من أن يقتله.

وفى سعة من أن يمتنع منه حتى يقتل فى دار الحرب، ولا يثبت من ذلك من الترخص  
 له إذا أكره على قتل مسلم أو ذمى.

ولو أن جريدة خيل من المسلمين أصابوا فى دار الحرب أطفالاً من أطفال المسلمين  
 فحملوهم على خيولهم، ثم لحقهم العدو فإنه لا يسعهم أن يرموا بالأطفال، ولكن إما  
 أن يموتوا عن آخرهم أو ينقلبوا هم والأطفال للمساواة بينهم فى الحرمة والعصمة،  
 وهذه المساواة إنما تتحقق بعد ما أخذوهم والتزموا حملهم إلى دار الإسلام، وإن كانوا  
 لم يأخذوهم بعد وخافوا إن يأخذوهم أن يعجزوا عن حملهم وأن يدركهم المشركون،  
 فلا بأس بأن يتركهم؛ لأن فى هذا منهم ترك الإحسان إلى الأطفال لا الإساءة إليهم.  
 ولأنهم يمتنعون من التزام ما لا يقدرّون على الوفاء به إذا التزموه، فإن قاتلوا عنهم حتى  
 يقتلوا أو يظفروا بالعدو فيخرجوهم فذلك أفضل؛ لأن الدفع عن أطفال المسلمين  
 عزيمة، وترك ذلك عند الضرورة رخصة، والتمسك بالعزيمة خير من الترخص  
 بالرخصة.

وإن كان أكبر الرأى منهم أنهم يقوون على المشركين حتى يأخذوا منهم الأطفال ؛ لم =

.....  
= يسعهم تركهم؛ لأن الدفع عن أطفال المسلمين بحسب الإمكان هو العزيمة، وعند  
التفكير العام يفرض الخروج للقتال على كل من يقدر عليه عيّنًا للدفع عن أطفال  
المسلمين، فكذلك في هذا الموضع.

والحاصل أنهم إذا كانوا يطمعون في أن ينجوا مع أطفال المسلمين إذا قاتلوا، لم  
يسعهم إلا ذلك، وإن كانوا لا يطمعون في ذلك فحيثنذ يرخص لهم في البداية  
بأنفسهم في اكتساب سبب النجاة، عملاً بظاهر قوله ﷺ : «ابدأ بنفسك ثم بمن  
تعول»<sup>(١)</sup>. وعلى هذا لو ابتلوا بهذه الحادثة في أطفال من المشركين حملوهم بدون  
الآباء والأمهات حتى أخرجوهم إلى دار الإسلام ثم أدركهم المشركون؛ لأن هؤلاء  
الأطفال صاروا مسلمين باعتبار دار الإسلام، حين لم يكن معهم فيها أحد من آبائهم  
وأمهاتهم.

ألا ترى أن من مات منهم يُصلى عليه فكانوا بمنزلة أطفال المسلمين في ذلك.  
ولو كان أكبر الرأي من المسلمين أنهم إن رموا بهم لم يهلكوا، ولكن المشركين  
يأخذونهم فيردونهم إلى بلادهم، فلا بأس بأن يطرحوهم، إذا لم يكن بهم قوة على  
أولئك المشركين؛ لأنه ليس في هذا هلاك ولا قتل للأطفال، وإنما الممنوع منه أن  
يجعل روح من هو مثله في الحرمة وقاية لروحه.

وكذلك لو كان معهم أطفال المسلمين، أو نساءٌ مسلمات، فخافوا إن لم يطرحوهم  
أن يلحقهم المشركون فيقتلوهم، ولم يكن لهم قوة على المشركين، فلا بأس بأن  
يطرحوهم إذا علموا أن المشركين يأخذونهم ولا يقتلونهم؛ لأنه ليس في هذا قتل  
ولا هلاك. ألا ترى أنهم لو حاصروا حصناً من حصون المسلمين، فيه النساء  
والأطفال، ولم يكن للمسلمين قوة على قتال أهل الحرب، كانوا في سعة من أن  
يخلوا بينهم وبين الحصن؛ لأنه ليس في فعلهم إتلاف النساء والأطفال من المسلمين.  
وإن كانوا يقدرّون على قتالهم، أو كان أكبر الرأي على أنهم يتصفون منهم، فليس  
يسعهم أن يدعوهم؛ لأن أكبر الرأي فيما لا يمكن الوقوف على حقيقته كاليقين،  
والدفع عن ذراري المسلمين فرض عين على كل مسلم عند التمكن منه.  
ولو كانوا في سفينة فخافوا إن لم يرموا بالنساء والصبيان في الماء أن يأخذ المشركون =

---

(١) أخرج مسلم [١٠٣٤ / ٩٥] عن حكيم بن حزام رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال:  
«أفضل الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩١]

التثقيف عند العرب هو تقويم الغصن، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها رماحاً وعصيماً، والغصن قد يكون معوجاً أو به نتوء، فكان العربي يثقفه، أى يزيل زوائده ويقوم اعوجاجه بالثقاف، وهو: قطعة من الحديد المعقوف؛ يقوم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح بحديد البناء.

كأن المثقف هو الذى يعدل من شىء معوج فى الكون؛ فهو يعرف هذه وتلك وأصبح ذا تقويم سليم. وهكذا نجد أن معانى اللغة وألفاظها مشتقة من المحسوسات التى أمامنا.

= من فى السفينة ، لم يحل لهم أن يرموا بهم فى الماء؛ لأن أكبر رأى فى الماء أنه مهلك، فكان فى هذا إتلاف الذرارى، ولا رخصة للمسلمين فى ذلك لتحصيل النجاة لأنفسهم، بخلاف الأول. فالرمى بهم عن الخيول هناك غير متلف لهم غالباً، حتى أن فى السفينة إذا كان أكبر رأى منهم عند الرمى بالنساء والصبيان أنهم لا يهلكون، ولكن يأخذهم المشركون فلا بأس بأن يفعلوا ذلك، إذا كان أكبر رأى منهم أن يهلكوا جميعاً إن لم يفعلوا ذلك.

ولو أخذت السرية أطفالاً من المشركين فى دار الحرب ، فعجزوا عن حملهم ومروا بحصن من حصونهم فسألوهم أن يدفعوهم إليهم حتى يقوموا بتربيتهم فليس على المسلمين ذلك، ولكنهم يضعونهم وضعاً ، فإن شاء أولئك نزلوا فأخذوهم ، وإن شاءوا تركوهم؛ لأن الدفع إليهم للتربية من باب الإحسان، وقد بينا أن ذلك ليس بواجب على المسلمين فى أطفال المشركين، إنما عليه الامتناع من الإساءة، ووضعهم إياهم على الأرض ليس من الإساءة فى شىء ، فلهذا كان رأى إليهم إن شاءوا وضعوهم على الأرض ، وإن شاءوا أسلموهم إليهم.

السير الكبير: [٤/ ١٥٥٤-١٥٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: وجدتموهم؛ ثقف الشيء: أى وجده. والحق سبحانه تعالى يقول: ﴿فَإِمَّا تَثَقَفْتُمُوهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] أى: إن وجدتهم فى أى حرب، فشرّد بهم من خلفهم. أى: اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدّبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ويتعدون عنكم، وكلما راوكم أصابهم الخوف والهلع. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: لا تقولوا: إنهم أخرجوكم من هنا، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم، أى من أى مكان أنتم فيه، وعند ذلك لن تكونوا معتدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يذكرنا بقاعدة مشابهة فى آية أخرى وهى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ [الحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] قد يرد هذا الخاطر: هل إذا أخذت حقى ممن أساء إلى، بعمل يماثل العمل الذى فعله معى، هل يقال: إننى فعلت سيئة؟

وحتى نفهم المسألة نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يذكر بعض الآيات بلفظ «المشاكلة» وهى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته، ومثل ذلك قوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ إن الله لا يمكر، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة، أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقك بكلمة: ﴿سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لينبهك إلى أن استيفاء حقك بمثل ما صنع بك يعتبر سيئة، إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسيئ يلفتنا إلى ذلك سبحانه فى نهاية الآية بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وبمثل ذلك كان ختام الآية السابقة: ﴿وَلَنْ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

وقول الحق تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، وأصل الفتنة مأخوذ



من عرض الذهب على النار، فصائغ الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها في النار فتنصهر، فإذا ما كان يخالطها معدن غريب عن الذهب فإنه يخرج ويبقى الذهب خالصاً. ثم صارت الفتنة تستعمل للابتلاء والاختبار، وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل، فقد حاولوا من قبل أن يفتنوا المؤمنين في دينهم بالتعذيب تارة، والتجويع تارة أخرى، فخرج المؤمنون فارّين بدينهم.

والحق سبحانه أمر المسلمين في قتالهم مع عدوهم أن يراعوا حرمة البيت الحرام، فلا يتهكّوها بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك.

وهكذا نجد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يحرم خصوم الإسلام من الاحتيال على المسلمين؛ فهم يعلمون أن المؤمنين سيحترمون الأشهر الحرم، ويحترمون المكان الحرام، ويحترمون الإحرام فلا يقاتلون؛ وربما أغرى ذلك خصوم الإسلام أن يقاتلوا المسلمين في الأشهر الحرم، ويظنوا أن المسلمين قد يتهيئون أن يقاتلوهم، فشرع الحق سبحانه وتعالى ما يناسب مثل هذا الأمر؛ فأذن لهم في القتال؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩٩].

إذن .. الحق سبحانه وتعالى يبين لنا الحكمة من ذلك بأنه وإن كان القتال في الشهر الحرام وفي المكان الحرام وفي حال الإحرام شيئاً منهياً عنه؛ احتراماً للمكان والزمان، فالفتنة في دين الله أشد من القتل؛ لأن الفتنة إنما جاءت لتفسد على الناس دينهم، وقد حاول المشركون إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب والتجويع، الذي يصل إلى درجة القتل أحياناً؛ حتى يرددوا عن الدين، وكان ذلك أشد من القتال لأنها فتنة في الدين.

إن الله سبحانه هو الذي شرع حرمة الشهر الحرام فكيف يُقتن المؤمنون

عن دين الله ، ويُحملون على الشرك به سبحانه وتعالى ، ثم تقولون بعد ذلك: إننا فى الشهر الحرام؟ إن الشهر الحرام لم يكن حراماً إلا لأن الله هو الذى حرمه ، فالفتنة فى دين الله أشد من أن نقاتل فى الشهر الحرام؛ ولذلك فلا داعى أن يتخرج أحد من القتال فى الشهر الحرام عندما يُقاتل فيه .

وبعد ذلك هل يظل القتال دفاعاً كما يريد خصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعاً عمّن آمن فقط؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يشيعوا عن الإسلام أنه دين قتال ويقولون: لا ، الإسلام إنما جاء بقتال الدفاع فقط .

نقول لهؤلاء: قتال الدفاع عمّن؟ هل دفاع عمّن آمن فقط؟ أم عن مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر فى اختياره لدينه؟

هو دفاع أيضاً ، وسنسميه دفاعاً ، ولكنه دفاع عمّن آمن ، ندفع عنه من يعتدى عليه ، وأيضاً عمّن لم يؤمن ندفع عنه من يؤثر عليه فى اختيار دينه لنحمى له اختياره ، لا لنحمله على الدين ، ولكن لنجعل حراً فى الاختيار؛ فالقوى التى تقف عثرة بين الناس وبين حرية الاختيار يجب إزاحتها من طريق الناس ، ثم نعرّف الناس بالدين ، بعدها من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، شريطة ألا يقف فى وجه الدعوة ، وأن يخلّى بين الناس وبين اختيارهم ، فإن أبى وحارب الدعوة ولم يخلّى بين الناس وبين حريتهم ، يكون قد اعتدى على حرية اختيار الآخرين ، وصدّ عن الدين الجديد ولم يخلّى بينه وبين الناس؛ لذا يجب إزاحته من طريق الدعوة ومن طريق الناس .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ :  
لأنه أحرى وأجدر بكم أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام ، لكن إذا هم اجتروا على القتال فى المسجد الحرام ، فقد أباح الله سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ماداموا قد قاتلوكم فيه .

قال تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ انْتَهَوْا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ . ما أسمى هذا الدين . إننا لا نؤاخذهم إن انتهوا إلى الإيمان - بما قدمت أيديهم من الاجترار على أهل الإيمان - ما دامو قد آمنوا، ولذلك نرى عمر بن الخطاب وقد مرَّ على قاتل أخيه زيد ابن الخطاب: فأشار رجل عليه وقال: هذا قاتل زيد . فقال عمر: وماذا أصنع به وقد أسلم؟ لقد عصم الإسلام دمه .

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ . هذا أمر بقتل من يعثر عليهم منهم ، وإن لم يكن فى ساحة القتال، فإنه بعد أن أمرهم بقتال من يقاتلهم عمن المواقع والبقاع؛ زيادة فى أحوال القتل وتصريحاً بتعميم الأماكن، فإن أهمية هذا الغرض تبعث على عدم الاكتفاء باقتضاء عموم الأشخاص تعميم الامكنة؛ ليكون المسلمون مأذونين بذلك؛ فكل مكان يحل فيه العدو فهو موضع قتال . فالمعنى: واقتلوهم حيث ثقتموهم إن قاتلوكم .

وعطفت الجملة على التى قبلها، وإن كانت هى مكمله لها باعتبار أن ما تضمنته قتل خاص غير قتال الوغى، فحصلت المغايرة المقتضية العطف؛ ولذلك قال هنا: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ ولم يقل: «واقتلوهم» مثل الآية قبلها تنبيهاً على قتل المحارب، ولو كان وقت العثور عليه غير مباشر للقتال، وأنه من خرج محارباً فهو قاتل وإن لم يقتل .

و ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ بمعنى لقيتموهم لقاء حرب وفعله كفرح ، وفسره فى الكشف بأنه وجود على حالة قهر وغلبة .

وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى: يحل لكم حيثئذ أن تخرجوهم من مكة التى أخرجوكم منها ، وفى هذا تهديد للمشركين ووعدهم بفتح مكة ، فيكون هذا اللقاء لهذه البشرى فى نفوس المؤمنين ؛ ليسعوا إليه حتى يدركوه وقد أدركوه بعد ستين، وفيه وعد من الله تعالى لهم بالنصر؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] الآية .

وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ تذييل «وال» فيه للجنس تدل على الاستغراق فى المقام الخطايب، وهو حجة للمسلمين ونفى للتبعة عنهم فى القتال بمكة إن اضطروا إليه . والفتنة إلقاء الخوف واختلال نظام العيش ؛ إشارة إلى مآلقيه المؤمنون فى مكة من =

= الاذى بالشتم والضرب والسخرية إلى أن كان آخره الإخراج من الديار والأموال، فالمشركون محقوقون من قبل، فإذا خفروا العهد استحقوا المؤاخلة بما مضى، فيما كان الصلح مانعاً من مؤاخذتهم عليه؛ وإنما كانت الفتنة أشد من القتل لتكرر إضرارها بخلاف ألم القتل، ويراد منها أيضاً الفتنة المتوقعة بناء على توقع أن يصدروهم عن البيت أو أن يغدروا بهم إذا حلُّوا بمكة؛ ولهذا اشترط المسلمون في صلح الحديبية أنهم يدخلون العام القابل بالسيوف في قرابها، والمقصد من هذا إعلان عذر المسلمين في قتالهم المشركين، وإلقاء بغض المشركين في قلوبهم؛ حتى يكونوا على أهبة قتالهم والانتقام منهم بصدور حرجة حنقة.

وليس المراد من الفتنة خصوص الإخراج من الديار؛ لأن التذليل يجب أن يكون أعم من الكلام المذلل.

وقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ التى أفادت الأمر بتتبع المقاتلين بالقتيل حيثما حلوا، سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين، أم كانوا فى حالة تنقل أو تطلع أو نحو ذلك؛ لأن أحوال المحارب لا تنضبط وليست فى الوقت سعة للنظر فى نواياه والتوسم فى أغراضه؛ إذ قد يبادر إلى اغتيال عدوه فى حال تردده وتفكره، فخص المكان الذى عند المسجد الحرام من عموم الأماكن التى شملها قوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: إن ثَقِفْتُمُوهُمْ عند المسجد غير مشتبكين فى قتال معكم فلا تقتلوه، والمقصد من هذا حفظ حرمة المسجد الحرام التى جعلها الله له بقوله: ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فاقتضت الآية منع المسلمين من قتال المشركين عند المسجد الحرام، وتدل على منعهم من أن يقتلوا أحداً من المشركين دون قتال عند المسجد الحرام، بدلالة لحن الخطاب أو فحوى الخطاب.

وجعلت غاية فى النهى بقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أى: فإن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوه عند المسجد الحرام؛ لأنهم خرقوا حرمة المسجد الحرام فلو تركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين. فإن قاتلوا المسلمين عند المسجد الحرام عاد أمر المسلمين بمقاتلتهم إلى ما كان قبل هذا النهى، فوجب على المسلمين قتالهم عند المسجد الحرام وقتل من ثَقَفُوا منهم كذلك . =

= وفى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ تنبيه على الإذن بقتلهم حيثذ ولو فى غير اشتباك معهم بقتال؛ لأنهم لا يؤمنون من أن يتخذوا حرمة المسجد الحرام وسيلة لهزيمة المسلمين. ولأجل ذلك جاء التعبير بقوله: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ لأنه يشمل القتل بدون قتال والقتل بقتال. فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ أى: عند المسجد الحرام فاقتلوهم هنالك، أى: فاقتلوا من ثقتهم منهم حين المحاربة، ولا يصدكم المسجد الحرام عن تقصى آثارهم؛ لئلا يتخذوا المسجد الحرام ملجأ يلجئون إليه إذا انهزموا.

وقد احتار كثير من المفسرين فى انتظام هذه الآيات من قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله هنا: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ حتى لجأ بعضهم إلى دعوى نسخ بعضها ببعض فزعم أنها آيات متقارنة بعضها نسخ بعضاً؛ مع أن الأصل أن الآيات المتقارنة فى السورة الواحدة نزلت كذلك، ومع ما فى هاته الآيات من حروف العطف المانعة من دعوى كون بعضها قد نزل مستقلاً عن سابقه، وليس هنا ما يلجئ إلى دعوى النسخ؛ ومن المفسرين من اقتصر على تفسير المفردات اللغوية والتراكيب البلاغية وأعرض عن بيان المعانى الحاصلة من مجموع هاته الآيات. وقد أذن الله للمسلمين بالقتال والقتل للمقاتل عند المسجد الحرام، ولم يعأ بما جعله لهذا المسجد من الحرمه؛ لأن حرمة حرمة نسبته إلى الله تعالى فلما كان قتال الكفار عنده قتالاً لمنع الناس منه ومناوأة لدينه فقد صاروا غير محترمين له، ولذلك أذن بقتالهم هنالك تأييداً لحرمه المسجد الحرام.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ثلاثتها بالفاء بعد القاف، وقرأ حمزة والكسائى: «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم» بدون ألف بعد القاف، فقال الاعمش لحمزة: رأيت قراءتك هذه كيف يكون الرجل قاتلاً بعد أن صار مقتولاً؟ فقال حمزة: إن العرب إذا قُتل منهم رجل قالوا: قُتلنا. اهـ. يريد أن الكلام على حذف مضاف من المفعول.

والمعنى: ولا تقتلوا أحداً منهم حتى يقتلوا بعضكم، فإن قتلوا بعضكم فاقتلوا من تقدرون عليه منهم، وكذلك إسناد «قتلوا» إلى ضمير جماعة المشركين، فهو بمعنى قتل بعضهم بعض المسلمين؛ لأن العرب تسند فعل بعض القبيلة، أو الملة، أو الفرقة لما يدل على جميعها من ضمير كما هنا أو اسم ظاهر نحو قتلنا بنو أسد. =

= وهذه القراءة تقتضى أن المنهى عنه القتل، فيشمل القتل باشتباك حرب، والقتل بدون ملحمة، وقد دلت الآية بالنص على إباحة قتل المحارب إذا حارب فى الحرم أو استولى عليه؛ لأن الاستيلاء مقاتلة؛ فالإجماع على أنه لو استولى على مكة عدو وقال: لا أقاتلكم وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة؛ لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال، نقله القرطبى عن ابن خويز منداد من مالكية العراق.

قال ابن خويز منداد: وأما قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فيجوز أن يكون منسوخاً بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] واختلفوا فى دلالتها على جواز قتل الكافر المحارب إذا لجأ إلى الحرم بدون أن يكون قتال، وكذا الجانى إذا لجأ إلى الحرم فاراً من القصاص والعقوبة، فقال مالك: بجواز ذلك واحتج على ذلك بأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الآية، قد نسخ هاته الآية، وهو قول قتادة ومقاتل بناء على تأخر نزولها عن وقت العمل بهذه الآية، والعام المتأخر عن العمل ينسخ الخاص اتفاقاً، وبالحديث الذى رواه فى الموطأ عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزع جاء أبو برزة فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوه» (١)، وابن خطل هذا هو عبد العزى بن خطل التيمي كان ممن أسلم ثم كفر بعد إسلامه، وجعل دأبه سب رسول الله ﷺ والإسلام، فأهدر النبي ﷺ يوم الفتح دمه، فلما علم ذلك عاذ بأستار الكعبة، فأمر النبي ﷺ بقتله حينئذ، فكان قتل ابن خطل قتل حدٍّ لا قتل حرب؛ لأن النبي ﷺ قد وضع المغفر عن رأسه وقد انقضت الساعة التى أحلَّ الله له فيها مكة.

وبالقياس وهو أن حرمة المسجد الحرام متقررّة فى الشريعة، فلما أذن الله بقتل من قاتل فى المسجد الحرام علمنا أن العلة هى أن القتال فيه تعريض بحرمة للاستخفاف، فكذلك عياذ الجانى به، وبمثل قوله قال الشافعى، لكن قال الشافعى: إذا التجأ المجرم المسلم إلى المسجد الحرام؛ يضيّق عليه حتى يخرج، فإن لم يخرج جاز قتله، وقال أبو حنيفة: لا يقتل الكافر إذا التجأ إلى الحرم إلا إذا قاتل فيه لنص هاته الآية وهى محكمة عنده غير منسوخة، وهو قول طاووس ومجاهد.

(١) أخرجه البخارى [١٨٤٦، ٣٠٤٤]، ومسلم [١٣٥٧ / ٤٥٠]، وأبو داود [٢٦٨٥]، والترمذى [١٦٩٣]، ومالك فى الموطأ فى كتاب الحج [٢٠]، باب: جامع الحج [٨١].

= قال ابن العربي فى الأحكام: حضرت فى بيت المقدس بمدرسة أبى عتبة الحنفى والقاضى الزنجانى يلقى علينا الدرس فى يوم الجمعة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رجل عليه أطمار فسلم سلام العلماء وتصدر فى المجلس، فقال القاضى الزنجانى: من السيد؟ فقال: رجل من طلبة العلم بصاغان سلبه الشطار أمس، ومقصدى هذا الحرم المقدس. فقال القاضى الزنجانى: سلوه؛ على العادة فى مبادرة العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحرم، هل يُقتل أم لا ؟ فأجاب : بأنه لا يُقتل، فسُئل عن الدليل فقال: قوله تعالى : ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١] فَإِنْ قُرِئَ: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ» فالآية نص ، وإن قرئ : ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾ فهى تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذى هو سبب القتل كان دليلاً بيناً على النهى عن القتل. فاعترض عليه الزنجانى متصراً للمالك والشافعى، وإن لم ير مذهبهما على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] فقال الصاغانى: هذا لا يليق بمنصب القاضى، فإن الآية التى اعترضت بها عامة فى الأماكن التى احتججت بها خاصة ، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العام ينسخ الخاص ، فأبتهت القاضى الزنجانى، وهذا من بديع الكلام<sup>(١)</sup>. اهـ.

وجواب هذا أن العام المتأخر عن العمل بالخاص ناسخ. وحديث ابن خطل دل على أن الآية التى فى براءة ناسخة لآية البقرة . وأما قول الحنفية وبعض المالكية : إن قُتِلَ ابن خطل كان فى اليوم الذى أحل الله له فيه مكة ، فیدفعه أن تلك الساعة انتهت بالفتح ، وقد ثبت فى ذلك الحديث أن رسول الله ﷺ قد نزع حيثئذ المغفر ، وذلك أمانة انتهاء ساعة الحرب.

وقال ابن العربي فى الأحكام: الكافر إذا لم يقاتل ولم يجن جنابة ولجأ إلى الحرم فإنه لا يُقتل، يريد أنه لا يقتل القتل الذى اقتضته آية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وهو مما شمله قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، الإشارة إلى القتل المأخوذ من قوله: ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ =

(١) أحكام القرآن [١/١٠٧] بتصرف.

إذن . . لقد انتهت المسألة بإسلامه، فالإيمان بالله أعزّ على المؤمن من دمه ومن نفسه، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة .  
وهذا وحشى قاتل حمزة، يقابل رسول الله ﷺ وكل ما يصنعه الرسول هو أن طلب منه أن يغيب وجهه عنه حتى لا يراه، لكنه لم يقتله ولم يثأر منه لأن الاسلام يجب ما قبله (١).

= أى: كذلك القتل جزاؤهم. ونكتة الإشارة تهويله، أى: لا يقلّ جزاء المشركين عن القتل ولا مصلحة فى الإبقاء عليهم؛ وهذا تهديد لهم، فقلوه: ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر مقدم للاهتمام وليست الإشارة إلى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لأن المقاتلة ليست جزاء؛ إذ لا انتقام فيها بل القتال سجال يوماً بيوم.

التحرير والتنوير: {٢٠١-٢٠٦} بتصرف.

(١) عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدى بن الحيار، فلما قدمنا حمص قال لى عبيد الله بن عدى: هل لك فى وحشى نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم. وكان وحشى يسكن حمص فسألنا عنه فقيل لنا: هو ذاك فى ظل قصره، كأنه حَمِيَتْ، قال: فجبنا حتى وقفنا عليه ييسر، فسلمنا فرد السلام، قال: وعبيد الله معتجز بعمامته. ما يرى وحشى إلا عينيه ورجليه؟ فقال عبيد الله يا وحشى أتعرفنى؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله إلا أنى أعلم أن عدى بن الحيار تزوج امرأة يقال لها: أم قتال بنت أبى العيص، فولدت له غلاماً بمكة فكنت أسترضع له فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فلكنائى نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيد الله عن وجهه، ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الحيار بيدى، فقال لى مولاى جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمى فانت حر. قال: فلما أن خرج الناس عام عيتين- وعينين جبل بحيال أحد بينه وبينه وإد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور أمحد الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذهاب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منى رميته بحررتى فأضعها فى ثنته حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم فاقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلاً، فقيل لى: إنه لا يبيعُ الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رأتى قال: «أنت وحشى» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة» قلت: قد كان من=



وهند روجة أبى سفيان التى أكلت كبد حمزة، أسلمت وانتهت فعلتها بإسلامها؛ وغير ذلك كثير.

إذن.. فالإسلام ليس دين حقد ولا ثار ولا تصفية حسابات، فإذا كان الدم يغلى فى مواجهة الكفر، فإن إيمان الكفار يعطيهم الأمن والسلامة، هذا هو الدين. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) [البقرة: ١٩٢]

أى ما داموا قد كفوا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله وُجِّروا بالدين الأمر فانزجروا عن الكفر بعدها لا شئ لنا عندهم؛ لأن الله غفور رحيم، فلا يصح أن يشيع فى نفوسنا الحقد على ما فعلوه بنا قديماً، بل نحتسب ذلك عند الله، وما داموا قد آمنوا فذلك يكفينا.

= الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟» قال: «فخرجت؛ فلما قبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقتله فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم فى ثلثة جدار كأنه جمل أورق نائر الرأس، قال: فرميت به بحررتى فأضعها بين يديه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووُثِبَ إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

أخرجه البخارى {٤٠٧٢}.

(١) قال ابن الجوزى: اختلف المفسرون فى المراد بهذا الانتهاء على قولين:

أحدهما: أنه الانتهاء عن الكفر.

والثانى: عن قتال المسلمين لا عن الكفر.

فعلى القول الأول: الآية محكمة. والثانى يختلف فى المعنى. فمن المفسرين من يقول: فإن الله غفور رحيم إذ لم يأمركم بقتالهم فى الحرم، بل يخرجون منه على ما ذكرنا فى الآية التى قبلها، ولا يكون نسخ أيضاً.

ومنهم من يقول: المعنى: اعفوا عنهم وارحموهم. فيكون لفظ الآية لفظ خبر ومعناه الأمر بالرحمة لهم والعفو عنهم، وهذا منسوخ بآية السيف.

ناسخ القرآن ومنسوخه: {٢٢٠، ٢٢١}.

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرع لنا مراحل للقتال ودوافعه قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١) [البقرة: ١٩٣]

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واختبار والحق سبحانه يقول: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]

فالحق سبحانه يختبر الإيمان بالفتنة، وليرى الذين يعلنون الإيمان هل سيصبرون على ما فيه من ابتلاءات أم لا؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول في حرب أو قتال، ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين، لكان الأمر مغرياً لكثير من الناس بالدخول في الإسلام، لكن الله جعل لهم الفتنة في أن يهزموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء؛ وذلك حتى لا يدخل الدين إلا الصفوة التي تحمل كرامة الدعوة، وتتولى حماية الأرض من الفساد، فلا بد أن يكون المؤمنون هم خلاصة الناس.

لذلك قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ معنى أن يكون الدين لله، أى: تخرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التي فرضها الطغيان عليهم، وعندما نأخذهم من الديانات التي زينها لهم الشيطان إلى دين الخالق سبحانه؛ فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم، وتلك مهمة سامية.

(١) عن نافع، أن رجلاً أتى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فقال: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتز عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخى، بنى الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه: إما قتلوه، وإما يعذبوه، حتى كثُر الإسلام فلم تكن فتنة.

أخرجه البخارى [٤٥١٤].

كأنك بهذه المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنسانى وتمنعه من أن يدين لمساو له .

وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب .  
ولذلك يقول الرسول ﷺ لمن يدعوهم للإيمان: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧]

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول ﷺ بالنسبة إلينا، لوجب أن يكون له أجر؛ لأنه يقدم المنفعة لنا، وبرغم ما قدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجراً، ليس لأنه زاهد فى الأجر؛ ولكن لأنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عظم وهو يريد الأجر ممن خلقه، وهذا طمع فى الأعلى؛ لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه الذى يعطى بلا حدود .

ويختتم الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى : إنهم إذا انتهوا إلى عدم قتالكم فلا تعتدوا عليهم، ولكن عليكم أن تردوا عدوان الظالم منهم . والظالم حين يعتدى يظن أن لن يقدر عليه أحد<sup>(١)</sup> .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) قال ابن القيم فى قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهى الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين، والمجاهر بالسب والعدوان على الإسلام غير مُتَّبَع، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتم، وهو ظالم، فعليه العدوان الذى نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال، وهذا بحمد الله فى غاية الوضوح .  
بدائع التفسير [٣٨٨/١] .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ [البقرة: ١٩٠]

والمعنى: إن قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام، وإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالقصاص يكون فى زمان مثله، وإن اعتدوا فى حرمة مكان يكن القصاص بحرمة مكان مثله، وإذا كان الاعتداء بحرمة إحرام يكون مثله؛ لأن القصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثلما فعل الظالم.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُدُّوا عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة، وأعادهم المشركون إلى المدينة، فاقترض الله لهم بأن أعادهم فى ذى القعدة فى العام القابل فى السنة السابعة من الهجرة، فإن كانوا قد مُنعوا فى الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت فى الشهر الحرام فى الزمان نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ يقتضى منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشئ الحرام؟ إن الشئ الحرام هو ما يحظر هتكه، والشئ الحلال هو المطلق والمأذون فيه. فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نفتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: نفتص منك بالزنا فيك؟ لا. إن القصاص فى الحرمات لا يكون إلا

(١) قال ابن العربى فى هذه الآية: فيها أربع مسائل:

المسألة الأولى: فى سبب نزولها:

قيل: إنها نزلت سنة سبع حين قضى النبى ﷺ عمرته فى ذى القعدة عن التى صده عنها كفار قريش سنة ست فى الحديبية فى ذى القعدة، فدخل النبى ﷺ مكة، وقد أخلتها قريش، وقضى نسكه، ونزلت هذه الآية.

المعنى: شهر بشهر وحرمة بحرمة، وصار ذلك أصلاً فى كل مكلف قطع به عذر أو عدو عن عبادة ثم قضاها، أن الحرمة واحدة والثوبة سواء.

وقيل: إن المشركين قالوا: أنهيت يا محمد عن القتال فى الشهر الحرام؟

قال: نعم. فأرادوا قتاله فيه، فنزلت الآية.

المعنى: إن استحلوا ذلك فيه فقاتلهم عليه، فإن الحرمة بالحرمة قصاص =

قال علماؤنا: وهذا دليل على أن لك أن تبيع دم من أباح دمك، وتحل مال من استحل مالك، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه بمقدار ما قال فيك، ولذلك كله تفصيل:

أما من أباح دمك فمباح دمه لك، لكن بحكم الحاكم، لا باستطاعتك وأخذ لثارك بيدك، ولا خلاف فيه.

وأما من أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه، إذا كان من جنس مالك: طعاماً بطعام، وذهباً بذهب، وقد أمّنت من أن تعد سارقاً.

وأما إن تمكنت من ماله بما ليس من جنس مالك فاختلف العلماء؛ فمنهم من قال: لا يؤخذ إلا بحكم حاكم، ومنهم من قال: يتحرى قيمته ويأخذ بمقدار ذلك، وهو الصحيح عندي.

وأما إن أخذ عرضك فخذ عرضه، لا تتعداه إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه. لكن ليس لك أن تكذب عليه، وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية؛ فلو قال لك مثلاً: يا كافر، جار لك أن تقول له: أنت الكافر؛ وإن قال لك: يا زان، فقصاصك أن تقول: يا كذاب، يا شاهد زور. ولو قلت له: يا زان، كنت كاذباً فأنمت في الكذب، وأخذت فيما نسب إليك من ذلك، فلم تبيع شيئاً، وربما خسرت. وإن مَطَّلَكَ وهو غنى دون عذر، قل: يا ظالم، يا أكل أموال الناس. قال النبي ﷺ في الصحيح: «لِيُالِ الْوَاجِدُ» (١) يحل عرضه وعقوبته» (٢).

أما عرضه فيما فسرناه، وأما عقوبته فبالسجن حتى يؤدي. وعندى أن العقوبة هي: أخذ المال كما أخذ ماله، وأما إن جحدك وديعة وقد استودعك أخرى فاختلف العلماء فيه؛ فمنهم من قال: اصبر على ظلمه، وأدّ إليه أمانته، لقول النبي ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من»

(١) اللّي: المظل. الواجد: القادر على قضاء دينه.

(٢) رواه البخاري معلقاً في كتاب الاستقراض باب [١٣]. ورواه أحمد [٢٨٨/٤، ٢٨٩]، وأبو داود

[٣٦٢٨]، والنسائي [٤٦٨٩، ٤٦٩]، وابن ماجه [٢٤٢٧] عن عمرو بن الشريد عن أبيه. وحسنه

الألباني في صحيح ابن ماجه [١٩٧٠]؛ وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح [٣٤٢/٥].

خانك<sup>(١)</sup> .

ومنهم من قال: اجحده، كما جحدك؛ لكن هذا لم يصح سنده، ولو صح فله معنى صحيح، وهو إذا أودعك مائة وأودعته خمسين، فجحد الخمسين، فاجحده خمسين مثلها، فإن جحدت المائة كنت قد خنت من خانك فيما لم يخنك فيه، وهو المنهى عنه. وبهذا الأخير أقول. والله أعلم.

**المسألة الثانية:** قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

هذه الآية عموم متفق عليه، وعمدة فيما تقدم بيانه وفيما جانسه.

**المسألة الثالثة:** قوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

هذه مسألة يكرر. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما سُمِّيَ الفعل الثاني اعتداء، وهو مفعول بحق؛ حملاً للثاني على الأول على عادة العرب.

قالوا: وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾

والذي أقول فيه: إن الثاني كالأول في المعنى واللفظ؛ لأن معنى الاعتداء في اللغة مجاوزة الحد، وكلا المعنيين موجود في الأول والثاني؛ وإنما اختلف المتعلق من الأمر والنهي؛ فالأول منهي عنه، والثاني مأمور به، وتعلق الأمر والنهي لا يغير الحقائق ولا يقلب المعاني؛ بل إنه يكسب ماتعلق به الأمر وصف الطاعة والحسن، ويكسب ماتعلق به النهي وصف المعصية والقيح؛ وكلا الفعلين مجاوزة الحد، وكلا الفعلين يسوء الواقع به، وأحدهما حق والآخر باطل.

**المسألة الرابعة:** تعلق علماؤنا بهذه الآية في مسألة من مسائل الخلاف؛ وهي المماثلة في القصاص، وهو متعلق صحيح وعموم صريح؛ وقد اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

**الأول:** أنه لا قود إلا بحديدة؛ قاله أبو حنيفة وغيره، واحتجوا بالحديث: إن النبي ﷺ قال: «لا قود إلا بحديدة»<sup>(٢)</sup> «ولا قود إلا بالسيف»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الترمذی [١٢٦٤] وحسنه، وأبو داود [٣٥٣٥] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه. وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠١٩]: حسن صحيح.

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [١٦٠٨٨] عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه.

(٣) رواه ابن ماجه [٢٦٦٧، ٢٦٦٨] عن النعمان بن بشير، وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنهما. وضعفه =

.....

= الثاني: أنه يقتصر منه بكل ماقتل إلا الخمر وآله اللواط، قاله الشافعي.

الثالث: قال علماؤنا: يقتل بكل ماقتل إلا في وجهين وصفتين:

أما الوجه الأول: فالمعصية كالخمر واللواط.

وأما الوجه الثاني: فالسم والنار، لا يقتل بهما.

قال علماؤنا: لأنه من المثل؛ ولست أقوله؛ وإنما العلة فيه أنه من العذاب.

وقد بلغ ابن عباس أن علياً حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام؛ فقال ابن عباس:

لم أكن لأحرقهم بالنار؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله».

ولقتلهم لقول النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». <sup>(١)</sup> وهو الصحيح.

والسم نار باطنة، نعوذ بالله من النارين، ونسأل الله تعالى الشهادة في سيئه.

وأما الوصفان: فروى ابن نافع عن مالك: إن كانت الضربة بالحجر مُجهِزة

قُتِلَ بها، وإن كانت ضربات فلا.

وقال مالك أيضاً: ذلك إلى الولي. وروى ابن وهب يُضْرَبُ بالعصا حتى

يموت؛ ولا يطول عليه. وقاله ابن القاسم.

وقال أشهب: إن رَجِيَ أن يموت بالضرب ضُرب، وإلا أُقيد منه بالسيف.

وقال عبد الملك: لا يقتل بالنبل ولا بالرمي بالحجارة؛ لأنه من التعذيب. واتفق

علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقاً عينه قصد التعذيب فُعل ذلك به،

كما فعل النبي ﷺ بقتلة الرعاء حسبما روى في الصحيح <sup>(٢)</sup>، وإن كان في =

---

= الألباني في ضعيف ابن ماجه [٥٨١، ٥٨٢].

(١) أخرجه البخارى [٣٠١٧] عن عكرمة رضى الله تعالى عنه.

(٢) هم قوم من عربة، بعث بهم رسول الله إلى إبل الصدقة؛ ليشربوا من ألبانها فقتلوا رعاتها.

والحديث أخرجه البخارى [٦٨٠٥] عن أنس بن مالك رضى الله عنه: «أن رجلاً من عُكْل - أو قال

عُرَيْنة - ولا أعلمه إلا قال: من عُكْل قدموا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بلفاح، وأمرهم أن يخرجوا

فيشربوا من أبوالها وألبانها، فشربوا حتى إذا برئوا قتلوا الراعى، واستاقوا النعم، فبلغ ذلك النبي

ﷺ غُدوة، فبعث الطلب في إثرهم، فما ارتفع النهار حتى جى بهم، فأمر بهم فقطع أيديهم

وأرجلهم، وسَمَّ أعينهم، فألقوا بالقوة يستحقون فلا يسقون».

قال أبو قلابة: هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله.

أخرجه مسلم [١٦٧١ / ١٠].

مدافعة ومضاربة قُتل بالسيف.

والصحيح من أقوال علمائنا أن الماثلة واجبة، إلا أن تدخل في حد التعذيب فلتترك إلى السيف. وإلى هذا يرجع جميع الأقوال.

وأما حديث أبي حنيفة فهو عن الحسن عن أبي بكر عن النبي ﷺ؛ ولا يصح لوجهين بينهما في شرح الحديث الصحيح: وكذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه في شبه العمد بالسوط والعصا لا يصح أيضاً.

والذي يصح ما رواه مسلم وغيره عن علقمة بن وائل، عن أبيه، قال: إني لقاعد عند النبي إذا رجل يقود آخر ينسعة<sup>(١)</sup>. فقال: يا رسول الله، هذا قتل أخى. فقال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» فقال: إنه لو لم يعترف لأقتمت عليه البيعة. قال: نعم، قتلته. قال: «كيف قتلته؟» قال: كنت أنا وهو نحتطب<sup>(٢)</sup> من شجرة فسبني فأغضبني فضربته بالفأس على قرنيه فقتلته.

وروى أبو داود: «ولم أرد قتله»<sup>(٣)</sup>. فقال له النبي ﷺ: «هل لك من شيء تؤدى عن نفسك؟» فقال: ما لى إلا كسائي وفأسى. قال: «فترى قومك يشترونك؟» قال: أنا أهون على قومي من هذا. قال: فرمى إليه بنسعته، وقال: «دونك صاحبك» فانطلق به الرجل؛ فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله». فرجع. فقال: يا رسول الله، بلغنى أنك قلت كذا، وأخذته بأمرك. قال: «أما تريد أن يئوئ بأثمك وإثم صاحبك؟» قال: لعله. قال: بلى. قال: «فإن ذاك كذلك»، قال: فرمى بنسعته وخلقى سبيله<sup>(٤)</sup>.

والحديث مشكل وقد بيناه في شرح الحديث الصحيح، والذي يتعلق به من مسألتنا أن النبي ﷺ أوجب عليه القتل، وقد قُتل بالفأس. وروى الأئمة أن يهودياً رضح رأس جارية على أوضاع<sup>(٥)</sup> لها، فأمر به =

(١) النسعة: حبل من جلود مضفورة، جعلها كالزمام له يقوده بها.

(٢) في مسلم: نخبط: أى نضرب الشجر بالعصا فيسقط ورقه فنجمعه علفاً.

(٣) رواه أبو داود [٤٥٠١] عن وائل. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٧٧٧].

(٤) أخرجه مسلم [٣٢/١٦٨٠] غير أنه قال فى نهاية الحديث: «فإن ذاك كذاك» بدلاً من «فإن ذاك كذلك».

(٥) الرضح: الشدخ والدق والكسر. والأوضاع: نوع من الحلى يعمل من الفضة؛ سميت بها لبياضها، واحدها: وضع.



فى المأذون به؁ وكذلك إذا سرق منى إنسان مالا وليس لدى بيئة؁ هل أقصص منه بأن أسرق منه؟ لا؛ إن القصاص إنما يكون فى الأمر المعروف الواضح؁ أما الأمر الخفى فلا يمكن أن نقصص منه بمثل ما فعل.

لكن هب أن أحد الأقارب ممن تجب نفقتهم عليك وقد امتنعت أنت عن النفقة على هذا القريب؛ فهذا أمر محرم عليك؁ ويكون لهذا القريب الواجب نفقته عليك أن يأخذ من مالك فىأكل ولا تكون المسألة قصاصاً.

وهب أن زوجتك تشتكى من بخلك وتقصيرك؁ كما اشتكت هند زوجة أبى سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها: «خذى أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف» (١).

وشرع الحق سبحانه وتعالى لولى الأمر تنظيم هذه الأمور؛ حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾

يدعوننا إلى اليقظة؛ حتى لا يخدعنا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام؁ ولكن هذا ليس أمراً حتمياً؛ لأنه يجوز العفو والصفح عمن

---

= النبى ﷺ؁ فاعترف فرض رأسه بين حجرين؛ اعتماداً للمماثلة وحكماً بها (١).

أحكام القرآن: [١ / ١١١ - ١١٥]

(١) أخرجه البخارى [٢٢١١] عن عائشة رضى الله عنها.

---

(١) أخرج البخارى [٦٨٧٧] عن أنس بن مالك قال: خرجت جارية عليها أوضاع بالمدينة قال: فرماها يهودى بحجر. قال: فجاء بها إلى النبى ﷺ وبها رمق؁ فقال لها رسول الله ﷺ: «فلان قتلك» فرفعت رأسها؁ فأعاد عليها؁ قال: «فلان قتلك» فرفعت رأسها فقال لها فى الثالثة: «فلان قتلك» فخفضت رأسها؁ فدعا به رسول الله ﷺ فقتله بين الحجرين. وأخرجه مسلم [١٧٦٢ / ١٥]؁ وأبو داود [٢٥٢٩]؁ وابن ماجه [٢٦٦٦]؁ والنسائى فى المجتبى [٤٧٤٢].

اعتدى عليك يقول رب العزة سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ  
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى  
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]

ويقول تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ويقول تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾  
[الأعراف: ١٩٩]

ولكن إذا عاود المعتدى اعتدائه، فعليك أن ترده بقوة، قال تعالى:  
﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]  
قال الشاعر:

إن عادت العقرب عدنا لها      وكانت النمل لها حاضرة  
ويختم الحق الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُتَّقِينَ﴾ ، أى: واتقوا الله فى كل ما أمركم به، واعلموا أنه سبحانه دائماً  
ينصر ويؤيد من يتقيه.

## فرض القتال

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١)

(١) قال ابن القيم: فى هذه الآية عدة حكم وأمرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتى بالمحبيب، والمحبيب قد يأتى بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم يئأس أن تأتبه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، أوجب له ذلك أموراً:

منها : أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه فى الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسررات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها، وأنفع، وكذلك لا شئ أضر عليه من ارتكاب المنهى، وإن هويته نفسه، ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرو ومصائب؛ وخاصية العاقل تحمل الألم السير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهى كطعام لذيق قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعت لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق مفضي إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله؛ أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لم يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوى يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة. ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها : أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرتة وهلاكه فيه، وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، =

إن كراهية القتال هي قضية فطرية، والذي يقولها هو الذي خلق الإنسان فهو سبحانه لا يعالج الأمر علاجاً سطحياً، بمعنى أن يقول: وماذا في القتال؟ لا، إن الخالق يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ حتى إذا ما أصابك فيه مآثره، فانت قد علمت أن الذي شرعه يُقدر ذلك.

إن الله عز وجل يقول للذين آمنوا: اعلموا أنكم مقبلون على مشقات، وعلى مصاعب، وأنكم سوف تتركون أموالكم، وأولادكم، ونساءكم<sup>(١)</sup>؛

= وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوّض إلى ربه، ورضى بما يختاره له أمره فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضى باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه. ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه. فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره، إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام واللقاء نفسه بين يدي القدر طريقاً كاليت. فإن السع لا يرضى أن يأكل الجيف.

وقال رحمه الله تعالى: بين سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع. فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه. فهذه الآية تضمنت الحفز على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس.

بدائع التفسير: [٣٩١/١ - ٣٩٢]

(١) قال القرطبي: وإنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكانت كراهيتهم لذلك؛ لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. وقال عكرمة في هذه الآية: إنهم كرهوه ثم =

ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا فى السياسة ولجحوا فى قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يرغبون أن تخوض شعوبهم المعارك إلا مضطرين، فإذا ما اضطروا فهم يوضّحون لجندهم أنهم يدرون بالقتال ما هو أكثر شراً من القتال، ومعنى ذلك أنهم يُعبّثون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجميع قواها، وبجميع ملكاتها، وكل إرادتها.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ إنه سبحانه يقول لنا: أعلم أن القتال كره لكم، ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية، هذه القضية هى ألا تنظروا فى القضايا الكبيرة بعلمكم لأن علمكم محدود، بل خذوا القضايا من الخير العليم؛ لأنه سبحانه علم بما ينفع عباده ويقيم حياتهم وفق ما يحبه سبحانه ويرضاه لهم فقد ترى فيما شرع لك مكروهاً !!!، ولكن هذا الذى تراه مكروهاً من وجهة نظرك يأتى منه الخير - وقد تحب شيئاً ويأتى منه الشر - ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى أن كثيراً من الأمور المحبوبة عندنا قد يأتى منها الشر، فيقول الواحد منا: كنت أتوقع الخير من هذا الأمر، لكن ما جاءنى منه إلا الشر.

وأمر آخرى نظن أن الشر يأتى منها، لكنها تأتى بالخير. ولذلك يُحدث

= أحبه وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة، لكن إذا عرف الثواب هان فى جنبه مقاساة المشقات، قلت: ومثاله فى الدنيا إرالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرس وفصد وحجامة ابتغاء العافية ودوام الصحة، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة فى دار الخلد والكرامة فى مقعد صدق.

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قيل: «عسى» بمعنى قد، قاله الأصم. وقيل: هى واجبة. ﴿وَعَسَىٰ﴾ من الله واجبة فى جميع القرآن إلا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ [التحريم: ٥] وقال أبو عبيدة: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله إيجاب، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم. تفسير القرطبي: [٣ / ٣٩]

الحق أموراً فى المجتمع حتى يعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يُجرى أمور الخير على مقتضيات ومقاييس علم العباد، إنما يُجرى الحكم لعلمه هو سبحانه ووفق مشيئته. ولنتنظر إلى ماجاء فى قصة موسى والخضر - عليهما السلام - على سبيل المثال فقد روى أن موسى - عليه السلام - قام خطيباً فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأل رجل هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا؛ فأوحى الله إليه أن لى عبداً بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك، فقال موسى لربه: كيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكمل، فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتاً فى مكمل، واصطحب فتاه يوشع بن نون، وذهب للملاقة ذلك العبد الذى هو أعلم منه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ۖ﴾ (٦٥) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦٦) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٧) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٨) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٩) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٧٠) ﴿[الكهف]

إن موسى - عليه السلام - خرج مع فتاه إلى مجمع البحرين، ويقال: إنه ملتقى بحرين فى جهة المشرق، وكان معهما حوت مملوح ياكلان منه، لكن السفر والمشقة أنساهما الحوت وانطلق الحوت بآية من آيات الله إلى البحر، وعندما وصل موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتى بالطعام بعد طول التعب، لكن الفتى قال لموسى: إنه نسى الحوت، ولم ينسه إياه إلا الشيطان. وإن الحوت اتخذ طريقه إلى البحر، فقال موسى: إن هذا ما كنا نطلبه كعلامة على وصولنا إلى غايتنا وهى: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أى أمر الحوت وفقده هو الذى نطلب، فإن الرجل الذى جئنا نطلبه هناك عند مكان فقد الحوت، وارتد موسى والغلام على آثارهما مرة أخرى.

فلما التقى موسى عليه السلام بالعبد الصالح دار بينهما هذا الحوار: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] طلب منه موسى - عليه السلام - أن يصحبه ليتعلم شيئاً من علمه.

لكن العبد الصالح الذى وهبه الله من العلم ما يفوق استيعاب القدرة البشرية قال لموسى - عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴿[الكهف].

لقد كان موسى على علم مسبق بأن ضياع الحوت هو مسألة وإن كان فى ظاهرها شر يفقد الطعام، لكن فى باطنها خير؛ فهى العلامة التى يعرف بها موسى - عليه السلام - مكان التقائه بالعبد الصالح. ويستمر السياق فى قصة موسى والعبد الصالح، قصة ظاهرها الشر وباطنها الخير، سواء فى قصة السفينة التى خرقها أو الغلام الذى قتله، أو الجدار الذى أقامه.

لقد كان علم العبد الصالح علماً خاصاً لأجل إثبات قضية الرضا بالقضاء والقدر، سواء علمنا علة الحكم أم لم نعلمها فكل أمر لله سبحانه وتعالى فيه حكمة علينا أن نؤمن بها سواء علمناها أم جهلناها؛ لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضاً من هذا العلم، لكن العبد الصالح نبه موسى - عليه السلام - أن ما قد يراه هو فوق طاقة الصبر؛ لأن الذى سوف يراه موسى من أفعال حال صحبته للعبد الصالح قد يرى فيها شراً ظاهراً، لكن فى باطنها كل الخير.

وقبل موسى - عليه السلام - أن يقف موقف المتعلم بأدب مع العالم الذى وهبه الله ذلك العلم، واشترط العبد الصالح على موسى ألا يسأله إلا بعد أن يحدثه العبد الصالح عن الأسباب.

وركب موسى والعبد الصالح سفينة فإذا بالعبد الصالح يخرق السفينة فتعجب موسى - عليه السلام - من هذا الفعل، وقال له: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. فيرد العبد الصالح قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿[الكهف: ٧٢].

ويتذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر، لكن ما الذى يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يخرق سفينة تحملهم فى البحر؟ إنه أمر شاق على النفس؛ لذلك يقول موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] وينطلق العبد الصالح ومعه موسى - عليه السلام -، فيجد العبد الصالح غلاماً فيقتله، فيقول له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

ويُذَكِّرُ العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه، ويعتذر له موسى وتتواصل الرحلة فى طلب العلم، ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبوا من أهل هذه القرية أن يضيفوهما، لكن أهل القرية رفضوا ضيافتهم، ووجد العبد الصالح فى هذه القرية جداراً مائلاً يكاد أن يسقط فأقامه، فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

ساعتئذٍ حدث الفراق بين العبد الصالح وموسى، وأخبر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه. إن خرق السفينة كان لإنقاذها من الضياع والمحافظة عليها لأصحابها؛ لأن هناك ملكاً كان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، فأراد أن يعيها ليركها الملك لهؤلاء.

أما قتل الغلام فكان رحمة بأبويه المؤمنين، لأنه سبق فى علم الله تعالى أن هذا الابن سيكون كافراً، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبذلها خيراً منه.

وأما الجدار الذى أقامه فقد كان تحته كنز، وكان الكنز ليتيمين من هذه القرية، وكان والد اليتيمين صالحاً؛ لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا كنزهما.

ثم بعد كل ذلك قال العبد الصالح لموسى - عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] إن العبد الصالح لا ينسب العلم بهذه الأمور لنفسه، ولكن



ينسبه إلى علام الغيوب وهو سبحانه الذى علمه ذلك (١).

إذن.. فالحق يطلق بعضاً من قضايا الكون؛ حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائماً فيما يحب، وأن الشر فيما يكره؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فإن كان القتال فى ظاهره كرهاً لكم، ففيه خير لكم ونفع عظيم.

وبمناسبة ذكر الكره نوضح أن هناك: «كْرَه» و«كُرْه». إن «الكْرَه» بفتح الكاف: هو الشئ المكروه الذى تُحْمَل وتُكْرَهُ على فعله، أما «الكُرْه» بضم الكاف فهو الشئ الشاق (٢).

(١) راجع القصة بتمامها فى كتاب قصص الأنبياء للشيخ الشعراوى وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى.

(٢) قال الأزهري: ذكر الله عز وجل الكْرَه والكُرْه فى غير موضع من كتابه العزيز، واختلف القراء فى فتح الكاف وضمها، فروى عن أحمد بن يحيى أنه قال: قرأ نافع وأهل المدينة فى سورة البقرة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ بالضم فى هذا الحرف خاصة، وسائر القرآن بالفتح، وكان عاصم يضم هذا الحرف أيضاً، وللذين فى الأحقاف: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ويقرأ: سائرهم بالفتح، وكان الأعمش وحمة والكسائى يضمون هذه الحروف الثلاثة، والذى فى النساء: لا يحل لكم أن تروثوا النساء كُرْهًا ثم قرءوا كل شئ سواها بالفتح، قال: وقال بعض أصحابنا نختار ما عليه أهل الحجاز أن جميع ما فى القرآن بالفتح إلا الذى فى البقرة خاصة، فإن القراء أجمعوا عليه. قال أحمد بن يحيى: ولا أعلم بين الأحرف التى ضمها هؤلاء وبين التى فتحوها فرقاً فى العربية ولا فى سُنَّةِ تَبِيع، ولا أرى الناس اتفقوا على الحرف الذى فى سورة البقرة خاصة إلا أنه اسم، وبقيّة القرآن مصادر، وقد أجمع كثير من أهل اللغة أن الكْرَه والكُرْه لغتان، فبأى لغة وقع فجائز، إلا الفراء فإنه زعم أن الكُرْه ما أكرهت نفسك عليه، والكْرَه ما أكرهك غيرك عليه؛ تقول: جئتكَ كُرْهًا وأدخلتنى كُرْهًا، وقال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾، يقال: كرهت الشئ كُرْهًا وكُرْهًا وكُرَاهَةً وكُرَاهِيَةً، قال: وكل ما فى كتاب الله عز وجل من الكره فالفتح فيه جائز، إلا فى هذا الحرف الذى فى هذه الآية؛ فإن أبا عبيد ذكر أن القراء مُجْمِعُونَ على ضمه، قال: ومعنى كُرَاهِيَتِهِم القتال أنهم إنما كَرِهُوا على جنس غِلَظِهِ عليهم =

وقد يكون الشيء مكروهاً وهو غير شاق، وقد يكون شاقاً ولكن غير مكروه. والحق سبحانه يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾. ولنلاحظ أن الحق دائماً حينما يشرع فهو يقول: ﴿كُتِبَ﴾ ولا يقول: «كتب»؛ ذلك حتى نفهم أن الله تعالى لم يشرع إلا لمن آمن به، فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكليف.

إذن.. فالله سبحانه حين يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أى: على الذين آمنوا بالله طوعية واختاروا عبادة الله تعالى وحده وخلعوا عنهم الانداد والأصنام، هؤلاء بمقتضى إيمانهم بالله تعالى كتب الله عليهم التكليف. ومن جملة ما كلفهم به القتال؛ قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾.

وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يعنى أن القتال ساعة يُكتب لا يبدو من ظاهر أمره إلا المشقة، فجاءت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لتناسب الأمر. وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فنفرح بنصر الله لنا، وما أفاء علينا من الغنائم، وإذا قُتلنا فالشهادة ومقعد صدق عند مليك مقتدر فى جنة الخلد فرحين بلقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

= ومشقة، لا أن المؤمنين يكرهون فرض الله، لأن الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلاح. وقال الليث فى الكره والكره: إذا ضموا أو خفضوا قالوا كره، وإذا فتحوا قالوا كرهاً، تقول: فعلته على كرهٍ وهو كرهٌ، وتقول: فعلته كرهاً، قال: والكره المكروه؛ قال الأزهري: والذى قاله أبو العباس والزجاج فحسن جميل وقال: وما قاله الليث فقد قاله بعضهم، وليس عند النحويين بالبين الواضح. وقال الفراء: الكره، بالضم، المشقة. يقال: قمت على كرهٍ أى على مشقة. قال: ويقال أقامنى فلان على كرهٍ، بالفتح، إذا أكرهك عليه. قال ابن برى: يدل على صحة قول الفراء قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ أَسْلَمٌ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [آل عمران: ٨٢]؛ ولم يقرأ أحد بضم الكاف. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ولم يقرأ أحد بفتح الكاف فيصير الكره، بالفتح، فعل المضطر، والكره، بالضم، فعل المختار. وقال ابن سيده: الكره الإباء والمشقة تكلفها فتحتملها، والكره، بالضم، المشقة تحتملها من غير أن تكلفها. لسان العرب: [١٣ / ٥٣٤]

وتأمل قوله تعالى عن القتال إذ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ كَرَّةٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾. إنها قضية عامة كما قلنا. لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكل أمر علينا أن نرده إلى الحكيم العليم سبحانه الذى أجراه؛ لأنه تعالى هو الذى يعلم على الحقيقة ما ينفع عبده، وما يضره.

إذن.. علينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها، إن كانت خيراً أو شراً؛ لكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة فى ضوء قول الحق سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وعلينا بالتسليم والرضى بالقضاء والقدر، فهما من أركان الإيمان وبدونهما لا يصح.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، <sup>(١)</sup> وسبق لنا أن ضربنا المثل من قبل- والله المثل الأعلى- بالرجل الحنون الذى يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه فى الدنيا، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه قد يكون فيه الشفاء بإذن الله تعالى.

---

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى والله يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما؛ لأن الله يعلم الأشياء على ما هى عليه، والناس يشتهب عليهم العلم؛ فيظنون الملائم نافعاً والمنافر ضاراً.

والمقصود من هذا تعليم المسلمين تلقى أمر الله تعالى باعتقاد أنه الصلاح والخير، وأن مالم تبين لنا صفته من الأفعال المكلف بها، نوقن بأن فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه، فنطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندرکها؛ لنفرع عليها ونقيس ويدخل تحت هذا مسائل مسالك العلة؛ لأن الله تعالى لا يجرى أمره ونهيه إلا على وفق علمه.

التحرير والتنوير: [٣٢٣/٢].

## حكم القتال في الأشهر الحرم

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فِمَيَّتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة]

السؤال هنا ليس عن الشهر الحرام؛ لأنه كان معروفاً عندهم من أيام الجاهلية، ولكن السؤال عن القتال في الشهر الحرام، هذا السؤال له قصة. ونحن نعلم أن للسنة اثني عشر شهراً، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حراماً: شهر واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد، وهي ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ومعنى أشهر حرم: أى أن القتال محرم فيها (١).

(١) عن أبي بكرَةَ عن النبي ﷺ قال: «الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أى شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «أليس البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «أى يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم» قال محمد: وأحسبه قال: «وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا فى شهركم هذا، وستلقون ربكم فىسألكم عن أعمالكم؛ ألا فلا ترجعوا بعدى ضُلَّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليلُغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه». فكان محمد إذا ذكره قال: صدق النبي ﷺ ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت؟»

أخرجه البخارى [٧٤٤٧] واللفظ له، ومسلم [١٦٧٩ / ٢٩].

فإنَّ الله سبحانه وتعالى الخبير بخلقه يعلم تكبرهم وكبرياء بعضهم على بعض ومن سنَّه سبحانه أن جعل لهم ستاراً يحمي هذا الكبرياء، ومن هذه السنن التي سنَّها الله هي حرمة القتال في الأشهر الحرم، والأماكن الحرم، فيجوز أن الحرب تضر المحارب، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال، فيستمر في الحرب مهما كان الثمن، فيقول الحق سبحانه وتعالى للمتحاربين: ارفعوا أيديكم في هذه الشهور لأنني حرَّمت فيها القتال. وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب، ولكن كبرياءهم يمنعه من التراجع، وعندما يكون الحكم من خالق الأرض والسماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه. وكذلك جعل الله أماكن محرمة يحرم فيها القتال حتى يقول الناس: إن الله هو الذي حرَّمها، وتكون لهم ستاراً يحمي كبرياءهم.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان أراد أن يصون ذلك الإنسان حتى من نفسه ليحقن الدماء، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ثم شهراً آخر، فينعَموا في هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء، ربما يألفون السلام، ولا يفكرون في الحرب مرة أخرى، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سعار الحرب في نفوسهم، وهذه والله أعلم إحدى الحكم من وجود الأشهر الحرم.

والأشهر الحرم حُرِّم في الزمان والمكان؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث، فكل حدث يحتاج زماناً ومكاناً. وعندما يحرم الزمان ويحرم المكان فكل من طرفي القتال يأخذ هدنة من الحرب، وهي فرصة للهدوء والتروى والتعقل.

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد خصوم الإسلام من كفار قريش واليهود أن يثيروها؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرسل بعض السرايا للاستطلاع، والسرية هي عدد محدود من المقاتلين، فأرسل رسول الله ﷺ

سرية على رأسها عبد الله بن جحش الأسدي ابن عمه رسول الله ﷺ، وأرسل معه ثمانية أفراد، وجعله أميراً عليهم، وأعطاه كتاباً وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين؛ وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية، وفي ذلك احتياط في إخفاء الخبر. ثم يفتحه بعد ذلك، ولا يكره أحداً ممن معه على أن يسير مرغماً، بمعنى: أن يكون لكل فرد في السرية حرية الاختيار، فمن يرغب في عدم مواصلة السير في السرية فله أن يعود.

فلما سارت السرية ليلتين فتح عبد الله الكتاب وقرأه فإذا به: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما فيه.

وبينما هم في الطريق ضلَّ بغير لسعد بن أبي وقاص وعقبة بن غزوان، وذهبا يبحثان عن البعير، وبقي ستة مقاتلين مع عبد الله، وذهب الستة إلى «نخلة» فوجدوا عمرو بن الحضرمي ومعه ثلاثة على غير لقريش، فدخلوا معهم في معركة، وكان هذا اليوم في ظنهم هو آخر جمادى الآخرة، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أي أنه أحد أيام شهر حرام. وتشاوروا فيما بينهم فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلنَّ الحرم فليمتنعنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجَّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه وأخذ ما معهم، فقتل المسلمون ابن الحضرمي، قتله واقد بن عبد الله من أصحاب عبد الله بن جحش، وأسروا اثنين ممن معه، وفرَّ واحد. فأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالبعير والأسيرين فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فأوقف البعير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

وثارَت المسألة أخذاً ورداً بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث

قالوا: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فقام من يرد عليهم من المسلمين في مكة، وقالوا: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. فامتنع رسول الله ﷺ عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله في القضية؛ فنزل قول الله تعالى (١): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾ [البقرة] (٢)

وكان الله تعالى يقول: إن القتال في الشهر الحرام أمر عظيم، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتكم مع عبادي وقارنوا بين كبر هذا وكبر ذلك. أنتم يا كفار قريش تقولون: إن القتال في الشهر الحرام مسألة كبيرة، وهذا كلام صحيح ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، ثم تأخذكم غيرة مزعومة على الحرمات .

فكان الحق سبحانه أراد أن يلزمنا: بالألا نأخذ جزئية من الدين ونتحصن بها مع أن حياتنا كلها قائمة على الباطل.

(١) ذكر هذه القصة البيهقي في دلائل النبوة [٣ / ١٧ - ١٩]، وابن هشام في السيرة النبوية [٢ / ٢٥٥ - ٢٥٨]، والطبري في تفسيره [٢ / ٣٤٧ - ٣٤٨]، وابن كثير في البداية والنهاية [٣ / ٢٤٧ - ٢٤٩].

(٢) قال ابن القيم: يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتُموه أنتم من الكُفر بالله، والصدُّ عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من=

= قتالهم في الشهر الحرام، وأكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك، كقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أى: لم يكن مآل شركهم، وعاقبته، وآخر أمرهم، إلا أن تبرؤوا منه، وأنكروه. وحقيقتها: أنها الشرك الذى يدعو صاحبه إليه، ويقاقل عليه، ويعاقب من لم يفتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الدريات: ١٤] قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم، وغايتها ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]. وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنتكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] فَسُرَّتْ الفتنة ها هنا بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عَذَّبُوا المؤمنين ليفتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التى يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فتلك بمعنى آخر، وهى بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن فى ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التى يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التى أوقعها بين أصحاب على ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يقتاتلوا ويتهاجروا لون آخر.

وهى الفتنة التى قال فيها النبى ﷺ: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى»<sup>(١)</sup>. وأحاديث الفتنة التى أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين<sup>(٢)</sup>، هى هذه الفتنة.

(١) أخرجه البخارى [٧٠٨١] بلفظ: «ستكون فتن» بدلاً من: «ستكون فتنة». ومسلم [٢٨٨٧/١٣] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عن حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركنى. فقلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن» قلت: وما



ويحذرنا الله تعالى من التراخي والكسل، فإن هؤلاء الكفار والمشركين لن يتركوا المؤمنين ودينهم، ولكنهم دائمون أبداً على محاربة المؤمنين وإلحاق الأذى بهم حتى يرجعوا عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أى: إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام، بل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ أى وسيصبرون، ويداومون على قتالكم ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ

= وقد تأتى الفتنة ويراد بها المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ يقول الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لى فى القعود، ولا تفتنى بتعرضى لبنات بنى الأصفر، فإنى لا أصبر عنهن، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] أى: وقعوا فى فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر. وقال رحمه الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] من باب بدل الاشتمال، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فلم قدم الشهر، وقد قلتم إنهم يقدمون ماهم ببيانه أهم، وهم به أعنى؟.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال فى الشهر، وتشنيع أعدائهم عليهم، وانتهاك حرمة، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال. فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم فى الذكر؛ وكان تقديمه بلفظ الظاهر. وهلاً اكتفى بضميره فقال: «قل هو كبير» وأنت إذا سألته عن زيد: أهو فى الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أريد فى الدار؟.

قيل: فى إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهى تعلق الحكم الخبرى باسم القتال فيه عموماً، ولو أتى بالمضمر وقال: «وهو كبير» لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المستول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام فى كل قتال وقع فى شهر حرام. بدائع التفسير: [١ / ٣٩٣ - ٣٩٥]

= دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هدى، تعرف منهم وتكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بالسنتا» قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

أخرجه البخارى [٧٠٨٤] واللفظ له، ومسلم [١٨٤٧ / ٥١]

دِينَكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ﴿١﴾. وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ «إِنْ» معناها: تحدّ لهم بأنهم لن يستطيعوا أبداً ف«إِنْ» تأتي دائماً في الأمر المشكوك فيه (١).

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ جملة معترضة، دعا إلى الاعتراض بها مناسبة قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لما تضمنته من صدور الفتنة من المشركين على المسلمين، وما تضمنته الفتنة من المقاتلة التي تداولها المسلمون والمشركون.

إذ القتال يشتمل على أنواع الأذى، وليس القتل إلا بعض أحوال القتال، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩]، فسمى فعل الكفار مع المسلمين مقاتلة، وسمى المسلمين مُقاتلين- بفتح التاء- وفيه إعلام بأن المشركين مضمرون غزو المسلمين ومستعدون له، وإنما تأخروا عنه بعد الهجرة؛ لأنهم كانوا يقيسون آثار سنى جذب، فقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ وإن أشعر أن قتالهم موجود فالمراد به أسباب القتال، وهو الأذى وإضمار القتال كذلك، وأنهم إن شرعوا فيه لا يقطعوا عنه، على أن صريح «لا يزال» الدلالة على أن هذا يدوم في المستقبل، و ﴿حَتَّى﴾ للغاية وهي هنا غاية تعليلية والمعنى: أن فتنتهم وقاتلهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم وهو أن يردوكم عن دينكم. وقوله: ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم، فموقع هذا الشرط موقع الاحتراس مما قد توهمه الغاية في قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ ولهذا جاء الشرط بحرف: ﴿إِنْ﴾ المشعر بأن شرطه مرجو عدم وقوعه.

والرد: الصرف عن شيء والإرجاع إلى ما كان قبل ذلك، فهو يتعدى إلى المفعول بنفسه وإلى مازاد على المفعول بإلى وعن، وقد حذف هنا أحد المتعلقين وهو المتعلق بواسطة إلى؛ لظهور أنهم يقاتلونهم ليردوهم عن الإسلام إلى الشرك الذي كانوا عليه؛ لأن أهل كل دين إذا اعتقدوا صحة دينهم حرصوا على إدخال الناس فيه. قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٩].

خَالِدُونَ ﴿ هَذِهِ آيَةٌ يُقَابِلُهَا آيَةٌ أُخْرَى يَقُولُ الْحَقُّ فِيهَا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وإذا قارنا بين الآيتين نجد أن الآية الأولى قد ورد فيها قوله تعالى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وفي سورة المائدة لم يرد هذا، وإنما ورد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾. وقد اختلف العلماء في المسألة. ولكنهم اتفقوا أولاً على أن أى إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله. ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية، أى لم يمت وهو كافر، بل رجع فأمن بعد رده، فهل حبط عمله السابق على رده أم لم يحبط؟

الإمام الشافعى يقول: إن الذى يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التى كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له.

والإمام أبو حنيفة له رأى مختلف فهو يقول: لا، إن آية سورة المائدة ليس فيها: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وعليه فإننا نحملها على آية سورة البقرة التى ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد، وعلى ذلك فالذى يكفر بعد إيمانه عمله السابق محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع.

مثال ذلك: هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم ارتد إلى الكفر، ثم رجع فأمن أیظل له ثواب الحجة التى قام بها قبل الكفر، أم يحبط ثوابه ويطلب منه حج جديد؟. فالشافعى يرى أنه لا يحبط عمله مادام قد رجع

= وتعليق الشرط بل[إن] للدلالة على أن استطاعتهم ذلك ولو فى آحاد المسلمين أمر مستبعد الحصول؛ لقوة إيمان المسلمين، فتكون محاولة المشركين رد واحد من المسلمين عناء باطلاً.

التحرير والتنوير: [٢ / ٣٣١]

لأن الله قال: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾. فمعنى ذلك أنه إن لم يمِت على الكفر فإن عمله لا يحبط. ولكن لا يأخذ ثواباً على ذلك الحج الذى سبق له أن أداه، لقد التفت الإمام الشافعى - رضى الله تعالى عنه - إلى شئ قد يغفل عنه كثير من الناس، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام، فالذى لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره، والذى حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله (١).

(١) معنى الرِّدَّة لغة: الرجوع عن الشئ إلى غيره، وهى أفحش الكفر وأغلظه حكماً، ومحبطة للعمل إن اتصلت بالموت عند الشافعية، وبنفس الردة عند الحنفية، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وهى شرعاً: الرجوع عن دين الإسلام إلى الكفر سواء بالنية أو بالفعل المكفّر أو بالقول، وسواء له استهزاء أو عناداً أو اعتقاداً.

وعلى هذا فالمرتد: هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر، مثل من أنكر وجود الصانع الخالق، أو نفى الرسل، أو كذب رسولاً، أو حلل حراماً بالإجماع: كالزنا واللواط وشرب الخمر والظلم، أو حرّم حلالاً بالإجماع: كالبيع والنكاح، أو نفى وجوب مجمع عليه: كأنه نفى ركعة من الصلوات الخمس المفروضة، أو اعتقد وجوب ما ليس بواجب بالإجماع: كزيادة ركعة من الصلوات المفروضة، أو وجوب صوم شئ من شوال، أو عزم على الكفر غداً، أو تردد فيه. الفقه الإسلامى وأدلته [٦ / ١٨٣] وقال ابن العربي: اختلف العلماء رحمة الله عليهم فى المرتد، هل يُحْبِطُ عَمَلُهُ نَفْسُ الرِّدَّةِ أم لا يُحْبِطُ إلا على الموافاة على الكفر؟.

فقال الشافعى: لا يحبط له عمل إلا بالموافاة كافراً. وقال مالك: يحبط بنفس الردة. ويظهر الخلاف فى المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم، فقال مالك: يلزمه الحج؛ لأن الأول قد حبط بالردة. وقال الشافعى: لا إعادة عليه لأن عمله باق.

واستظهر عليه علماؤنا بقول الله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقالوا: هو خطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته؛ لأنه ﷺ يستحيل منه الردة شرعاً.

وقال أصحاب الشافعى: بل هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة، وبيان أن النبي ﷺ على شرف منزله لو أشرك لحبط عمله، فكيف أنتم؟ لكنه لا يشرك=

على الإيمان؛ فكأن الأعمال التي طلبها منك الحق سبحانه وتعالى وكلفك بها إن لم تفعلها عوقبت، وإن فعلتها يمر عملك بمرحلتين:

المرحلة الأولى: هي ألا تعاقب.

المرحلة الثانية: هي أن تُثاب على الفعل.

قال الشافعي: إن الشخص إذا فعل فعلاً يُثاب عليه الإنسان، ثم كفر، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يعاقب، ولكنه لا يُثاب.

أما الإمام أبو حنيفة فقد قال: إنه لا عبرة بعمله الذي سبق الرد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٢] أي: أبطلت، وزالت. وكأنها لم تكن؛ إن كلمة: «حبط»، تستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس، فيقال: «حبطت الماشية» أي: أن تأكل كثيراً حتى تنتفخ بطنها، وعندما تنتفخ فقد تموت.

= لفضل مرتبته، كما قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٢٠] وذلك لشرف منزلتهن، وإلا فلا يتصور إتيان فاحشة منهن، صيانة لصاحبهن المكرم المعظم.

قال ابن عباس حين قرأ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، والله ما بغت امرأة نبي قط، ولكنهما كفرتا.

وقال علماؤنا: إنما ذكر الموافاة شرطاً هاهنا؛ لأنه علّق عليها الخلود في النار جزاءً، فمن وافى كافراً، خلدّه الله في النار بهذه الآية، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى، فهما آيتان مفيدتان لمعنيين مختلفين وحكميين متغايرين، وما خوطب به النبي ﷺ فهو لأمته حتى يثبت اختصاصه به، وما ورد في أزواجه ﷺ فلأنما قيل ذلك فيهن؛ ليبين أنه لو تصور لكان هتكاً لحرمة الدين وحرمة النبي ﷺ، ولكل هتك حرمة عقاب، وينزل ذلك منزلة من عصى في شهر حرام، أو في البلد الحرام، أو في المسجد الحرام، فإن العذاب يضاعف عليه بعدد ماهتك من الحرمات، والله الواقى لا رب غيره.

أحكام القرآن: (١ / ١٤٧، ١٤٨)

والنبي ﷺ يقول: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطًا أو يُلِمُّ» (١).

إنه ﷺ يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر، مثلما يحدث في الربيع الذى ينبت فيه من النبات الذى يعجب الماشية، فتأكله بكثرة فتنتفخ ثم تموت، أو «يُلِمُّ» أى: توشك أن تموت، وكذلك الأعمال التى فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن، وكل هذه الأعمال الباطلة ستحبط كما تحبظ الماشية التى أكلت هذا النوع من النبات، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سمنة؛ وبعد ذلك يفاجأ بأنه مريض.

لقد أعطانا رسول الله ﷺ من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين؛ فالماشية عندما تحبظ تبدو وكأنها نمت وسمنت، لكنه نمو غير طبعى، إنه ليس شحمًا أو لحمًا، لكنه انتفاخ، كذلك عمل الذين كفروا؛ عمل حابط، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ظاهرها أنها طيبة وحسنة.

ويقول بعض الناس: هؤلاء الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير؟ لقد اكتشفوا علاجاً لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس، وصنعوا أشياء كثيرة نافعة للبشرية كلها. ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى: لمن يساوره شك فى أن عمل هؤلاء مُحَبَط، أن هناك قضية يجب أن تتفق عليها وهى

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٤٢٧] عن أبى سعيد بلفظ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض» قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا» فقال له رجل: هل يأتى الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه يتزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: «أين السائل؟» قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك. قال: «لا يأتى الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَصْرَةٌ حُلُوءٌ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطًا أو يُلِمُّ إلا أَكَلَةُ الْخَضِرَةِ؛ أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس فاجترت وثلثت وبالت، ثم عادت فأكلت وإن هذا المال حُلُوءٌ، من أخذه بحقه ووضعه فى حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع».

وأخرجه مسلم [١٠٥٢/١٢٢].

أن الذى يعمل عملاً، فهو يطلب الأجر من عمل له، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله، أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة؟ (١) لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة، وما داموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا التى عملوا لها فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة التى لم تكن فى بالهم حين عملوا ما عملوا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢) [النور: ٣٩].

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد. فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال: جرى، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله. فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه. ثم ألقى فى النار».

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر. والسراب: ما يرى نصف النهار فى اشتداد الحر، كالماء فى المفاور يلتصق بالأرض. والأكل الذى يكون ضحاً كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء. وسُمى السراب سراباً؛ لأنه يَسْرُبُ أى: يجرى كالماء. ويقال: سَرَبَ الفحل أى: مضى وسار فى الأرض. ويسمى الآل أيضاً، ولا يكون إلا فى البرية والحر فيغتر به العطشان. والقيعة جمع القاع؛ مثل جيرة وجار؛ قاله الهروى، وقال أبو عبيدة: قيعة وقاع واحد؛ حكاه النحاس. والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب. وأصل القاع الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. قال الجوهري: والقاع: المستوى من الأرض؛ والجمع أقوع وأقواع.

إن الذى يموت وهو كافر، أعماله فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجد ماءً، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكافرين به - سبحانه - عندما يحشرون إلى الله تعالى، فيعرضون عليه سبحانه، فلن يجدوا أثراً لعملهم الذى أحبط بكفرهم، ولن يجدوا إلا الله تعالى لهم بالمرصاد. ويجد الواحد منهم نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب، وليس لهم من جزاء إلا النار، وينطبق عليهم ماينطبق على كل الكافرين بالله وهو ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا، وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله ﷺ حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين، فيعلمنا أنهم لن يدخروا وسعاً حتى يردوكم عن دينكم؛ لأن منهج الله دائماً لا يخيف إلا المبطلين؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعيش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادئ الإسلام، إنما ترهق مبادئ الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا جهد غيرهم، وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم، ولكن هل يُمكنهم الله من ذلك؟.

= وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ والقيعة مثل القاع، وهو أيضاً من الواو. وبعضهم يقول: هو جمع. ﴿يَحْسَبُ الظَّمْآنُ﴾ أى العطشان ﴿مَاءً﴾. أى يحسب السراب ماء. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما قدره ووجد أرضاً لا ماء فيها. وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكفار، يُعَوِّكُونَ على ثواب أعمالهم، فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم مُحْبَطَةً بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها، فهو يهلك أو يموت ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾. أى: وجد الله بالمرصاد. ﴿فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أى جزاء عمله.

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حشره، والمعنى متقارب. تفسير القرطبي: [١٢ / ٢٨٢، ٢٨٣] بتصرف.



لا؛ لن يمكنهم الله من أمة حبيبه ﷺ فمهما علا الباطل فهو إلى زوال، ولا بد لهذا الليل الطويل الذي يعيشه المسلمون أن ينجلي - إن شاء الله تعالى - فمن فضل الله تعالى علينا أن جعل مناعتنا ذاتية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحديث يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» (١).

إن الفرق الجوهرى بين المؤمن والكافر، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفي نيته أن المكافئ هو الله تعالى، وهو يتجه إليه سبحانه بنية خالصة في كل عمل. ويأخذ بأسباب الله في العلم ليتنفع به غيره من الناس؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة، وعلى المؤمن أن يكون منارة تشع بالعلم والإيمان، لا أن يترك غيره من الكافرين يعملون ويجدون في سبيل الوصول إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان؛ إن المؤمن أولى بذلك من الكافر.

أما عمل الكافر فهو عمل من مُسَخَّرٍ كالمطايا والجماد والنبات والحيوان، فإن كل ذلك مُسَخَّرٌ لخدمة الإنسان. وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ألا يحفز هذا المؤمن أن يسبق الكافر في تنمية المجتمع، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله؟!

نسأل الله تعالى أن يوفق المؤمنين في جهدهم وجهادهم. وأن يكونوا دائماً عوناً للحق على الباطل؛ حتى يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] وأن ينصروا الله في أنفسهم باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ لينصروهم سبحانه؛ ويعلى من شأنهم؛ ويظهرهم على عدوهم

وصلى الله تعالى على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم [١٩٢٠ / ١٧٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه.



# مصادر الدراسة والتحقيق

## القرآن الكريم وعلومه

أسباب النزول	للسيوطي	المكتبة الثقافية	بيروت
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	محمد فؤاد عبد الباقي	دار الجيل	بيروت
المعجم المفهرس لآيات القرآن	محمد منير الدمشقي	مكتبة التراث الإسلامي	مصر
معجم الاعلام والموضوعات فى القرآن	عبد الصبور مرزوق	دار الشروق	مصر
القاموس القويم للقرآن الكريم	إبراهيم أحمد عبد الفتاح	مجمع البحوث	مصر
جامع البيان	لابن جرير الطبرى	إحياء الكتب العربية	مصر
تفسير الطبرى	لابن جرير الطبرى	دار المعارف	مصر
تفسير القرآن العظيم	لابن أبى حاتم	مكتبة الباز	السعودية
التفسير الكبير	فخر الدين الرازى	إحياء التراث	بيروت
الجامع لاحكام القرآن	القرطبي	دار الكتب	مصر
البحر المحيط	لابى حيان	دار الفكر	بيروت
تفسير القرآن العظيم	لابن كثير	دار الجيل	بيروت
بصائر ذوى التمييز	للغيروزآبادى	المجلس الاعلى	مصر
الكشاف	للزمخشري	دار المعرفة	بيروت
الدر المشور	للسيوطي	دار الفكر	بيروت
فتح القدير	للسوكانى	دار الوفاء	مصر

محاسن التأويل	للقاسمي	إحياء الكتب العربية	مصر
تفسير المنار	محمد رشيد رضا	هيئة الكتاب	مصر
التحرير والتنوير	محمد الطاهر بن عاشور	الدار التونسية	تونس
عمدة التفسير	أحمد محمد شاكر	مكتبة التراث الإسلامي	مصر
أحكام القرآن	لابن العربي	دار الجيل	بيروت
بدائع التفسير	لابن القيم	دار ابن الجوزي	السعودية

### الحديث النبوي وعلومه

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	مجموعة مستشرقين	مكتبة بريل	ليدن
تحفه الأشراف بمعرفة الأطراف	للإمام المزي	المكتب الإسلامي	بيروت
موسوعة أطراف الحديث	سعيد زغلول	دار الكتب العلمية	بيروت
أطراف مسند الإمام أحمد	ابن حجر العسقلاني	دار ابن كثير	سوريا
الجامع الصحيح	للإمام البخاري	المكتبة السلفية	مصر
الجامع الصحيح	للإمام مسلم	إحياء الكتب العربية	مصر
سنن أبي داود	للإمام لأبي داود	دار الجيل	بيروت
سنن النسائي	للإمام النسائي	المطبوعات الإسلامية	بيروت
سنن الترمذي	للإمام الترمذي	إحياء الكتب العربية	مصر
سنن ابن ماجه	للإمام ابن ماجه	عيسى الحلبي	مصر
الموطأ	للإمام مالك	دار الحديث	مصر
المستند	للإمام أحمد بن حنبل	المطبعة الميمنية	مصر
المستند بتحقيق الشيخ شاكر	للإمام أحمد بن حنبل	مكتبة التراث الإسلامي	مصر

سنن الدارمي	للإمام الدارمي	دار الفكر	بيروت
السنن الكبرى	للإمام النسائي	دار الكتب العلمية	بيروت
المستدرك	للمحاكم	دار الكتب العلمية	بيروت
المعجم الكبير	للطبراني	إحياء التراث العربي	بيروت
السنن الكبرى	لليهنى	دار الكتب العلمية	بيروت
عمل اليوم والليلة	للسائي	دار الكتب الثقافية	بيروت
دلائل النبوة	لليهنى	دار الكتب العلمية	بيروت
كتر العمال	علاء الدين الهندي	دار الرسالة	بيروت
صحيح سنن أبي داود	الألباني	مكتبة التربية العربي	بيروت
صحيح سنن النسائي	الألباني	مكتبة التربية العربي	بيروت
صحيح سنن الترمذي	الألباني	مكتبة التربية العربي	بيروت
صحيح ابن ماجه	الألباني	مكتبة التربية العربي	بيروت
صحيح الجامع الصغير	الألباني	المكتب الإسلامي	بيروت
مجمع الزوائد	للهيتمي	مؤسسة المعارف	بيروت
شرح صحيح مسلم	النووي	دار أبي حيان	مصر
فتح الباري شرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني	دار الفكر	بيروت

### كتب اللغة

لسان العرب	لابن منظور	دار صادر	بيروت
المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية	دار الدعوة	تركيا

## كتب الفقه

الفقه الإسلامى وأدلته      د. وهبه الزحيلي      دار الفكر      سوريا

## كتب متنوعة

بيان وجوب الهجرة على المباد	عثمان بن فودي	جامعة إكسفورد	بريطانيا
جلاء الانهام	لابن القيم	دار ابن الجوزى	السعودية
طريق الهجرتين	لابن القيم	مكتبة المزيّد	السعودية

# الفهارس

- ١- فهرس الآيات
- ٢- فهرس الأحاديث
- ٣- فهرس البلدان والأماكن
- ٤- فهرس الأعلام
- ٥- فهرس الأشعار
- ٦- فهرس الموضوعات





## فهرس الآيات القرآنية

الصفحة

السورة

الآية

### ١ - سورة الفاتحة

٧ ﴿ صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ... ٦١

### ٢ - سورة البقرة

١٨ ﴿ مِمَّنْ بِكُمْ عَمَىٰ قَهْمٌ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ..... ٣٠

٢١ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدًا ﴾ ..... ١٤٥

٢٣ ﴿ وَلَٰنَ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا ﴾ ..... ١١٩

٦٤ ﴿ ثُمَّ قَوَّيْنَاهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ..... ١٢

٦٦ ﴿ لَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ ..... ٨٩

٨٣ ﴿ ثُمَّ قَوَّيْنَاهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ..... ١٣

١٠٢ ﴿ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ..... ٦٩

١٠٩ ﴿ فَاعْبُدُوا وَأَصْلَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ ..... ١٥٩

١٧١ ﴿ مِمَّنْ بِكُمْ عَمَىٰ قَهْمٌ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ..... ٣٠

١٧٨ ﴿ فَمَنْ عَمَىٰ لَهُ مِنْ أَجْدِ ثَمَرٍ ﴾ ..... ١٩٨

١٧٩ ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ ..... ٢٥

١٩٠ ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم ﴾ ..... ١٦٩، ١٦٣، ١٤٦، ١٤٤

١٩١ ﴿ وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَفْتَنُونَهُمْ ﴾ ..... ١٨٧، ١٧٩

١٩١ ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَاهِ ﴾ ..... ١٨١

١٩٢ ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ فَانْصَرِفْ عَنْكُمْ وَرَحِمَ اللَّهُ ﴾ ..... ١٧٩

١٩٣ ﴿ وَقَاتِلُوا حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ..... ١٩٠، ١٨٦، ٤٧

١٩٤ ﴿ انْهَرِ الْحَرَمَ وَالْأَنْهَارَ الْمَكْرَاهِ ﴾ ..... ١٩٦، ١٩٢

١٩٥ ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ..... ١٥٣

الآية	السورة	الصفحة
٢٠٥	﴿ وَلَئِنَّا قَوْلٌ فِي الْأَرْضِ ﴾	١٢
٢٠٧	﴿ وَبَيْنَ الْيَاسَنِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾	٦٩
٢١٦	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَمَنْ كَفَرَ لَكُمْ ﴾	٢٠٧، ١٩٩، ١٢٩، ٤١
٢٤٦	﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ ﴾	١٥٧
٢٤٩	﴿ كُمْ مِنْ يَفْكَرُ قَلِيلًا ﴾	٩٨
٢٥١	﴿ وَكُلُوا دَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ ﴾	٧٣، ٥٠
٢٥٦	﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾	١٥٣
٢٥٧	﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	٩٥
٢٨٦	﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	٦٦

### ٣ - سورة آل عمران

٣١	﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾	١٤٧
٦٤	﴿ قُلْ بِمَا هَلَكَ الْأَكْثَرُ قَالُوا إِلَّا كَلِمَةً سَوءٍ ﴾	١٣
٨٢	﴿ فَمَنْ قَوْلَ مَدْيَنَ ذَلِكَ فَاتَّخِذْهَا ﴾	١٣
٨٣	﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	٢٠٦
٨٥	﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ مَذْهَبَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾	١٢
٩٧	﴿ مَقَامُ الزَّيْبِ وَمَنْ دَخَلَ كَانَ مَلُومًا ﴾	١٨٤
١١٠	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ لِنَاسٍ ﴾	٢٢١، ٤
١١٨	﴿ لَا تَتَّخِذُوا مِلَّةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾	١٢٥
١٢٦	﴿ وَمَا اتَّخَذَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾	٨٤
١٣٤	﴿ وَالْمُطَلَبِينَ الْقِتَالِ وَالْمُطَلَبِينَ مِنَ النَّاسِ ﴾	١٩٨
١٥٦	﴿ لَوْ كَانُوا مِنْكُمْ مِثْلُ مَا كَانُوا وَمَا قُولُوا ﴾	١١٣
١٥٩	﴿ وَكَوْنَتْ كَلِمَةً خِلَافَ الْقَلْبِ ﴾	١٤٠، ١٣٩
١٦٩	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	١٥٥، ١٤٧، ١٠٨، ٧٢

الآية	السورة	الصفحة
-------	--------	--------

١٧٣	﴿ الَّذِينَ قَالْ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ ..... ﴾	٤
٢٠٠	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْدِرُوا ﴾	١٣٩
٤ - سورة النساء		
٢١	﴿ وَآخَذَتْ مِنْكُمْ يَمِينًا غَلِيظًا ﴾	١٣٩
٦٠	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾	٣٤
٧٤	﴿ فَلْيَقْنِئِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٧٦، ٧٤، ٧٠، ٦٩، ٥٢

٨٢، ٨١، ٧٧

٧٥	﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٩٢، ٩١
٧٦	﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٩٤
٧٧	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾	١٠٦، ١٠٤
٧٩	﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾	١١
٨٤	﴿ فَقَنِئِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٨٤، ٨١
٩٥	﴿ لَا يَسْتَوِ الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	١٢٧، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٤٢
٩٦	﴿ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَقَرَّةٌ وَرَحْمَةٌ ﴾	٦٠
٩٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَافِرِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ﴾	٦٣
٩٨	﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ مِنَ الرِّجَالِ ﴾	٩٣
١٠٣	﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُفُّوهُ ﴾	٥٧
١٤٢	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخْلِدُونَ ﴾	١٩
١٤٥	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ ﴾	٢٨

## ٥ - سورة المائدة

١	﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ رَيْبَةُ الْأَنْعَامِ ﴾	٦١
٨	﴿ وَلَا يَجْعَلْكُمْ شَتَاً قَوْمٌ عَلَىٰ آلَا ﴾	١١٢
٣٥	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾	٤٠، ٣٩، ٣٧

الآية	السورة	الصفحة
-------	--------	--------

٥٤ ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ ..... ١٤٧، ١٤٠

٥٦ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ..... ١٣

#### ٦ - سورة الأنعام

١٩ ﴿وَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰكَذَا الْقَوْمِ﴾ ..... ١٤٢

٣٥ ﴿فَإِنْ اسْتَظْلَمْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا﴾ ..... ١٩

١٢٩ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفِيءُ الْفَٰلِيقِينَ بَعْثًا﴾ ..... ١٣

#### ٧ - سورة الأعراف

١٥٨ ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ ..... ١١

١٩٩ ﴿خُذِ الْعَصَا وَأْمُرْ بِالْعُرُبِ وَأْمُرْ مِنَ الْجَبَلِاتِ﴾ ..... ١٩٨

#### ٨ - الأنفال

١٧ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ ..... ١٣٤

٣٢ ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ..... ١١٨

٣٣ ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ..... ٩٩

٣٣ ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ..... ١١٧

٣٩ ﴿وَقَدْ بَلَّغْتُمْ حَقِّي لَا تَكُونُوا فِتْنَةً وَيَسْكَوُنَ الَّذِينَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ..... ٤٧

٤٥ ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنصِرُكُمْ﴾ ..... ١٢٨

٥٧ ﴿فَإِنَّا تَتَّقِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ﴾ ..... ١٨٠

٦٠ ﴿وَأَعِزُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَظْلَمْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ..... ٤٩

٦٥ ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ حَزَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَيْتَالِ﴾ ..... ٨٣

#### ٩ - التوبة

٥ ﴿فَإِنَّا أَسْلَخْنَا الْإِبْرَاهِيمَ الْحَرَّمَ﴾ ..... ١٨٧، ١٨٦

١٢ ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِمَا كُفَرْتُمْ﴾ ..... ١٣٥، ١٣٢

١٢ ﴿فَقُولُوا آمَنَّا بِالْكَثْرِ﴾ ..... ١٣٥

﴿ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ .....	١٣	٩٥
﴿ أَتَعْذِرُونَهُ قَالَ اللَّهُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ .....	١٣	٩٧
﴿ فَتِلْوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ .....	١٤	٩٨
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ﴾ .....	١٦	١٢٣
﴿ وَيَوْمَ حَسْبُكُمْ إِذْ أَغْصَبَكُمْ كَثُرْتُكُمْ ﴾ .....	٢٥	٨٤
﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بُقِلْتُمْ ﴾ .....	٣٦	١٣٧
﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا ﴾ .....	٣٨	١٢٩
﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .....	٤١	١٢٨
﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ﴾ .....	٥٢	٧٨
﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ ...	٥٢	٩٧
﴿ وَتَحْمِلُونَ بِاللَّهِ إِثْمَ لَيْسَ لَكُمْ ﴾ .....	٥٦	٢٧
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .....	٧٣	١٤٣
﴿ يَحِلُّونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا ﴾ .....	٧٤	٢٧
﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ .....	٧٧	١٩
﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ .....	٩١	٥٨
﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ .....	٩٢	٦٢
﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .....	١١١	١٤٦، ٧٠، ٥٢، ٤١، ٣
﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .....	١١٩	٦٦
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ ﴾ ...	١٢٠	٦٢
﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ .....	١٢٠	١٢٨، ٦٦، ٦٥
﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يُسِيرُوا ﴾ .....	١٢٢	١٢٧
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ ﴾ .....	١٢٣	١٤٢، ١٣٧
﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ .....	١٢٦	١٢٧

الآية	السورة	الصفحة
١٠ - يونس		
٣٨	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِآيَاتِكُمْ ﴾	١١٩
٥٨	﴿ قُلْ يَفْضَلُ أَعُوذُ بِرَحْمَتِهِ ﴾	١١٣
٩٩	﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ الْآزْوَاجِ ﴾	٣
١١ - هود		
١٣	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِآيَاتِكُمْ ﴾	١١٩
١٢ - يوسف		
٢٠	﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾	٦٩
١٣ - الرعد		
٤١	﴿ نَارِي الْأَرْضِ نَفْثُهَا مِنْ أَمْزَانِهَا ﴾	١٣٨
١٤ - إبراهيم		
١٧	﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾	١٣٩
٢٢	﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾	١٩
١٥ - النحل		
١٢٦	﴿ وَلَئِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ﴾	١٨٠
١٦ - الإسراء		
١	﴿ مَبْنَحَيْنَ الَّذِي آتَيْنَاهُ وَمَبْنَحَيْنَهُ لَيْلًا ﴾	٧٧
٨	﴿ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدَّاكُمْ وَمَعَكُمْ جَاهَنَّمُ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾	١٩٨
٨٨	﴿ قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾	١١٩
١٧ - الكهف		
١٣	﴿ إِنَّمَا فَتِيَّةٌ مَأْمُونَةٌ بِرَبِّهِمْ ﴾	١٧
٢٩	﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾	٧٦، ٢٤

- ٦٥:٦٠ ﴿وَلَا قَالٌ مُّومِنٌ لِّفِتْنَةٍ﴾ ..... ٢٠٢
- ٦٨:٦٧ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ..... ٢٠٣
- ٧٢ ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ..... ٢٠٤
- ٧٤ ﴿أَنفَلْتَ نَفْسًا رَّكْبَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ..... ٢٠٤
- ٧٧ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ..... ٢٠٤
- ٨٢ ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ ..... ٢٠٤

## ١٨ - طه

- ١٢٨ ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمُ﴾ ..... ١١٤
- ١٢٩ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ..... ١١٧
- ١٣٠ ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ..... ١١٨

## ١٩ - الأنبياء

- ٦٩ ﴿قُلْنَا يَنَّاؤُ كُوفِي بِرُذَا وَسَلَمًا﴾ ..... ٨٥
- ١٠٧ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ..... ١٤١

## ٢٠ - الحج

- ١٩ ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ اٰخَصَصْنَاهُ﴾ ..... ١٤٥
- ٣٩ ﴿أُوْدِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا﴾ ..... ١٤٤
- ٣٩ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ..... ١٤٥
- ٤٠ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ..... ٧٣
- ٤٠ ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ ..... ١١٥
- ٦١ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ..... ١٢٥

## ٢١ - النور

- ٢ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ..... ٢٦
- ١١ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ..... ١٣

الآية	السورة	الصفحة
٦١	﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ .....	٦٦
٢٢ - الفرقان		
٥٢	﴿ جَهَنَّمَ كَافِرًا ﴾ .....	١٤٥
٥٧	﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ .....	١٩١
٢٣ - الشعراء		
٤:٣	﴿ لَمَّا بَلَغَ نُسْكَهُ إِلَّا بِكُفْرٍ أَتَيْنَ ﴾ .....	١٥٩
٢١٤	﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .....	١٤٢
٢٤ - العنكبوت		
٢	﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ .....	١٩٠
٤٠	﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ..	٧
٢٥ - الروم		
٧٠٦	﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .....	١٣٥
٣٠	﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرِ النَّاسِ عَلَيَّهَا ﴾ .....	١٦
٣٠	﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرِ النَّاسِ عَلَيَّهَا ﴾ .....	١٥٧
٢٦ - لقمان		
٢٥	﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .....	٢٠
٢٧ - الأحزاب		
٢٣	﴿ سَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .....	٣
٤٨	﴿ وَلَا تُلْجِ الْأَكْفَرِينَ وَالْمُشَفِّقِينَ ﴾ .....	١٥٩
٧٢	﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ ﴾ .....	٧٤
٢٨ - سبأ		
٣٩	﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ .....	٧٧



الآية	السورة	الصفحة
-------	--------	--------

٢٩ - فاطر

٢٩ ﴿ يَرْجُونَ مِجْرَةً لَّانْ تَكُونُ ﴾ ..... ٧٠

٣٠ - الصافات

١٧١ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتَا لِيَابِنَا الْتَرْسِينَ ﴾ ..... ١١٤

٣١ - الشورى

٧ ﴿ لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ..... ١٤٢

٤٠ ﴿ وَاعْرِضْ سِنْتَ سِنْتَ نِظَاهَا ﴾ ..... ١٧

٤٠ ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ..... ١٨٠

٣٢ - الزخرف

٣٢ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ ..... ٩٠

٣٣ - الأحقاف

١٥ ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ..... ٢٠٥

٣٤ - محمد

٤ ﴿ فَإِنَّا لَیَقِیْنَهُ الَّذِیْنَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ ..... ٤٧

٢٠ ﴿ وَیَقُولُ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا لَوْلَا تُزَكَّىٰ سُوْرَةٌ ﴾ ..... ١٠٥

٣٥ - الفتح

١٧ ﴿ لَیْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ ..... ٥٩

٢٥ ﴿ هُمُ الَّذِیْنَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ ﴾ ..... ١٦٩

٢٧ ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرَّيَا بِالْحَقِّ ﴾ ..... ١٨٣، ١٦٤

٢٩ ﴿ أَمِیْنُهُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمًا یَبْسُتُهُمْ ﴾ ..... ١٤٠

٣٦ - الحجرات

٩ ﴿ وَلَیْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِیْنَ ﴾ ..... ١٩٠

١٤ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ ..... ١٢٤

الآية	السورة	الصفحة
	٣٧ - الطور	
٣٥	﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾	٢٢.....
	٣٨ - القمر	
٥٤	﴿ إِنَّ لِلَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَهَرٍ ﴾	١١٢.....
	٣٩ - الحديد	
١٣	﴿ ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاسْأَلُوهُ فَاخْبَرُكُمْ ﴾	٢٩.....
١٤	﴿ وَارْتَقِبْهُمْ وَاصْرِكُمْ الْأَمَانَةَ ﴾	٣٠.....
٢٣	﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾	٢٠٧.....
٢٥	﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يُصِرُّ وَيُؤْمِرُ بِالْقَيْبِ ﴾	٥٠.....
٢٥	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾	٥٠.....
	٤٠ - المجادلة	
١٤	﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾	٢٧.....
	٤١ - الممتحنة	
٨	﴿ لَا يَتَّبِعُكَ اللَّهُ عَنْ أَلَيْسَ لَمْ يَقْبَلِكُمْ ﴾	١٠٠.....
	٤٢ - الصف	
٤	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾	٥٢.....
١٢:١٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾	١٤٦.....
١٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾	١١١، ٥٢.....
١٣	﴿ نَصْرٌ مِنْ أَهْلِ رَبِّكَ قَرِيبٌ ﴾	١٤٦.....
	٤٣ - المنافقون	
٣	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾	٣٠.....
٤	﴿ هُمُ الْمُنَافِقُونَ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾	٢٨.....

الآية	السورة	الصفحة
-------	--------	--------

٤٤ - التغابن

١٦ ﴿ نَأْتُوا اللَّهَ مَا نَسْتَدْعِمُهُ ﴾ ..... ١٧٣

٤٥ - التحريم

٩ ﴿ يَأْتِيهَا النَّوْءُ جَهْدًا الْحُمْفَرُ وَالْمُنَوِّفُونَ ﴾ ..... ٢٦، ٢٤، ١٦

٤٦ - القلم

١ ﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ..... ١٢١

٤٧ - الزمل

١٠ ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ..... ١٢٢

١٢ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ ..... ٨٩

٤٨ - المدثر

١١ ﴿ ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقْتُ رَجْدًا ﴾ ..... ١٢١

٣١ ﴿ وَرَبَّكَدَّ الْفَيْنَ مَا نَرَا لِنَا ﴾ ..... ١٧

٤٩ - المطففين

٢٦ ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ ..... ١٤٠

٥٠ - الفجر

٦ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ﴾ ..... ١١٤

٢٧ ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ..... ١٧

٥١ - الشمس

٨ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ..... ١٦

## فهرس الأحاديث

الصفحة	الراوى	طرف الحديث
١٧٨	حكيم بن حزام	أبدأ بنفسك ثم بمن تعول
١١٦	أبو أمامة الباهلى	أحبب لأمك؟
٢٩	أبو هريرة	أندرون ما المفلس
١٩٤	أبو هريرة	أد الأمانة إلى من ائتمنك
٣٦	ابن أبى مليكة	أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله
٥٤	البراء بن عازب	ادعوا فلاناً
١٢٨	ابن عباس	إذا استنفرتم فأنفروا
٦٣	أبو بكرة	إذا تواجه المسلمان بسيفيهما
٣٩	عبد الله بن عمرو	إذا سمعتم المؤذن فقولوا
١٥٣	ابن عمر	إذا ضن الناس بالدينار
١٦٢	كعب بن مالك	إذا فتحتم مصر فاستوصوا
٦٣	أبو موسى الأشعري	إذا مرض العبد أو سافر
١٥٥	ابن مسعود	أرواحهم فى جوف طير خضر
٣٨	عمر بن الخطاب	الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله
١١	جابر بن عبد الله	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من
١٥٦	نعيم بن همار	أفضل الشهداء الذين إن يلقوا
١٧٨	حكيم بن حزام	أفضل الصدقة عن ظهر غنى
١٧٠	أسامة بن زيد	أقال : لا إله إلا الله ، وقتلته
١٨٦	أنس بن مالك	أقتلوه
٥٥	زيد بن ثابت	اكتب
٥٤	زيد بن ثابت	اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ﴾

١٧٢	رياح بن الربيع	الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن
١٦	أبو هريرة	اللهم آت نفسي تقواها
١١٨	أنس بن مالك	اللهم إن كان هذا هو الحق
١٥٤	صخر بن وداعة	اللهم بارك لأمتي في بكورها
٨٣	أبو هريرة	أمرت أن أقاتل الناس
١٧٢	يحيى بن سعيد	إن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً
١٥٣	أبو موسى الأشعري	إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف
١٥٥	ابن مسعود	إن أرواح الشهداء في جوف طير
٦٣	أنس بن مالك	إن أقواماً بالمدينة خلفنا
١٧٠	أبو هريرة	إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه
٦٣	أنس بن مالك	إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً
١٦٥	المسور بن مخزومة	إن خالد بن الوليد بالغميم
١٩٠	ابن عمر	أن رجلاً أتى ابن عمر فقال:
٥٤	زيد بن ثابت	أن رسول الله ﷺ أملى عليه
١٩٥	أنس بن مالك	أن رهطاً من عكل
١٤٩، ٥٣	أبو هريرة	إن في الجنة مائة درجة
١٦	عياض بن حمار	إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم
١٥٥	المقدام بن معد يكرب	إن للشهيد عند الله خصالاً
١٥٥	المقدام بن معد يكرب	إن للشهيد عند الله ست خصال
٨٩	أبو موسى الأشعري	إن المؤمن للمؤمن كالبنيان
١٩٧	أنس بن مالك	أن يهودياً رضع رأس جارية
١٤٩	فضالة بن عبيد	أنا زعيم لمن آمن بي
١٦٤	عمر بن الخطاب	أنا عبد الله ورسوله
١٨٨	وحشى بن حرب	أنت وحشى

١٤٨	أبو هريرة	انتدب الله لمن خرج فى سبيله
١٧٢	رياح بن الربيع	انظر علام اجتمع هؤلاء
٤٧	سهل بن سعد	انفذ على رسلك
١٦٢	أبو ذر	إنكم ستفتحون مصر وهى
١٤	أبو هريرة	إنما أنا رحمة مهداة
٢٩	أسامة بن زيد	إنما الربا فى النسيئة
١٥٣	أبو أيوب	إنما نزلت هذه الآية فىنا
١٥٤	أم حارثة	إنه فى الفردوس الأعلى
١٤٥	أبو ذر	إنه كان يقسم فيها
١٠٥/١٠٤	ابن عباس	إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا
١٣٨	ابن عباس	أو لم يروا أنا نفتح لمحمد
٤٩	عقبة بن عامر	الا إن القوة الرمى
١٥٥	جابر بن عبد الله	الا أخبرك ما قال الله لأبيك
١٤٨	ابن عمر	أيما عبد من عبادى خرج
١٤٣	أنس بن مالك	الأمين فالأمين

### حرف الباء

٣٨	أبو هريرة	بعثت لأتمم حسن الأخلاق
١٤٨	جابر بن عبد الله	بعينه
١٣٨	ابن عمر	بنى الإسلام على خمس

### حرف التاء

٨٩	النعمان بن بشير	ترى المؤمنين فى تراحمهم
----	-----------------	-------------------------

## حرف الثاء

٤٨	جابر بن عبد الله	ثم ينزل عيسى عليه السلام
١٥٢	أبو هريرة	ثلاثة حق على الله عونهم

## حرف الجيم

١٤٩	عبادة بن الصامت	جاهدوا في سبيل الله
٤٨، ٤٥	أنس بن مالك	الجهاد ماض منذ بعث الله نبيه
٤٢	أبو هريرة	الجهاد واجب عليكم مع

## حرف الحاء والخاء والذال

١٥٢	أبو ريحانة	حرمت النار على عين دمعت
١٩٧	عائشة	خذى أنت وبنوك ما يكفيك
٨٩	على بن أبي طالب	ذمة المسلمين واحدة فمن

## حرف الراء والشين

١٥١، ٥٣	سهل بن سعد	رباط يوم في سبيل الله خير
١٥١	عثمان بن عفان	رباط يوم في سبيل الله خير
١٥١، ١٣٩	سلمان الفارسي	رباط يوم وليلة خير
١٣٥	ابن عباس	رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر
١٥٦	ابن عباس	الشهداء على بارق نهر

## حرف الغين والفاء والقاف

١٤٨	أنس بن مالك	غدوة في سبيل الله
٤١	جابر بن عبد الله	في الجنة فألقى

١٤٧	أنس بن مالك	فلان قتلك
١٤٢	ابن عمر	قاتلوا الذين يلونكم
٩٤	أنس بن مالك	قال أبو جهل: اللهم
١٥٧	معاذ بن أنس	قد أوجبت

### حرف الكاف واللام

١٥١	فضالة بن عبيد	كل ميت يختم على عمله إلا
٩٣	ابن عباس	كنت أنا وأمي من المستضعفين
٩٣	ابن عباس	كنت وأمي ممن عذر الله
	ابن أبي عميرة	لأن أقتل في سبيل الله أحب
٥٢	أنس بن مالك	لغدوة في سبيل الله
١١٨	عائشة	لقد لقيت من قومك
١٥٥	ابن عباس	لما أصيب إخوانكم بأحد
١٤٥	ابن عباس	لما خرج رسول الله ﷺ من مكة
٥٤	البراء بن عازب	لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾
٤٨	جابر بن سمرة	لن يبرح هذا الدين قائماً
١١٣	أبو هريرة	لن يدخل أحداً عمله
٢٨	أبو هريرة	ليس المسكين الطواف الذي..
٢٨	أبو هريرة، وابن مسعود	ليس الشديد بالصرعة
١٥٤	أبو أمامة الباهلي	ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين
١٩٣	الشريد بن سويد	لى الواجد يحل عرضه وعقوبته

### حرف الميم

١٢٦	أبو سعيد الخدري	ما بعث الله من نبي ولا...
-----	-----------------	---------------------------



٢٩	ابن مسعود	ما تعدون الرقوب فيكم
٢٩	أبو هريرة	ما تعدون المفلس فيكم
١٥١	عائشة	ما خالط قلب امرئ رهج
١٤٨	جابر بن عبد الله	ما كلم الله أحداً قط، إلا
١٥٤	أنس بن مالك	ما من عبد يموت، له عند الله خير
١٦	أبو هريرة	ما من مولود إلا يولد على الفطرة
١٥٤	أنس بن مالك	ما من نفس تموت لها عند الله
١٥٦	أبو هريرة	ما يجد الشهيد من القتل إلا
١٥٦	أبو هريرة	ما يجد الشهيد من مس القتل إلا
١٤٨	أبو هريرة	مثل المجاهد في سبيل الله كمثله
١٧	النعمان بن بشير	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
١٠٧	ابن عمر	المسلم أخو المسلم
٨٩	النعمان بن بشير	المسلمون كرجل واحد
١٥٢	أبو هريرة	مقام أحدكم في سبيل الله
٥٣	أبو هريرة	من احتبس فرساً في سبيل الله
١٥٠	سهل بن حنيف	من أعان مجاهداً في سبيل الله
١٥٠	أبو عبس	من اغبرت قدماء في سبيل الله
٦٢	أبو هريرة	من آمن بالله ورسوله وأقام
١٥٠	أبو بكر الصديق	من أنفق زوجين في سبيل الله
١٥٠	أبو عبيدة بن الجراح	من أنفق نفقة فاضلة
١٩٥	أبو هريرة	من بدل دينه فاقتلوه
١٥٢	أبو نجيع السلمى	من بلغ بسهم في سبيل الله، فله
١٥٦	عبد الله بن حبشى	من جاهد المشركين بماله ونفسه
٥٣	زيد بن خالد	من جهز غازياً في سبيل الله فقد

٥٦	أبو هريرة	من خير معاش الناس
١٥١	أنس بن مالك	من راح روحه في سبيل الله
١٤٩	أبو سعيد الخدري	من رضى بالله رباً
١٥٢	عمرو بن عبسة	من رمى بسهم في سبيل الله
٣٤	أبو الدرداء	من سلك طريقاً يطلب فيه علماً
١٥٢	عمرو بن عبسة	من شاب شية في سبيل الله
٣٩، ٣٨	أبو هريرة	من عادى لي ولياً
١٧٥	أبو أيوب الأنصاري	من فرق بين والدها وولدها فرق الله
١٤٩	معاذ بن جبل	من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم
١٧٦، ٤٣	أبو موسى الأشعري	من قاتل لتكون كلمة الله هي
١٥٣، ١٤١		
١٥٣	أبو أمانة الباهلي	من لم يغز، أو
١٥٣	أبو هريرة	من مات ولم يغز

### حرف النون

١٦٣	ابن عباس	نزلت هذه الآيات في صلح الحديبية
٢٣	أنس بن مالك	نعم.. فيلقى الرجل بتمرة
١٧٠، ١٠٠	ابن عمر	نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء

### حرف الهاء والواو

١٩٦	وائل بن حجر	هل لك من شيء تؤدى عن نفسك
١١	أبو هريرة	والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد
١٥٤	أبو هريرة	والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى
٤٨	أبو هريرة	والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم

## حرف اللام ألف

٥٢	أبو هريرة	لا أجده
١٥٣	أبو هريرة	لا أجر له
١٥٧	المغيرة بن شعبة	لا تزال طائفة من
١٩٤	النعمان بن بشير	لا قود إلا بحديدة
١٩٤	النعمان بن بشير، وأبو بكر	لا قود إلا بالسيف
١٥٠	أبو هريرة	لا يجتمع شح وإيمان فى قلب رجل
١٥١	أبو هريرة	لا يجتمع غبار فى سبيل الله و
١٥٦	أبو هريرة	لا يجتمع كافر وقاتله فى النار
١٠٧	أبو هريرة	لا يستر عبد عبداً
٢٣	أنس بن مالك	لا يقدم أحد منكم إلى
١٥٤	أبو هريرة	لا يكلم أحد فى سبيل الله

## حرف الياء

١٥٠	أبو سعيد الخدرى	يا أبا سعيد من رضى بالله رباً
١٥٤	أم حارثة بنت النعمان	يا أم حارثة إنها جنان
٧٧	أبو هريرة	يا جبريل من هؤلاء
١٤٣	عمر بن أبى سلمة	يا غلام سم الله
١٥٦	أبو الدرداء	يشفع الشهيد فى سبعين

# فهرس البلدان والأماكن

## حرف الهمزة

أحد	: ٨٦ ، ١١٨ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦١
أجنادين	: ١٦١
أنطاكية	: ٧٨

## حرف الباء

بدر الصغرى	: ٨٦
بدر الكبرى	: ٩٦ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٨
بنو أسد	: ١٨٥
بنو كنانة	: ١٦٧
بنو النضير	: ٩٧

## حرف التاء

تبوك	: ١٤٣
------	-------

## حرف الجيم

الجب	: ٦٩
الجرف	: ١٦١

## حرف الحاء

الحبشة	: ٧ ، ٨ ، ٩٤ ، ١٣٣
الحجاز	: ٢٠٥
الحديبية	: ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٤ ، ١٩٢

حلب : ٧٨

حمص : ١٨٨

حنين : ٨٤

### حرف الحاء

خير : ١٤٣

### حرف الشين

الشام : ١٤٣، ١٣٧

### حرف الطاء

طرابلس : ٧٨

### حرف العين

العقبة : ١١٨

عكاظ : ١٦٦، ١١٩

عمان : ١٦١

عينين : ١٨٨

### حرف الغين

الغميم : ١٦٥

### حرف القاف

قرن الثعالب : ١١٨

## حرف الميم

مجمع البحرين :	٢٠٢
المدينة :	٧ ، ٨ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٦٩ ، ١٩٢ .
مصر :	١٦٢
مكة :	٧٣ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢ .

## حرف النون

نيسابور :	٧٩
-----------	----

## حرف الهاء

هوازن :	١٦١
---------	-----

## حرف اللام ألف

اللاذقية :	٧٨
------------	----

## حرف الياء

اليرموك :	١٦١
-----------	-----

اليمن :	١٦١
---------	-----

# فهرس الأعلام

## حرف الهمزة

٨٥ .	إبراهيم عليه السلام :
١٦، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٢ .	ابن أبي حاتم :
١٥٦ .	ابن أبي عمير :
٢٠٦ .	ابن برى :
٤٣ .	ابن بطلال :
٦٧ .	ابن الأعرابي :
٣٦ .	ابن أبي مليكة :
٢١٦ .	ابن الأنبارى :
٥٥، ٥٤ .	ابن أم مكتوم :
١٣٨، ١٣٥، ١٠٥ .	ابن جرير الطبرى :
٤٦، ٤٥، ٤٤ .	ابن جزى :
١٨٩، ١٥٩ .	ابن الجوزى :
٤٢ .	ابن حبيب :
١٨٧، ١٨٦ .	ابن خطل :
١٨٦ .	ابن خوير متداد :
٤٠، ٦٢، ٦٧، ١٢٥، ١٣٧، ١٤٢ .	ابن زيد (النحوى) :
٨٣، ٢٠٦ .	ابن سيدة :
٤٠، ٤٥، ٤٧، ٦١، ٦٦، ٩٣، ٩٤، ١٢٠، ١٢٨ .	ابن عباس :
١٣٧، ١٣٨، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣، ١٩٥ .	
١١٨	ابن عبد ياليل بن عبد كلال :

١٠٠، ١٣٢، ١٧٢، ١٨٧، ١٩٢ .	ابن العربي :
٤٣ .	ابن عرفة :
١٠٠، ١٠٧، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٣، ١٧٠ .	ابن عمر :
١٩٠، ١٩٦ .	
١٤، ٢٨، ٦٠، ١٤٤، ١٩١، ١٩٩ .	ابن القيم :
٣٩، ١١٨ .	ابن كثير :
١٤٢ .	ابن مردويه :
١٥٥ .	ابن مسعود :
١١٦، ١٥٣، ١٥٤ .	أبو أمامة :
٤٥، ١٧٥ .	أبو أيوب الأنصاري :
١٨٦ .	أبو برزة :
٨٢، ٨٣، ١٠١، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٠، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨ .	أبو بكر الصديق :
١٧١، ١٧٢، ١٩٤، ١٩٦ .	
٦٣ .	أبو بكرة :
٩٣، ١٦٨ .	أبو جندل :
٩٩، ١١٨، ١٢٠، ١٦١ .	أبو جهل :
١٠٠، ١٣٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٦ .	أبو حنيفة :
٩٣ .	أبو حيان :
٣٤، ١٢٢، ١٥٦ .	أبو الدرداء :
١٤٥، ١٦٢ .	أبو ذر :
١٥٢ .	أبو ريحانة :
١٠٥ .	أبو زرعة :
٧٤ .	أبو السعود :



١٥٠، ١٤٩، ١٢٦	أبو سعيد الخدري :
١٨٩، ٩٦، ٨٦، ٢٣	أبو سفيان :
٢٠٦	أبو العباس [النحوى] :
٢٠٥، ١٢٥	أبو عبيدة [النحوى] :
١٥٠	أبو عبيدة بن الجراح :
١٨٧	أبو عتبة الحنفى :
١٦١	أبو عثمان الغسانى [يزيد بن أسيد] :
٧٨	أبو العلاء المعرى :
١٥٠	أبو عيسى :
١٩٥	أبو قلابة :
٨٥	أبو مسلم :
١٥٣، ١٤١، ٨٩، ٧٦، ٦٣، ٤٣	أبو موسى الأشعرى :
١٥٢	أبو نجيب السلمى :
١١، ١٤، ١٦، ٢٨، ٢٩، ٣٨، ٣٩، ٤٢	أبو هريرة :
٤٨، ٥٢، ٥٣، ٥٦، ٦٢، ٧٧، ٨٢، ١٠٧	
١١٣، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣	
١٥٤، ١٥٦، ١٥٩، ١٧٠، ١٩٤	
٤٠	أبو وائل :
٢٠٥، ٢٠٦	الأزهري :
١٤٥، ١٨٥، ٢٠٥	الأعمش :
١٥٤	أم حارثة بنت النعمان :
١٦٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩	أم سلمة :
١٨٨	أم قتال بنت أبى العيص :

أم مجاهد : ١٦١ .  
 أنس بن مالك : ٢٣ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ،  
 ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٧ .

أيوب السخيتاني : ١٦٧ .

### حرف الباء

بديل بن ورقاء الخزاعي : ١٦٥ .  
 البراء : ٥٤ .

### حرف الثاء

ثعلبة مانع الزكاة : ١٩ .  
 ثويان : ١٥٧ .

### حرف الجيم

جابر بن سمرة : ٤٨ .  
 جابر بن عبد الله الأنصاري : ١١ ، ٤١ ، ٤٨ ، ١٤٧ ، ١٥٥ .  
 جبريل عليه السلام : ٧٧ ، ١١٨ .  
 جبير بن مطعم : ١٨٨ .  
 جندب : ١٧١ .  
 الجوهري : ٨٣ .

### حرف الحاء

الحارث بن هشام : ١٦٢ .

- حذيفة بن اليمان : ٣٦ .  
الحسن البصرى : ٢٤، ٤٠، ١٠٦، ١١٣، ١٣٧، ١٩٦ .  
الحسين بن واقد : ١٠٥ .  
حكيم بن حزام : ١٧٨ .  
حماد بن زيد : ١٠٦ .  
حمزة (عم النبي) : ١٤٥، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩ .  
حمزة (القارئ) : ٢٠٥ .

### حرف الحاء

- خالد بن الوليد : ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٣ .  
الخرشى : ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥ .  
الخضر عليه السلام : ٢٠٢ .

### حرف الدال

- الدوودي : ٤٢ .

### حرف الراء

- الرازي : ٨٥ .  
رياح بن ربيع : ١٧٢ .  
ربيعة بن شرحبيل : ١٦٢ .

### حرف الزاى

- الزجاج : ٨٣، ٢٠٥، ٢٠٦ .

الزمخشري :	١٣٤، ٩٣ .
زيد بن ثابت :	٥٥، ٥٤، ٥٣ .
زيد بن خالد :	٥٣ .

### حرف السين

سباع :	١٨٨ .
سحنون :	١٧٢ .
السدي :	١٠٥، ٤٠ .
سعد بن أبي وقاص :	١٧٠ .
سعيد بن جبير :	١٤٥ .
سلمان الفارسي :	١٥١ .
سلمة بن هشام :	٩٤، ٩٣ .
سهيل بن حنيف :	١٥٠ .
سهل بن سعد :	١٥١، ٥٣، ٤٧ .
سهيل بن عمرو :	١٦٧، ٩٣ .
السهيلي :	٤٣ .

### حرف الشين

الشافعي :	١٨٦، ١٣٤ .
الشبرخيتي :	٤٥، ٤٣ .
الشوكاني :	١٢٣ .

### حرف الصاد

صخر بن وداعة :	١٥٤ .
----------------	-------

صفوان بن محرز : ١٧١ .

### حرف الضاد

ضرار بن الأزور : ١٦٢ .

ضمضم بن عمرو : ٩٦ .

### حرف الطاء

طعيمة بن عدى بن الخيار : ١٨٨ .

### حرف العين

عائشة : ١١٧، ١٥١، ١٩٧ .

عاصم [القارئ] : ٢٠٥ .

عامر بن لؤى : ١٦٥ .

عامر بن عبد الله بن الزبير : ١٠١ .

عبادة بن الصامت : ١٤٩ .

عباس بن أبى ربيعة : ٩٣، ٩٤ .

عباس بن فرناس : ٢١ .

عبد الله بن الزبير : ١٧١ .

عبد الله بن عبيد بن عمير : ١٢٨ .

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٩ .

عبد الله بن كثير : ٤٠ .

عبد الله بن مسعود : ٢٩ .

عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة : ١٦٢ .

- عبد الرحمن بن عوف : ١٠٤، ١٠٥ .
- عبد الرحمن بن مهدي : ١٠٦ .
- عبيد الله بن عدي بن الخيار : ١٨٨ .
- عتاب بن أسيد : ٩٤ .
- عتبة بن ربيعة : ١٤٥ .
- عثمان بن عفان : ١٥١ .
- عثمان بن مظعون : ٦٤ .
- عروة بن مسعود : ١٦٦ .
- عسعر بن سلامة : ١٧١ .
- عطية : ٦٧ .
- عقبة بن عامر : ٤٩ .
- عكرمة بن أبي جهل : ١٦٢، ١٦١ .
- عكرمة البربري : ١٦٧ .
- علقمة بن وائل : ١٩٦ .
- علي بن أبي طالب : ١٩٥، ١٣٥، ٨٩، ٤٧ .
- علي بن الحسين : ١٠٥ .
- علي بن رمحة : ١٠٥ .
- عمر بن الخطاب : ١٨٣، ١٧٣، ١٦٨، ١٦٤، ١٣٣، ٨٣، ٣٨، ٣٦ .
- عمر بن عبد العزيز : ١٧٣ .
- عمرو بن أبي سلمة : ١٤٣ .
- عمرو بن دينار : ١٠٥ .
- عمرو بن الشريد : ١٩٣ .
- عمرو بن العاص : ١٦٢ .
- عمرو بن عبسة : ١٥٢ .

- عمير بن الحمام : ٢٣ .  
 عياض بن حمار : ١٦ .  
 عيسى عليه السلام : ٤٨ ، ١٢ .

### حرف الفاء

- الفخر الرازي : ٦٦ .  
 الفراء : ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٢٥ ، ٦٩ .  
 فضالة بن عبيد : ١٥١ ، ١٤٩ .  
 الفيروزآبادي : ١١٢ .

### حرف القاف

- القاسمي : ٨٥ .  
 القاضي الزنجاني : ١٨٧ .  
 قتادة بن دعامة : ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٢٢ ، ١١٤ ، ٦٢ ، ٤٠ .  
 ١٨٦ ، ١٤٢ .  
 قتيلة أم أسماء : ١٠١ .  
 القرطبي : ٢٠٠ ، ١٣٧ ، ١٢٥ ، ١٢٢ ، ٢٤ .  
 قيصر : ١٦٧ .

### حرف الكاف

- الكسائي : ٢٠٥ ، ١٨٥ .  
 كسرى : ١٦٧ .  
 كعب بن لؤي : ١٦٥ .

- كعب بن مالك : ١٦٢ .  
كعب بن مرة : ١٥٢ .

### حرف اللام

- اللعثاني : ٨٣ .

### حرف الميم

- محمد أحمد بن جزى : ٤٢ .  
محمد رشيد رضا : ١٤٢ .  
محمد الطاهر بن عاشور : ٢٠٧، ١٨٣، ٨١ .  
محمد بن عبد العزيز : ١٠٥ .  
محمد بن مسلمة : ١٣٣ .  
مجاهد بن جبر : ١٢٧، ١٠٥، ٤٠ .  
مسلم البطّين : ١٦٥ .  
مسور بن مخرمة : ١٦٥ .  
مسيلمة الكذاب : ١٨٩ .  
معاذ بن أنس : ١٥٢، ١٠٠ .  
معاذ بن جبل : ١٤٩ .  
معمر بن راشد : ١٦٧ .  
المغيرة بن شعبة : ١٦٦، ١٥٧ .  
مقاتل المفسر : ١٨٦ .  
المقدام بن معد يكرب : ١٥٥ .  
ملك الجبال : ١١٨ .



موسى عليه السلام : ١٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤ .

### حرف النون

- نافع مولى ابن عمر : ١٩٠ .  
نافع [القارىء] : ٢٠٥ .  
النجاشى : ١٦٧ .  
النعمان بن بشير : ١٧، ٨٩، ١٩٤ .  
النفراوى : ٤٢ .  
النوى : ٥٦، ١٠٠، ١٣٩، ١٥٦ .

### حرف الهاء

- هشام الدستوائى : ١٠٦ .  
هند زوجة أبى سفيان : ١٨٩، ١٩٧ .

### حرف الواو

- وائل بن حجر : ١٩٦ .  
وحشى بن حرب : ١٨٨ .  
الوليد بن المغيرة : ١١٩، ١٢٠، ١٢١ .  
الوليد بن الوليد : ٩٣، ٩٤ .  
وهبه الزحيلي : ١٢٧ .

### حرف الياء

- يحيى بن سعيد : ١٧٢ .

- يزيد بن أبي سفيان : ١٧٢، ١٧١ .
- يزيد بن معاوية : ٤٥ .
- يعقوب بن إبراهيم الدورقي : ١٠٦ .
- يوشع بن نون : ٢٠٢ .

# فهرس الأشعار

الصفحة	الراوى	عجز البيت	صدر البيت
--------	--------	-----------	-----------

## قافية الهمزة

١٠٩	المتنبى	مستهماً بها صبا	أرى كلنا يبغى
٧٩	المعرى	قلت إليكما	قال المنجم والطبيب كلاهما

## قافية الباء

١٢٥	أبان بن تغلب	والمعتدين وأهل الريب	فبئس الوليعة للهاريين
-----	--------------	----------------------	-----------------------

## قافية العين

٣٣	-	ذو الشبيحة اليتقصع	ويستخرج اليربوع
----	---	--------------------	-----------------

## قافية الكاف

٧٨	المعرى	لا يعاد لن سبك	تحطمنا الأيام
----	--------	----------------	---------------

## قافية اللام

٤٠	-	فى بيننا والوسائل	إذا غفل الواشون
١٤٦	الطغرائى	أن ترعى مع الهمل	قد هيئتوك لأمر

صدر البيت	عجز البيت	الراوى	الصفحة
-----------	-----------	--------	--------

### قافية النون

١٠٨	-	لعدونا أضلنا الشجعانا	ولو أن الحياة تبقى لحي
١٦٠	-	زرافات ووحداننا	قوم إذا الشر أبدى
٣٣	-	بست الخلتان الجهل والجبن	جهلاً علينا وجبناً

### قافية الياء

١٠٩	-	هل أنت مخلصى؟	ألا أيها الزاجرى
-----	---	---------------	------------------

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإسلام والسيف .....	٧
النبي محمد ﷺ رسول للناس جميعاً .....	١١
جهاد الحجة والبيان .....	١٦
تقوى الله .. والجهاد .....	٣٧
حكم الجهاد .....	٤١
حد الجهاد .....	٤٣
شروط وجوب الجهاد .....	٤٤
فرائض الجهاد .....	٤٥
من يقاتل فى الجهاد .....	٤٦
الدعوة قبل القتال .....	٤٧
الترغيب فى الجهاد .....	٥٢
تحريض المؤمنين على الجهاد .....	٦٩
تشويق المؤمنين للإذن بالقتال .....	١٠٤
الجهاد فتنة واختبار .....	١٢٣
النفيى فى الجهاد .....	١٢٧
نقض العهد موجب للقتال .....	١٣٢
أولويات القتال .....	١٣٧
الإذن بالقتال .....	١٤٤
فرض القتال .....	١٩٩
مصادر الدراسة والتحقيق .....	٢٢٣

الموضوع	الصفحة
الفهارس	٢٢٧
فهرس الآيات	٢٢٩
فهرس الأحاديث	٢٤٠
فهرس البلدان والأماكن	٢٤٨
فهرس الأعلام	٢٥١
فهرس الأشعار	٢٦٣
فهرس الموضوعات	٢٦٥